

مكتبة بغداد
جان بول سارتر
الاستعمار الجديد
ترجمة: عايدة وسهيل ادريس
دار الآداب

جان بول سارتر

# الاستعمار الجديد

ترجمة

عايدة وسهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية
نيسان ( ابريل ) ١٩٦٦

# « من صين إلى أخرى »

إن الحرب ورفض فهم العدوّ هما أصل كل ما يثير الفضول ويُبرز الأصالة : والواقع أن أنوارنا عن آسيا انما صدرت الينا اولاً من بعثات مغتاظة ومن جنود. وفيما بعد وصل المسافرون – التجّار والرحّالة – الذين هم عسكريون قد بردت أعصابهم : إنّ النهب يُدعى « التسوّق » ، وانتهاك الأعراض يُمارس بأكلاف باهظة في حوانيت متخصّصة . ولكنّ السلوك المبدئي لم يتغيّر: صحيح أنّ قتل السكان المحليين قد قلّ عن ذي قبل ، ولكن احتقارهم يتمّ بالجملة ، وهذا هو الشكل المتحضّر للقتل ؛ ويتذوّق الناس اللذة الارستوقراطية في إحصاء « الفروق » . « أنا أقص شعري ، وهو يضفر شعره ؛ أنا استعمل الشوكة ، وهو يستعمل الأخشاب الصغيرة ليأكل بها ؛ أنا أكتب بريشة أوزة ، وهو يخطّ الأحرف بالمنقش ؛ إنّ أفكاري مستقيمة ، وأفكاره منحنية : هل لاحظت انه يستفظع الحركة المستقيمة، ولا يبدو سعيداً إلا إذا تمّ كل شيء بصورة مواربة ؟» هذا ما يسمى بلعبة الشذوذ : فاذا وجدت شكلاً جديداً آخر من الشذوذ، واذا اكتشفت سبباً آخر لعدم الفهم ، أعطوك في بلدك جائزةً برهافة الحسّ . ولا مجال للدهشة اذا تساءل أولئك الذين يعيدون على هذا النحو تشكيل أمثالهم كفسيفساء من الفروق التي لا سبيل الى محوها كيف يمكن المرء ، بعد ذلك ، ان يكون صينياً . كنت ، وأنا طفل ، ضحية ما يثير الفضول ويُبرز الأصالة : كان مَنْ حولي قد صنعوا كل شيء ليجعلوا الصينيين مخلوقات مخيفة . كانوا يحدثونني عن البيض العفِن – وكان الصينيون مغرمين بالتهامه – ، وعن رجالٍ منشورين

بين لوحين من خشب ، وعن الموسيقى الرقيقة الثاقبة العـــديمة الانسجام . وفي العالم الذي كان يحيط بي ، كان ثمة اشياء وحيوانات توصف ، مما توصف به، بأنها « صينية [1] » . كانت دقيقة وفظيعة ، وكانت تتسرب بين الأصابع ، وتهاجم من خلف ، وتنفجر فجأة في ضجيج مضحك ، ظلالاً تنساب كالسمك على جدار حوض مائي ، وفوانيس مخنوقة ، وحيلاً دقيقة واهيــة لا تُصدَّق ، وألواناً من التعذيب بارعة ، وأبواقاً تقرع الأجراس . وكانت ثمة ايضاً الروح الصينيــة التي كان يُقال لي عنها بكل بساطة انها لم يكن ثمة سبيل للنفاذ اليها. « الشرقيون، كما تعلم ... » ولم يكن الزنوج يثيرون قلقي : فلقد لُقّنتُ انهم كانوا كلابــاً طيبة ؛ وكان المرء ، الى قربهم ، يبقى بين الضرعيات. ولكن « الآسيوي » كان يبعث لديّ الخوف ، كتلك العقــارب التي تعشّش في حقول الرّز والتي تهرب لتختفي بين ثلمين ، وكذلك الجراد الذي ينقضّ على السهل الكبير ويتلف كل شيء . اننا نحن ملوك السمك والأسود والجرذان والقرود ؛ أمــا الصينيّ فهو مَفْصِلِيّ أعلى، يحكم المفصِليّات.

ثم جاء « ميشو » ، وكان أول من صوّر الصينيّ بلا روح ولا عقل ، والصين بلالوطس ولا « لوتي [2] » .

وبعد ذلك بربـع قرن ، جاءت مجموعة صور « كارتييه – بريسون » فأتمّت محو آثار الخداع والتضليل .

إن هناك مصوّرين يَدفعون الى الحرب لأنهم يتعاطون الأدب . فهم يبحثون عن صينيّ يبدو عليه أنه اكثر صينيّةً من الآخرين؛ وينتهي بهم الأمر الى العثور عليه ؛ ويجعلونه يتّخذ مسلكاً نموذجيّاً الصينيّة ، ويحيطونه بالمظاهر الصينية المعقّدة . وبعد ذلك ، ما الذي يكونون قد ثبّتوه على الشريط ؟ أصينيّ ؟ لا : بل « الفكرة » الصينية .

---

١ – والمقصود بذلك انها معقدة ، غريبة ، غير قابلة للفهم ( هـ . م ) .

٢ – اللوطس هو شجرة النيلوفر ، ولوتي هو روائي انطباعي فرنسي. والجناس بين الكلمتين اراد به الكاتب الاشارة الى فقدان الجمال الطبيعي والعبقرية . ( هـ . م ) .

إن صور « كارتييه – بريسون » لا تثرثر قط . إنها « ليست » افكاراً : بل هي تعطينا افكاراً . من غير أن تتقصّد ذلك . إن « صينيّيها » يثيرون الحيرة والبلبلة ، فمعظمهم لا يملكون أبداً هيئة صينية بما فيه الكفاية . والسائح ، الذي هو رجل فكر ، يتساءل كيف يفعلون ليتَعرّفوا أنفسهم فيما بينهم . أما انا ، فأتساءل بعد أن تصفّحت مجموعة الصور : بل كيف ترانا نفعل لنخلطهم ونمزجهم ، ولنصفّهم جميعاً تحت عمود واحد ؟ إن « الفكرة » الصينية تبتعد وتشحب . فليست هي بعدُ إلاّ تسميةً مناسبة . ويبقى بشرٌ متشابهون « بصفتهم بشراً » . ألوان من الحضور حيّةٌ من لحم ودم لم تتلقّ بعدُ تسمياتها المراَقبَة. ويجب ان نشكر لمجموعة « كارتييه – بريسون » نزعتها « الإسمية ».

إن ما يبرر الأصالة ويثير الفضول يكمن في الكلمات . فأية غرابة هي ان أقدّم لك بالكلمات هذا الخصيّ العجوز ! إنه يعيش في الدير ، مع خصيان آخرين وهو يحتفظ في قمقم بـ « نسائه الثمينات » ؛ لقد كان في بعض الامسيات ، حين لم تكن الامبراطورة « تسوهي » ، وهي « اغريبين [1] » الصفراء ، إلاّ سُرّية بعدُ ، يعرّيها من ثيابها ، ويُسربلها بشالٍ أرجواني ويحملها بين ذراعيه حتى يصل بها السرير الامبراطوري : امبراطورة عارية ، « أغريبين » السرية ، شال ارجواني ، إن جميع هذه الكلمات تتبادل الضوء بأنوارها . أما ما ينقص : فهو كلُّ ما يمكن « اعطاؤه للرؤية » ، الحقيقية . والآن ، افتحْ مجموعة الصور : فما الذي تراه اولاً ؟ حياة تتحلّل ، ورجل عجوز . وليس حادث الخصاء العرضي هو ما يمنحه هذا الوجه المجعّد الشمعي ، وانما هي الشيخوخة العامة ؛ والشيخوخة ، لا الصين ، هي التي دبغت جلده . هو يشبه امرأة ؟ ربما : ولكنّ ذلك بسبب أنّ اختلاف الجنسين ينزع الى الزوال مع السّن . إنه يخفض عينيه في تقى متصنّع ، وفي رياء ، ويمدّ يده ليلتقط الورقة التي يُريها إيّاه ترجمان ضحوك خائب . أين هي انوار البلاط الامبراطوري ؟ أين هنّ امبراطورات الأمس ؟ انني أفهم ان يكون خصياً . ولكن ما كان عساه يستطيع ان يفعل

---

١ – ام نيرون ( هـ . م ) .

اكثر من ذلك ، وهو في تلـــك السّن ، لو لم يكن خصياً ؟ إنّ طابع الأصالة والبروز يمحّي ، ووداعاً للشعر « الأوروبي » ؛ اما ما يبقى ، فالحقيقة الماديـّة ، والبؤس و نَهَم طفيليّ شيخ من العهد البائد .

* * *

هذا الفلاّح يتناول الغداء . لقـد قصد المدينة ليبيع فيها منتجات أرضه . وهو الآن يأكل حساء بالأرز ، في الهواء الطلق ، وسط سكان المدينـــة الذين يجهلونه ، بشراهة خشنة : إنّ له ، هو الجائـــع ، المتعب ، المتوحّـد ، إخوةً في هذه اللحظة ، في جميع كبريات المدن الزراعية في العالم ، ابتداء من « اليوناني » الذي يدفع خرفانه على جادّات أثينا ، حتى البربري الذي هبط من جباله ليتيه في شوارع مراكش . وهؤلاء فلاحون آخرون : قذفت بهم المجاعة الى بكين ، فمكثوا فيها . وماذا يفعلون في عاصمة بلا صناعة ، حين يتطلّب التكنيكالفني تدريباً طويلاً ؟ إنهم سيقودون دراجات – عمومية . وما كدنا نلقي نظرةً على هذه العربات ، حتى بدت لنا مألوفة : فقد كان لنـــا مثلها في أيام الاحتلال . صحيح انها كانت تبدو أَقلّ قذارة ، ولكنّ ذلك لأننا كنـّا نضع قذارتنا في مكان آخر . والبؤس هو أفضل مـــا يتقاسمه العالم : فإن البؤساء لا يعوزوننا . وصحيح اننا فقدنا عادةَ أن نقرنهم بعربات ليجرّوا الأغنياء . ولكن أتراهم قد كفـّوا عن ان يكونوا دواب حمولتنا ؟ إ ّنهم ُيقرنون بالآلات .

ومن هم الذين ُيجرّون ؟ إنهم سادة أفاضل ، بقبعات طرية وأثواب طويلة ، هؤلاء الذين يتصفـّحون هذه اللحظة كتباً معروضة امام حانوت كتبيّ ، والذين يبتهجون انهـــم يعرفون القراءة . اتراكم تضحكون من ثوبهم ؟ يجب اذن ان تضحكوا من خوارنتنا . او من قبعاتهم ؟ إضحكوا إذن من أنفسكم . ان لباس النخبة هناك هو اللبادة والثوب الطويل، أما عندنا، فهو البذلة ذات السترة . إن ما يدعو الى الضحك على أيّ حال، عندهم وعندنا، أن تكون ثمة ُنخبة، «سادة» هم وحدهم الذين يعرفون القراءة او العدّ ، ويحملون على ظهورهم ِسمَة تفوّقهم .

إن الصور تقرّب بين البشر حين تكون مادّية ؛ اي حين تبدأ من البدء : من

الأجسام ، من الحاجات ، من العمل . والى الشيطان البيضُ المتعفّن وزعانف سمك القرش : انتم تقولون انهــا أطعمة غريبة ما دام أربعون مليون فرنسي تقريباً يجهلون حتى طعمها ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فان هذه الاطعمة هي إذن أشدّ غرابة في الصين ما دام اربعمئة مليون صيني - تقريباً - لم يذوقوا طعمها قطّ . أربعمئة مليون صيني جائعون ، كالعمّال الايطاليين المياومـين ، يرهقهم العمل ، وكالفلاحين الفرنسيين ، تستغلـّهم اسرة تشان كاي شك ، كما يستغلّ كبار اقطاعيي الرأسمالية ثلاثة ارباع الغربيين . ونحن بالتأكيد لا نتكلم ، بعـد هذا ، لغتهم ، وليست لنا أخلاقهم وعاداتهم ، ولكن يظلّ في الأوان ان نتحدّث عن الفروق والاختلافات . إن مـا يفرّق يجب ان يُتعـلّم ؛ ومـا يجمع يُرى في طرفـة عين . فهذا الرجل القادم نحونا ، ينبغي ان تعرف فوراً إن كنت سترى فيـه أولاً ألمانياً ، او صينياً ، او يهودياً ، او اولاً إنساناً . وستقرر من تكون حين تقرر من يكون . اعتبر هذا العامل الأسيوي جرادة صينية ، تصبحْ فوراً ضفدعة فرنسية . إجعل نماذجك يتوّضعون ، تمنحْهم الوقت ليصبحوا آخرين . آخرين يختلفون عنك . يختلفون عـن الانسان . يختلفون عن أنفسهم . إن « الوضعة » تُنتج النخبة والمنبوذين ، والجنرالية والـ « بابو » [1] وسكان بريتاني الذين يمارسون بريتانيتهم ، والصينيين الذين يمـــارسون صينياتهم والسيدات المحسنات : المثـل الاعلى . وان صور « كارتييه — بريسون » السريعة تلتقط الانسان بأقصى السرعة من غير ان تترك له الوقت ليكون سطحياً . ونحن جميعاً « متشابهون » ، في هذه الصور السريعة ، جميعنا في قلب وضعنا البشري .

ولن يُرونا من هـذه « الامبراطورية » الزراعية الشاسعة إلاّ المدن : إن الشيوعيين هم اسياد الأرياف . ولكن كل صورة تكشف لنا عن عاهات اقتصاد متخلـّف : الصناعة اليدوية ، كثافـــة السكان ، البؤس . ويقول « ميشو » : « إن الشعب الصيني صانع يدوي بالولادة ... وكل مـــا يمكن العثور عليه من ممارسة الحرف على اختلافها ، قـد عثر عليه الصيني » وهذا صحيح : فانظر الى

(١) زنوج غينيا الجديدة ، وهم بلا جنس او أصل محدد . ( هـ.م )

الباعة ، ووجوههم الخبيثة الصابرة ، وراقب الأيدي ، الأيدي الخفيفة البارعة، التي لا تبدو قطّ غير منشغلة ، والتي تدير حبّتيْ جوز احداهما على الأخرى ، كما تُمرُّ الأيدي اليونانية حبوب السبحة العنبرية تحت إبهامها ؛ انها مصنوعة لترتّق وتدقّق : « إن الحيلة في الصين ليست مرتبطة قطّ بالشرّ ، بل بكل شيء ؛ والفضيلة ، هي افضل ما يُدبَّر فيها . » إنهم جميعاً مدبّرون ، وجميعهم بالتأكيد صُنّاع ، وفنّانون ، واصطناعيون . ولكن إذا كان لا بدّ لك من ان تظنّ أنهم مدينون ببراعتهم الى تلوّن بشرتهم ، او الى شكل أمخاخهم ، او الى نوع طعامهم ، فاني سأسألك من هو أبرع وأمهر من صينيّ او نابوليتاني ؟ إن نابولي تقف في وجه بكين: فمقابل كل صينيّ ، صينيّ ونصف ! ومن المحتمل ان تكون نتيجة المباراة صفراً . ففي نابولي ، يخدعوننا بأقلام حبر مزيّفة من نوع « باركر » ، مسروقة بشكل مزيّف ، وبساعات مسروقة حقاً ، لتباع بشكل مزيّف ، وبعدّادات مزوّرة ؛ وإذا اشتريت سكايرك من باعة الشوارع ، فالله ادرى بالذي ستدخّنه ! ولكن انظر الى هذا البائع الذي يبيع سكاير تحت حماية تشان كاي شك او سان يات سن : إن عينه ثقيلة ، وشفته متدلّية ؛ وهو يبدو أشدّ بلهاً من أن يكون قليل الذوق ؛ ومع ذلك ، فهو قد فتح جميع العلب التي يعرضها ، واستخرج حشو السكاير ثم ملأها ثانية بفضلات قنّعها عند الطرفين بطبقة من التبغ . ولانعدام الصناعة ، يقضي الجميع ، وهم الصناعيون ، أوقاتهم في التصليح والتدعيم والوصل ؛ انهم يسدّون الثقوب ، ويحولون دون ان تنهار الجدران والسقوف ، ثم يجلسون بين كارثتي فيضان يترصدون على الرصيف الأغنياء وهم ينصبون بعض التصاميم ليستدرّوا منهم بعض الدراهم . وتفسير براعتهم وخبثهم الحليم ، إنما يكمن في البؤس وانعدام الآلات .

جوع آسيا . يجب ان نحمد لمجموعة « كارتييه – بريسون » أنها لم تصمّم ان تطلعنا على تحرّكها الكثيف . ذلك انها لا تتحرّك قطّ ، او قليلاً جداً : فهي تنظّم نفسها . إنها بالتأكيد تكلنسح كل شيء ، وتهدم كل شيء : وهاتيك النساء العجائز اللواتي يتقدّمن بخطى قصيرة ، وبسمات صغيرة ، إنما هنّ خادمات

قديمات ، امّهات الجموع الآلهات . واذا دخلت إحداهنّ ، على استيحاء ، بيت غنيّ لتزور خادمة ، هي حفيدتها او ابنة عمّها ، فسرعان مـــا يصبحن كلهنّ هناك ، من غير تفسير لهذا ؛ ويكون البيت أصغر من أن يحتويهنّ ، فتنهـــار الجدران . والامير كيون يخشون كثيراً هؤلاء الزائرات اللواتي لا عدّ لهنّ .

ولكن لا يحقّ لأحد أن يشبّه هـذا التكاثر بغزو الجراد . فالجموع الصينية منظّمة : انها تحتلّ الأرصفة وتفيض على الطريق، ولكن ما يلبث كل فرد أن يتخذ مكانه فيما هو « يعترف » بمكان الجار . انظر الى اولئك الحلاّقين : إن لهم جميعاً مكانهم الحيوي ، ولا يفكـّر أحدٌ في منازعتهم عليه . ذلك ان هذا الجمع ذا الأنسجة المسترخية ينزف حتى يتوتـّق وينحصر ؛ وفي شنغهـــاي ، تطرح الحكومة ذهبـــاً في السوق ، فيقف المشترون في الصفّ ، واذا هو تكثيف مفاجىء للكثرة ، وتكون النتيجة : سبعة قتلى وبضع سيقان محطمة . إن على انسان الجموع في الصين ان يعيش على مسافة تحترم مسافة الآخرين ، والتـأدّب الصينيّ الشهير هو قبل كل شيء تدبير عاجل جداً للحيلولة دون الاختنـــاق . ومجموعة « كارتييه — بريسون » تجعلنا نلمس في كل مكان هذه الكثافة الشبحية، مجزأة الى بروج صغيرة ، وذلك التهديد بالموت ، خفيّاً وموجوداً في كل مكان . أما أنا الذي أحبّ الجموع كالبحر ، فإن هذه الجماهير الصينية لا تبدو لي فظيعة حتى ولا أجنبية : صحيح انها تـَقتل، ولكنها تدسّ الموتى في صدرها وتشرب الدم كما تشرب النشّافة الحبر : انها لا تسمع ولا تعرف . أمـــا جماهيرنا ، فهي أشد غيظاً ، وأكثر قسوة ؛ انها حين تنسحب تخلـّف الموتى وراءها ، وتكون الأرصفة المهجورة مطليّة بالأحمر : ذلك هو الفرق الوحيد .

كان السائح في السنوات الأولى من هذا القرن هاوياً كبيراً للبؤس . وقد كان الكابتن كاربو ، ابن النحّات « كاربو » ، يتحسّر في عـام ١٩١١ ان يكون شبيهٌ صينيّ لـ « هوسمان » (١) قـد شقّ جادّات في المدينة الأمبراطورية :

---

(١) حاكم اداري فرنسي ( ١٨٠٩ — ١٨٩١ ) اشتهر بأعمال العمران التي غيرت معـــالم باريس ( هـ . م ) .

« واأسفاه ! مـــاذا فعلوا بالشارع البكيني الكبير المليء بحركة أصيلة ، اللذيذ القذارة والتحفـّر ؟ أين تراهم جميع اولئك الباعة المتجولين الشديدي الغرابـة الواقفين أمام معروضاتهم الصغيرة التي ليس لها من اسماء ؟ لقد ُطرد كل شيء ، وانتـُزع وحـُطـّم ، وسُوّي وذهبت البلاطات الكبيرة المعمّرة والمكسّرة مع الباعة القذرين الذين يثيرون الفضول .. » قذرون ، لذيذو الوساخة ، عجيبون غريبون . هذا على كل حال ما يصبح عليه البشر تحت قبضة البؤس . ومع ذلك فاننا نشكو منهم ؟!

تبارك البرد والجوع لأنهما أمليا هـذه الاختراعات المضحكة وتلك اللقى الدقيقة الكثيرة . ثم إن الفقراء محافظون : انهم يحتفظون بالأثاث القـــديم ، واللباس القديم، والأوائل القديمة ، لأنهم لا يستطيعون ان يستبدلوا بها سواها . ويذهب الذاهبون ليبحثوا في أكواخهم عن تقاليد الصين القديمة . وأيّـة أ ّبهة يجدون في تلك المِزَق الملكية الرّثة ، من غير انـ ينسوا الرسوم المنقوشة بالأقذار على حناجر فتيـّة . أترانا قد تغيّـرنا الى هذا الحدّ ؟ اننا لن نذهب بعدُ لزيارة الفقراء في بيوتهم . بل لكأننا نتحاشاهم . ذلك انهم يبالغون ؛ انهم منذ حين يزعجون الأغنياء .

تصوّروا « باريس[1] » في بكين . ولِمَ لا ؟ لنتمثـّله في عـــام ١٩٠٨ ، ولنتصوّره عائداً بخطى بطيئة من بيت ضيافيّ وهو يفكر بكتابة « بيرنيس صينية » . وفجـأة ، يتوقـّف وينظر عند قدميه الى لفافة من القماش . إنهم في الصين، حين يموت طفل، يربطونه بالخيوط في قماشة حمراء ويُترك ليلاً في زاوية، حتى اذا كان الصباح ، جاءت عجلات البـلدية لتأخذه الى المقبرة . وها هو ذا « باريس » في غاية الانفعال : أنـّى له ألاّ يرقّ ويتحـّنن على هذه العادة الجميلة ؛ وأية متعة فنية يصيبها وهو يتأمل هذه الأكوام الصغيرة القرمزية التي تضفي على رماديـّة الفجر لمسةّ حيـّة مرحة . ولقد وضعوا امام هـذه اللفافة قطة

---

(١) كاتب فرنسي ( ١٨٦٢ — ١٩٢٣ ) ذو نزعة غنائية ، وكان يحب الارض ويمجـد الاموات ويتميز بنزعة قومية شديدة ( هـ . م ) .

ميتة. قطة ميتة ، وطفل ميت : روحان صغيرتان موحشتان. ويضمّهما «باريس» في مرثية واحدة ، ثم يورد تقريبات وتشبيهات أكثر تميّزاً : ففي هـذه الساعة نفسها ، ربما كانوا يحملون في حرير ارجواني ، الى السرير الامبراطوري ، سرّية ذات جسد جميل حارّ . جسد صغير حارّ ، وجسد صغير بارد؛ وعلى كلٍّ منهما، لطخة الدم نفسها. وها قد بلغنا الهدف: دم، وشهوة، وموت [1]. يا لـ «باريس» السعيد: لقد مات بدوره، حاملاً الى قبره سرّ الضمير المرتاح. اما نحن الآخرين ، فقد رأينا الأطفال يموتون كالجرذان في أعمال القصف الجوي أو في المعسكرات النازية : وحين يروننا ، وسط ديكور باذخ من الرمال الحمراء وأشجار النخيل ، ذباباً يأكل عيون المواليد ، نصرف رؤوسنا ، وينتابنا تبكيت الضمير . هـل تستطيعون تفسير ذلك ؟ لقد حدث يوماً في زقاقٍ من أزقة نابولي ، ان انفتح باب اسطبل عـن كهف مظلم : وكان ثمة على سرير طفل ذو ستة أشهر يرتاح ، ضائعاً ، بوجه متجعّد كأنـه القماشة ، ويبدو متبرّجاً : وكان يشبه شبهاً لا يُصدّق ذلك الكاردينال التسعيني الذي كان يوم الأحد السابق قد رتّل القدّاس في كنيسة القديس بطرس . وكان قد مات . وقد كفاني ان أرى مرةً هـذا الموت النابوليتالي الذي عُرض بشكل متحفّظ : إنّي أحسّني عاجزاً عن تقييم هذا الكفن حق قيمته ؛ إن نظري يخترقه ويتمثّل وجهاً مجعّداً ، أفق من ان يكون طفولياً . يجب ان نصدّق اننا أصبحنا غير حسّاسين : فانه لا يخطر لنا ان نتذكّر الشال الحريري ، والجسد الناعم لـ « تسوهي » الجميلة . اننا نكتفي بأن نفكر انه يجب الحيلولة دون موت الاطفال . وأمام هـذا الطفل المغتال ، الذي هو نُفاية « الكو – من – تانغ » [2] نبتهل الى الله ان ينصر الجيش الثامن. ان مجموعة الصور هذه دعوة عامة : فهي تعلن نهايـة السياحة . وهي تعلمّنا في مراعاة ، من غير نزعة تأثيرية مجدية ، أن البؤس قد فقد مظهره المثير للفضول

---

١ – هذا عنوان رواية معروفة لـ « باريس » ... ( هـ . م ) .

٢ – حزب الشعب الوطني، وهو الذي أسسه عام ١٩٠٠ سن‌يات‌سن، ثم انشق الى جناحين قاد تشانغ كي شك الجناح المعتدل منهما ( هـ . م ) .

والمبرز للأصالة ، وانه لن يعثر بعدُ ابداً على هذا المظهر .

غير ان هذا البؤس قائمٌ هنا ، خفياً وغير قابل للاحتمال . إنه يتكشّف في كل صفحة . وهو يظهر عبر ثلاث عمليات بدائية : الحمل ، والتنقيب ، والاختلاس .

ففي جميع عواصم البؤس ، يحمل الفقراء رزماً . وهم لا ينفصلون عنها قط : انهم حين يجلسون ، يضعونها قربهم ويراقبونها . وماذا يضعون فيها ؟ كل شيء : خشباً قد لُمّ من بستان ، بحركة خفيّة ، وكسرات الخبز ، واسلاكاً من حديد انتزعت من سياج ، ورقعاً من قماش . فاذا كان الحمل ثقيلاً ، جرّوه على نقّالة أو عربة ذات مقبض . إن البؤس يبدو دائماً وهو ينتقل خفيةً . ففي بكين ، وفي شنغهاي ، وفي نانكين ، الجميع يجرّون ، والجميع يدفعون : إن هؤلاء البشر يتفنّنون في رفع عجلة ؛ وها هم أولاء على جسر : فالطريق ترتفع ، ويجب مضاعفة الجهد ؛ ويكون ثمة صبيةٌ يروحون ويجيئون ، متأهبين دائماً لمدّ يد المعونة ، لقاء صدقة صغيرة . شأنهم في ذلك شأن العاطل عن العمل في فيلم « درهميْ أمل » الذي يقف وسط شاطىء ويشدّ عنان خيل المركبة . اما البناية في الداخل ، فهي منارة . وفي أعلى المنارة ، عين « الغرب » ؛ وإنّ نظرها الدائر يكنس الصين : وقد خُصصت الطوابق العليا الثلاثة لمراسلي الصحف الأجنبية . وما كان أعلاها ! إنها أعلى من ان تتيح رؤية ما يحدث على الارض . وهم يرقصون في وسط السماء مع زوجاتهم وعشيقاتهم . وفي هذه الاثناء ، يدفع الحمّالون على سطح الارض ، عرباتهم ، ويحارب تشانغ كي شك الجيوش الشيوعية . اما الاميركيون ، فلا يرون بيوت الصين الحقيرة ، ولا الفلاحين المسلّحين ، ولا الحمّالين . ولكن ليس على الحمّالين الا ان يرفعوا رؤوسهم ليروا منارة اميركا .

وفي جميع عواصم البؤس ، ينقّبون . ينقّبون الارض وما تحت الارض . يتجمعون حول القمامات ، ويتسللّون وسط الخرائب : « إن ما يرميه الآخرون هو لي ؛ فما لا يمكن ان يخدمهم بعد ، يصلح لي بما فيه الكفاية » ، وتتراكم

القذارات على أرض بور ، قرب بكين . انها نفايات الفقراء ؛ لقد غربلوا كل شيء ، وقد نقّبوا في فضلاتهم ذاتها ، فلم يتركوا ، على مضض ، الا ما هو غير قابل للأكل أو للاستخدام ، وما لا اسم له ، وما هو قذر . ومع ذلك ، فان القطيع هنا . على الأربع . وهو كل يوم ، سينقّب طوال اليوم .

وفي جميع عواصم البؤس ، يختلسون . أيعتبر هذا سرقة؟ لا : بل ، التقاط. لقد أُنزلت الحزم الى الرصيف ؛ فاذا بقيتْ ساعة أكثر مما ينبغي ، اختفت . وما ان تُنزل ، حتى يهرع الجميع ليحيطوا بها. ويحاول كل فرد ان ينتزع قبضته من القطن . فاذا التُقطت قبضات كثيرة من القطن ، يوماً بعد يوم ، كوّنت لباساً . وقد تعرّفت نَظَرَ النساء ، فأنا قد رأيته في مرسليا ، وفي مدينة الجزائر ، وفي لندن ، وفي شوارع برلين : انه رصين ، سريع ، مطارَد ، والضيق يمتزج فيه بالنَهَم . يجب أن تأخذ قبل ان تُؤخذ . وحين تُحمّل الحزم في شاحنة ، فسيعدو الصبية خلف السيارة ، وأيديهم الى أمام . وفي هذه الاثناء ، تُطلَق النار بتواتر في نانكين . وفي وسط شارع ، ينحني رجل فوق أريكة مبقورة ، يريد ان يأخذ حشوتها . فاذا لم يتلقّ في جبينه رصاصة من تلك التي تصفر في أذنيه ، يكون قد نجح في التقاط ما يستعمله وقوداً لساعة واحدة من نهار شتوي واحد !

* * *

إن الفقراء ، في كل يوم ، يحفرون ، وينقبون ، ويلمّون . وفي كل يوم ، يكرّر الصنّاع حركاتهم التقليدية ؛ وعند كل فجر ، يمارس الضبّاط الرياضة في حدائق المدينة الممنوعة ، في حين تنسلّ أشباح مسنة عبر القصور . وكل صباح، تتلبّس بكين وجه الليلة البارحة ، والاسبوع الماضي ، والألف عام المنصرم. إن الصناعة عندنا تفجّر جميع الملاكات ، اما هناك ، فلماذا التغيُّر ؟ لقد صوّرت مجموعة « كارتييه – بريسون » الأبد السرمدي .

وانه لأبد سرمديّ رخص : إنها أُغنيةٌ معادةٌ أبداً ، ولا بدّ لإيقافها من

تحطيم الاسطوانة . وهي ستحطّم حقاً . إنّ « التاريخ » على عتبة المدينة : إنه يُصنع ، يوماً فيوماً ، في حقول الأرز ، وفي الجبال ، وفي السهول . نهارٌ آخر بعدُ ، ونهارٌ غيره : وسينتهي الأمر ،وستتطاير الاسطوانة القديمة شعاعاً. وهذه الصور اللازمنية مؤرّخة بشكل دقيق : انها تثبّت الى الابد آخر لحظات الخلود .

إن بين الزمن الدائري للصين القديمة والزمن الذي لا يرتدّ للصين الجديدة حداً وسطاً ، زمناً هلامياً بعيداً عن التاريخ بعده عن التكرار : انه « الانتظار » . لقد حلت المدينةُ حزمة ملايينها من الحركات اليومية : فليس ثمة بعدُ من يَبرد ، او ينحت ، أو يحترف كتابة الخط ، او يقرض او يُعدّل او يصقل . لقد ترك الناس حيزهم الحيوي الصغير ، وحفلاتهم ، وجيرانهم ، وراحوا يتراكمون في كتل ضخمة لا شكل لها امام المحطات وعلى الأرصفة. وأصبحت البيوت تفرغ . والمحترفات ، والاسواق ؛ وفي أمكنة غريبة شاذّة ، تتجمّع الجموع وتتلاصق وتتجمّد؛ وتنسحق بنياتُها الدقيقة. وتلبع صور بكين القديمة المنفرجة، صورٌ ثقيلة وكثيفة. انتظار. إن الجموع حين لا تأخذ التاريخ على عاتقها تعيش الظروف الكبرى كانتظارات لا تنتهي . وجموع بكين وشنغهاي لا تصنع التاريخ ، بل تتلقاه . كما يتلقاه في الحقيقة رجال الشرطة الذين يراقبونها ، والجنود الذين يخترقون صفوفها والذين يعودون من الجبهة ، ولا يكفّون عن العودة منها ، ولا يذهبون اليها أبداً ، والمثقفون الذين يتبخّرون ، والجنرالية الذين يهربون . اما أولئك الذين يصنعون التاريخ ، فانهم لم يروا قط المدن الامبراطورية الكبرى ؛ إنهم لا يعرفون الا جبالاً وسهولاً ؛ ولقد تقرّر مصير الصين في الجبال والسهول. وللمرة الاولى ، تنتظر عاصمةٌ ادارة الريف المطلقة : وسيظهر « التاريخ » على شكل موكب فلاّحيّ . إن سكان المدينة يعتبرون الريف حيّزاً جامداً يصل المدن فيما بينها وتعبره الجيوش وتخرّبه ، الى ان يتقرّر في المدن عقدُ السلام. ولكن الريف يكشف وجهه فجأة : فاذا هو لحم حيّ وعضل. وفي هذا العضل تسكن المدن كأنّها حبّات اورات . على ان هذه الجموع لا تخاف . وهناك في

الأعالي، يُجنّ نظر أميركا ويدور ويدور. ولكن المعروف منذ وقت طويل، على سطح الارض، ان الشيوعيين قد ربحوا. ويشتم الأغنياء تشانغ كاي شك كما يشتمون ماوتسي تونغ؛ ويريد الفلاحون ان يعودوا الى أراضيهم ومنازلهم: فما دام كل شيء في أيدي الشيوعيين، فسيّان ان يجدهم المرء في القرية او في المدينة؛ ويبدأ العمال والفقراء في التأميل: لقد تقارب الالف انتظار من عهد التكرار، وذابت كلها في أمل واحد. وينظم باقي الشعب مواكب طواف ويصلّون من أجل السلام: أي سلام. وتلك طريقة لقتل الوقت: إن المرء، قبل ان يلتحق بالكهنة ويحرق عصياً من ورق، ينتهز الفرصة ليصفي بعض القضايا الخاصة. فهو سيفرك لحسابه الخاص، انف صنم من الأصنام، وتدفع الفتيات العاقرات بطونهنّ الى بطون التماثيل؛ وبعد الاحتفال، ستُشترى من الصيدلية الكبيرة القائمة قرب المعبد كرّيات مجففة تردّ الحميّا الى الأزواج المسترخين وتدّفيء اقدام الزوجات.

إن الجموع تظلّ تحت الضغط ما ظلّت السلطات في مركزها. ويحيط بها رجال الشرطة ويكبحونها، ولكنهم قلّما يضربون، خلافاً لشرطتنا. وينفد صبر هذا لأنه يُحشر حشراً شديداً، فيرفع ساقه: أتراه سيقوم بركلة؟ لا، وإنما يخبط كعبه في مستنقع، فيتراجع الناس وقد أصابهم الوحل. ولكن سادة «كيو — من — تانغ» لا يبقون في مكانهم: إنهم يذهبون. ويبقى منهم ألف. ويبقى منهم مئة. وعما قريب، لن يبقى أحد. أما السادة الذين لا يستطيعون أن يذهبوا، الصفر والبيض، فهم مخضرّون من الخوف. وفي فترة الانتقال بين عهدين، تنطلق غرائز السوقة المنحطّة: فيقوم السلب والقتل وانتهاك الأعراض. ويسارع بورجوازيو شنغهاي الى دعوة الشيوعيين بملء رضاهم: إن أي نظام أفضل من الغضب الشعبي.

انتهى الأمر، هذه المرة: لقد ذهب الأعيان، واختفى آخر شرطي؛ وبقي البورجوازيون والطغمة وحدهم في المدينة. هل ننهب أم لا ننهب؟ يا للجموع الرائعة: انها حين لم تشعر بعد بثقل العبء الذي كان يسحقها، تردّدت

لحظة ، ثم تحلّلت من الانضغاط ؛ وارتدّت هذه الكتل الضخمة الى الحالة الغازية . أنظر الى الصور : لقد أخذ الجميع يركضون . أين تراهم يذهبون ، الى السلب ؟ حتى ولا هذا : لقد دخلوا المنازل الجميلة المهجورة ، ونقّبوا ، كما كانوا حتى الأمس ينقّبون في ركام القذارات . وماذا أخذوا ؟ لا شيء تقريباً : ألواح الارض الخشبية ليشعلوا بها النار . كل شيء هادىء : فليأتوا الآن ، فلاّحو الشمال : فسوف يجدون مدينةً منظّمة .

هل تذكرون شهر حزيران ١٩٤٠ وأولئك العمالقة المأتميين الذين كانوا ينقضّون على شاحناتهم ودباباتهم ، عبر باريس الخالية ؟ إن ذلك كان يثير الفضول ، ويُبرز الاصالة : قليل من الشهوة ، ولكن كثير من الأبّهة ، والدم ، والموت ؛ كان الالمان يريدون نصراً احتفالياً . وقد حصلوا عليه ، وكان الجنود الجميلون الواقفون على السيارات المقنّعة يشبهون كهنة ، وجلاّدين ، وشهداء ، ومرّيخيين ، وكل شيء إلاّ البشر . والآن ، افتحوا المجموعة : لقد تجمّع الأولاد والفتية على طريق المنتصرين ؛ انهم مرحون ، فضوليون ، هادئون ؛ وهم متشابكو الأذرعة ، ينظرون . أين هو النصر ؟ أين هو الارهاب ؟ هوذا أول جندي شيوعي رؤي في شنغهاي منذ بدء الحرب المدنية : إنه رجل قصير ذو وجه جميل معتم ، يحمل تجهيزاته بطرف عصاه ، كجنودنا القدامى حين كانوا يعودون من ساحة الحرب . هذا الرجل القصير المرهق ، وهؤلاء المشاهدون الفتيان : إن المرء ليحسب نفسه في نهاية رحلة على الأقدام . اقلبوا الصفحة ، وانظروا الآن قفاها ، جنود الجيش الثامن ، تحت مظلاّتهم ، ضائعين على جادّة كبيرة في شنغهاي . وأولئك الفلاحون ، أهم الذين أخذوا المدينة أم هي المدينة التي ستأخذهم ؟ انهم الآن جالسون . في وسط الطريق ، وعلى الرصيف ، وفي المكان نفسه الذي كانت جموعٌ تنتظرهم فيه عشية الأمس . ولقد نهضت هذه الجموع ، واندفعت باتجاههم وأطلّت عليهم بقامتها الطويلة ، وأخذت تنظر اليهم . إن المنتصرين عادة يختبئون ليرتاحوا ؛ أما هؤلاء ، فكأنهم لا يكترثون بأن يُخيفوا . ومع ذلك ، فإنهم هم الذين هزموا جيوش

« كيو – من – تانـغ » التي سلـّحها الاميركيون ، وهم الذين كبّدوا الجيش الياباني الهزيمـة . وانهم ليبدون مسحوقين بالأبنية العالية التي تحيط بهم . لقـد انتهت الحرب ، ويجب كسب السلم . وإن الصور لتعبّر تعبيراً مدهشاً عـن الوحدة والقلق في نفوس هؤلاء الفلاحين في قلب مدينة رائعة وفاسدة . وخلف الشبابيك يستعيد « السادة » شجاعتهم : « اننا سنجرّهم من أنوفهم . »

ولم تكن ثمة حاجة الى وقت طويل لكي يغيّر السادة رأيهم . ولكن هـذه قصة أخرى لا ترويها لنا مجموعة « كارتييه – بريسون » . فلنحمد لها انهـا عرفت ان تُرينا أكثر الانتصارات إنسانية ، الانتصار الوحيد الذي يستطيع الناس ان يحبّوه ، من غير تحفـّظ (*) .

---

(*) مقدمة « من صين الى أخرى » لهنري كارتييه – بريسون وجان بول سارتر ، باريس ، منشورات دلبير ١٩٥٤ .

# الاستعمار نظام

اريد ان احذّركم مما يمكن ان يُسمى « خداع الاستعمار الجديد » .

ان الاستعماريين الجدد يذهبون الى هناك مستعمِرين [1] صالحين ومستعمرين أشراراً ، وان حالة المستعمرات انما ساءت بسبب هؤلاء الاشرار .

والخداع في ذلك يقوم على ما يلي : إنهم يطوفون بك الجزائر ، ويطلعونك بسهولة على بؤس الشعب ، وهو بؤس مدقع ، ويروون لك الوان الاذلال التي يكبّدها المستعمرون الاشرار للمسلمين ، حتى اذا بلغ الغيظ ذروته ، اضافوا قائلين : « من اجل هذا حمل أفضل الجزائريين السلاح : فانهم باتوا لا يطيقون هذا الوضع . » فاذا انطلت علينا الخديعة ، خرجنا من ذلك مقتنعين :

١ – بأن المسألة الجزائرية هي أولاً اقتصادية . وانه لا بد من إصلاحات حكيمة ، لتقديم الخبز لتسعة ملايين نسمة .

٢ – وانها بعد ذلك اجتماعية ، ويجب مضاعفة الاطباء والمدارس .

٣ – وانها اخيراً بسيكولوجية : انكم تذكرون « دومان » De Man ونظريته في « مركب النقص » لدى طبقة العمّال. فهو قد وجد في الوقت نفسه مفتاح « الشخصية المحلّية » : ان الجزائري المضطهد ، الجاهل ، الناقص التغذية ، يشعر بمركب النقص تجاه أسياده . وانما يمكن تهدئته بالتأثير على هذه العوامل الثلاثة : فاذا شبع واشتغل وعرف القراءة ، فانه لن يخجل بعدُ من ان

---

(١) بمعنى سكان المستعمرات Colons (هـ.م) .

يكون انساناً – دوناً ، وهكذا نستردّ من جديد الاخوة الفرنسية الإسلامية القديمة .

ولكن ينبغي خصوصاً ألا نخلط ذلك بالسياسة . ان السياسة امر مجرّد : فما جدوى ان يشترك المرء بالانتخابات اذا كان يموت جوعاً ؟ ان الذين يحدثوننا عن انتخابات حرة وعن جمعية تأسيسية وعن الاستقلال الجزائري ، انما هم محرّضون ومثيرو فتن يعملون على تعقيد القضية .

تلك هي الحجة . وقد اجاب عليها زعماء جبهة التحرير الوطني بقولهم : « اننا سنحارب ، حتى ولو كنا سعداء في ظل الحراب الفرنسية . » وانهم على حق . بل ينبغي ان نذهب الى ابعد مما ذهبوا : ان الانسان لا يستطيع الا ان يكون شقياً في ظل الحراب الفرنسية . صحيح ان معظم الجزائريين يعيشون في بؤس لا يحتمل ، ولكن صحيح ايضاً ان الاصلاحات الضرورية لا يمكن ان تتم على ايدي « المستعمِرين الصالحين » ولا على يد « المتروبول » [1] ، نفسه ، ما دام يدعي المحافظة على سيادته في الجزائر . والحق ان هذه الاصلاحات ستكون من شأن الشعب الجزائري نفسه ، حين ينتزع حريته .

ذلك ان الاستعمار ليس مجموعة من المصادفات ، ولا هو نتيجة تعدادية لألوف المشروعات الفردية . انه نظام أقيم حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، وبدأ يؤتي ثماره حوالي ١٨٨٠ ، ودخل في طور الانهيار عقب الحرب العالمية الأولى ، وهو اليوم يرتدّ على الامة المستعمِرة .

هذا ما أود ان اطلعكم عليه فيما يتعلق بالجزائر ، التي هي للأسف اوضح مثال وأبلغه عن النظام الاستعماري . اودّ ان اريكم صرامة نظام الاستعمار ، ولزومه الداخلي ، وكيف لا بد له من ان يفضي بنا الى ما نحن عليه ، وكيف ان اطهر النيات ، حين تولد داخل هذه الدائرة الجهنمية ، تفسد على الفور .

ذلك انه ليس صحيحاً ان هناك مستعمِرين صالحين وآخرين اشراراً : هناك

---

(١) أي الوطن الأم ، فرنسا . ( هـ.م ) .

مستعمرون وحسب [1] فاذا ادركنا ذلك ، ادركنا لماذا يحق للجزائريين ان يهاجموا ، سياسياً قبل كل شيء ، هذا النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، وكيف ان تحريرهم وتحرير فرنسا بالذات لا يمكن ان يخرج الا من انفجار الاستعمار .

ان النظام لم يقم من تلقاء نفسه . فالحق ان « ملكية تموز » و « الجمهورية الثانية » لم تعرفا ما كان يمكن ان تعملاه بالجزائر المحتلة .

كانت هناك فكرة بتحويلها الى مستعمرة للاسكان ؛ وكان « بوجو » Bugeaud يؤمن « بالطريقة الرومانية » للاستعمار. وعلى ذلك اعطيت مساحات شاسعة للجنود المسرّحين المنتمين الى « الجيش الافريقي » ولكن هذه المحاولة لم تنجح .

ولقد شاءوا ان يصبوا في افريقيا ما تغص به بلدان اوروبا من افقر فلاحي فرنسا واسبانيا ، فخلقوا لهؤلاء « الرعاع » بضع قرى حول مدن الجزائر وقسنطينة ووهران . ولكن الاوبئة فتكت بمعظمهم .

وبعد حزيران ١٨٤٨ حاولوا ان يُسكنوا — والاصح ان يقال ان يضيفوا — الى تلك البلاد عمالاً عاطلين كان وجودهم يقلق « قوات الامن » . ولكن معظم العشرين الفاً الذين نقلوا الى الجزائر هلكوا بالحميات والكوليرا ؛ اما من بقي منهم حياً فقد تمكنوا من العودة الى بلادهم .

واذن ، فان الخطة الاستعمارية ، على هذا الشكل ، بقيت مترددة : وقد اتضحت في عهد « الامبراطورية الثانية » . وقد رأينا كبريات الشركات الاستعمارية تخلق بالتتالي :

عام ١٨٦٣ شركة التسليف العقاري الاستعماري والمصرفي .

عام ١٨٦٥ شركة التسليف المرسيلية، وشركة المعادن الحديدية في « موكتا » MoKta ، والشركة العامة للنقليات البحرية البخارية .

---

١ — لا اقصد بالمستعمرين الموظفين الصغار ولا العمال الاوروبيين الذين هم ضحايا النظام ومستثمروه الابرياء في الوقت نفسه .

وفي هذه المرة اصبحت الرأسمالية نفسها هي الاستعمارية. وقد جعل « جول فيري Jules Ferry » من نفسه لسان حال هـذا النوع الجديد من الاستعمار فقال :

« ان لفرنسا التي استفرغت كثيراً من رؤوس الاموال واصدرتها الى الخارج بكميات كبيرة ، مصلحة في ان تنظر الى المسألة الاستعمارية من هـذه الزاوية . انها قضية الأسواق ، بالنسبة لبلاد كبلادنا ، مدعوة ، بسبب من طبيعتها نفسها وصناعتها ، الى ان تصدر صادرات عظيمة... فحيث السيادة والسياسة، تكون سيادة المنتجات — السيادة الاقتصادية » .

ترون اذن ان اول من عرّف الاستعمار ليس هو لينين وانما هو جول فيري ، هذا « الوجه العظيم » من وجوه الجمهورية الثالثة .

وترون كذلك ان هذا الوزير على اتفاق مع « عصاة » ١٩٥٦ : فهو ينـادي بـ « العامل السياسي اولاً ! » وهم يستعيدون ذلك ضد المستعمرين بعـد ثلاثة ارباع القرن .

يجب اولاً احباط كل مقاومة وتحطيم الاطارات والاخضاع والارهاب .

وفيما بعد ، فقط ، يقام النظام الاقتصادي .

وما هو المطلوب ؟ هل يجب خلق صناعات في البلاد المحتلة ؟ ابداً : ان رؤوس الاموال التي « تستفرغها » فرنسا، لن توظف في بلاد متأخرة اقتصادياً، ذلك ان مردودها سيكون مشكوكاً فيه ، وسيطول الأمر اكثر مما ينبغي يجني ثمارها ، بسبب انه يجب اعادة كل شيء وتجهيزه من جديد . وحتى لو كان هـذا ممكن التحقيق ، فما جدوى خلق منافسة مصطنعة لانتاج المتروبول نفسه ؟ ان « فيري » واضح جداً : ان الرساميل لن تخرج من فرنسا ، وانمـا هي ستوظف بكل بساطة في صناعات جديدة ستبيع منتجاتها المصنوعة في البلدان المستعمَرة. وقد كانت النتيجة المباشرة اقامة الاتحاد الجمركي ( ١٨٨٤ ) . وما يزال هـذا الاتحاد قائماً : وهو يؤمن احتكار السوق الجزائرية لصناعة فرنسية يعرقـل انتشارها في السوق العالمية ارتفاع اسعارها ارتفاعاً فاحشاً .

ولكن لمن تنوي هذه الصناعة ان تبيع منتجاتها ؟ للجزائريين ؟

ان هذا امر مستحيل : فمن اين لهم المال ليدفعوا ؟ ان مقابل هـذه النزعة الاستعمارية هو انه ينبغي خلق طاقة شرائية للمستعمرات . والمستعمرون هم طبعاً الذين سيفيدون من جميع الحسنات والذين سيحوّلون الى مشترين في المستقبل. ان المستعمِر هو اولاً مشتر اصطناعي ، خلقته خلقاً فيما وراء البحار رأسمالية تبحث عن اسواق جديدة .

وقد كان « بييريموف » Peyerimhoff ، منذ عام ١٩٠٠ يلحّ على هذه الميزة الجديدة في الاستعمار » الرسمي » فيقول :

« ان ملك المستعمر قد اتاه مباشرة اولاً ، من الحكومة ، اما بالمجان او انه رأى كل يوم امتيازات تعطى حوله ؛ فتحت ناظريه قامت الحكومـة من اجل المصالح الفردية بتضحيات أوسع جداً مما كان يمكن ان تقوم به في بلاد اقـدم ومستثمرة استثماراً كلياً . »

وهنا ينطبع بوضوح الجناح الثاني من الهيكل الاستعماري : ان على المستعمر ان يكون بائعاً لكي يكون مشترياً . فمن تراه سيبيع ؟ انـه سيبيع فرنسيي المتروبول . وماذا يبيع من غير صناعة ؟ انه سيبيع منتجات غذائيـة ومواد أولية . وهكذا ينهض النظام الاستعماري تحت رعاية الوزير « فيري » والمفكر النظري « لوروا بوليو » Leroy - Beaulieu .

وما هي التضحيات » التي تقدمها « الدولة » للمستعمِر ، هذا الانسان الذي تحبه الآلهة ويحبه المصدّرون؟ ان الجواب بسيط: انها تضحي له بأملاك المسلمين.

ذلك انه يتفق ، في الواقع ، ان المنتجات الطبيعية في البلد المستعمَر تنبت على الارض ، وان هذه الارض تخص « سكان البلاد الأصليين » . ففي بعض المقاطعات القليلة السكان ، ذات المساحات غير المزروعة ، تكون السرقة اقل ظهوراً : فان الذي يُرى هو الاحتلال العسكري ، العمل الاجباري . امـا في الجزائر فان جميع الاراضي الصالحة كانت مفلوحة قبل وصول القوات الفرنسية. وهذا يعني ان ما يزعمونه من « حرث » الأراضي وزرعها قد اعتمد على عمليـة

اغتصاب من السكان استمرت طوال قرن : ان تاريخ الجزائر هو تجميع الاملاك العقارية الاوروبية تجميعاً تدريجياً على حساب الاملاك الجزائرية .

وقد كانت جميع الوسائل صالحة .

ففي البدء ، كانوا ينتهزون ادنى طفرة مقاومة ليصادروا الاراضي او يحجزوها . وكان « بوجو » يقول : « يجب ان تكون الأرض صالحة ، وسيان ان تنتمي الى هذا او الى ذاك » .

وقد ادت ثورة ١٨٧١ خدمة كبيرة : فلقد ُسلب المغلوبون مئات الالوف من الهكتارات . ولكن هذا لم يكد يكفي . واذ ذاك ، اردنا ان نقدم للمسلمين هدية جميلة : فأعطيناهم قانوننا المدني .

وما سبب هذا الكرم العظيم ؟ سببه ان الملكية القبلية كانت غالباً جماعية ، وكانوا يريدون تفتيتها ليتاح للتجار المضاربين ان يشتروها شيئاً فشيئاً .

وفي عام ١٨٧٣ كلف مفوضون محقّقون بان يحولوا الملكيات الكبيرة غير المقسمة الى مربعات صغيرة جداً من الاملاك الفردية ، وكان هؤلاء المفوضون يشكلون عند كل ميراث « أنصبة » يسلمونها الى كل مستحق . وكان بعض هذه الانصبة خيالية . فقد اكتشف المفوض المحقق في دوار « حرار » ان ثمانية هكتارات كانت منتسبة الى خمسة وخمسين شريكاً !

وكان يكفي رشوة احد هؤلاء الشركاء ليطالب بالتقسيم . وكانت طريقة الاجراءات الفرنسية ، المعقدة المبهمة ، تفضي بجميع الشركاء الى الافلاس ؛ فقد كان تجار الاملاك الاوروبية يشترون كل الاراضي بثمن لقمة خبز .

صحيح اننا رأينا في مناطقنا فلاحين ممن افقرهم تركيز الاراضي بيد واحدة او التصنيع فباعوا حقولهم والتحقوا بالعمل في المدن . ولكن هذا القانون الرأسمالي لا ترافقه على الأقل سرقة بكل معنى الكلمة . اما هنا ، في الجزائر ، فقد ُفرض قانون اجنبي على المسلمين فرضاً عن سابق تصميم وتصوير ووقاحة ، لانه كان معروفاً ان هذا القانون لا يمكن ان يطبق عليهم ، وانه لا يمكن ان يكون له مفعول إلا ان يهدم البنيات الداخلية للمجتمع الجزائري . ولئن كانت

العملية قد استمرت في القرن العشرين كأنها قانون اقتصادي يجري بضرورة عمياء ، فذلك لأن الدولة الفرنسية كانت قد خلقت بوحشية وبصورة اصطناعية ظروف الحرية الرأسمالية في بلد زراعي واقطاعي . وهذا لم يمنع منذ حين بعض الخطباء في المجلس النيابي من مدح فرض قانوننا فرضاً قسرياً على الجزائر ، ووصف ذلك بأنه « خير من خيرات المدينة الفرنسية » .

وها هي نتائج تلك العملية :

في عام ١٨٥٠ ، كانت املاك المستعمرين ١١٥,٠٠٠ هكتار . وفي عام ١٩٠٠ ارتفعت الى مليون وستمئة الف ، وفي عام ١٩٥٠ الى ٢,٧٠٣,٠٠٠ هكتار .

واذن فان ٢,٧٠٣,٠٠٠ هكتار هي اليوم للملاكين الاوروبيين ، وتملك الدولة الفرنسية ١١ مليون هكتار تحت اسم « الاراضي الاميرية » . اما الجزائريون ، فقد تُرك لهم سبعة ملايين هكتار . وبالاختصار ، كان قرن واحد كافياً لسلبهم ثلث ارضهم . والحق ان قانون التجميع قد لعب جزئياً ضد مصالح المستعمرين الصغار . فهناك اليوم ستة آلاف ملاك يزيد مردودهم الزراعي عن اثني عشر مليون فرنك ، وبعضهم يبلغ المليار . وعلى ذلك فان النظام الاستعماري قائم على ما أُريد له : ان الدولة الفرنسية تسلم الارض العربية الى المستعمرين لتخلق لهم طاقة شرائية تتيح للصناعيين في الوطن الأم ان يبيعوهم منتجاتهم ، ويبيع المستعمرون لأسواق المتروبول ثمار هذه الأرض المسروقة .

وابتداء من هنا ، يتعزز النظام نفسه ، فيطوف دائراً ، وسوف نتابعه في كل عواقبه ونراه يزداد دقة وصرامة .

١ — ان في « فرنسة » الملكية وتجزيئها تحطيماً لهيكل المجتمع القبلي القديم من غير ان يوضع شيء مكانه . وقد شُجع هذا التحطيم للاطارات تشجيعاً كبيراً : لأنه اولاً كان يقتل قوى المقاومة ويستبدل بالقوى الجماعية غباراً من الافراد ، ولأنه بعد ذلك كان يخلق يداً عاملة ( على الاقل ما دامت الحراثة لم تصنّع ) : وهذه اليد العاملة وحدها تتيح التعويض عن نفقات النقل وتحافظ

على أرباح المؤسسات الاستعمارية تجاه اقتصاديات المتروبول التي ما تني كلفة انتاجها تنخفض . وهكذا حوّل الاستعمار الشعب الجزائري الى بروليتاريا زراعية ضخمة. حتى ان بعضهم قال عن جزائريي اليوم انهم يشبهون جزائريي ١٨٣٠، ويشتغلون على الاراضي نفسها ، ولكنهم بكل بساطة ، بدل ان يملكوها ، يجدون انفسهم عبيداً لمن يملكها .

٢ – لو لم تكن السرقة الاصلية من النوع الاستعماري ، لكان بالامكان على الاقل ان نأمل بأن يتيح انتاج زراعي مصنّع ان يشتري الجزائريون انفسهم نتاج ارضهم بأنسب الاسعار ، ولكن ليسوا ، ولا يستطيعون ان يكونوا ، زبائن المستعمرين. ان على المستعمِر أن يصدّر ليدفع ثمن ما يستورده : انه ينتج للسوق الفرنسية . وهكذا يدعوه منطق النظام الاستعماري الى ان يضحّي بحاجات البلديين من اجل حاجات فرنسيي فرنسا .

لقد ربحت زراعة الكرمة، بين ١٩٢٧ و١٩٣٢ ، مقدار ١٧٣و٠٠٠ هكتار أُخذ أكثر من نصفها من المسلمين . ومعلوم ان المسلمين لا يشربون الخمر ، وقد كانوا يزرعون في هذه الاراضي التي سرقت منهم ، حبوباً للسوق الجزائرية . واذن ، فليست هي الارض التي تنتزع منهم الآن فحسب ، وانما يحرم الشعب الجزائري من غذائه الرئيسي حين تزرع ارضه بالكرمة . وهكذا يحوّل نصف مليون هكتار ، مقتطعة من أجود الاراضي ومخصصة كلها لزراعة الكرمة ، الى ارض لا تنتج شيئاً للجموع المسلمة .

وما الذي يقال عن الحمضيات التي توجد في جميع مخازن البقالة الاسلامية ؟ أتعتقدون ان الفلاحين يأكلون برتقالاً عقب طعامهم ؟

وبالنتيجة، فان انتاج الحبوب يتقهقر عاماً إثر عام نحو الجنوب الصحراوي. وبالطبع فقد ُوجد هناك اشخاص يقولون ان هذه حسنة من حسنات فرنسا ! فاذا كانت الفلاحات تنتقل فذلك يعني ان مهندسينا قد ادخلوا الري الى البلاد حتى حدود الصحراء . وهذه الأكاذيب قد تستطيع ان تخدع السكان السذج اللامبالين في المتروبول . اما الفلاح فيعلم ان الجنوب ليس مروياً ؛ وهو ان كان

مقسوراً على ان يعيش فيه ، فذلك لأن فرنسا ، ولية نعمته ، قد طردته من الشمال الى الاراضي الصالحة القـــائمة في السهل ، حوالي المدن : ولقد تركوا الصحراء للمستعمرين .

أما النتيجة ، فهي تقهقر الوضع تقهقراً مطرداً : فان زراعة الحبوب لم تحرز أي تقدم منذ سبعين عامـــاً . وفي هذه الاثناء تضاعف سكان الجزائر ثلاثة أضعــاف . ولئن أريد حسبان هـــذه الولادات الضخمة من حسنات فرنسا ، فلنتذكر ان أشد الشعوب بؤساً هي أوفرهـــا ولادة . فهل ترانا سنطلب من الجزائريين ان يقدموا لبلادنا الشكر لأنها اتاحت لأبنائهم ان يولدوا في البؤس ويعيشوا عبيداً ويموتوا جوعاً ؟ أما الذين يشكـّون في البرهان على ذلك، فإليهم الارقام « الرسمية » :

في عام ١٨٧١ : كان كل فرد يتمتع بخمسة قناطير من الحبوب .

وفي عام ١٩٠١ : بأربعة قناطير .

وفي ١٩٤٠ : بقنطارين ونصف .

وفي ١٩٤٥ : بقنطارين .

وفي الوقت نفسه ، كان من نتيجة تضييق الملكيات الفردية الغـــاء طرق المسير وحقوق المرور . وفي الجنوب الصحراوي ، حيث جمعوا مربـّي المواشي المسلمين ، ظلت المواشي على حالها . اما في الشمال ، فقد اختفت ، وقد كانت الجزائر تنعم قبل عام ١٩١٤ بتسعة ملايين رأس من الماشية . أما في عام ١٩٥٠ فلم يكن لديها أكثر من اربعة ملايين .

ويقدر الانتاج الزراعي اليوم كما يلي :

– ينتج المسلمون بما قيمته ٤٧ ملياراً من الفرنكات .

– وينتج الاوروبيون بما قيمته ٩١ ملياراً .

أي ان تسعة ملايين نسمة تقدم ثلث الانتاج الزراعي ، ولا تنس ان هـــذا الثلث وحده هو الذي يستهلكونه . أما الباقي فيذهب الى فرنسا . واذن ، فان عليهم ، مع آلاتهم البدائية وأراضيهم الرديئة ، واجب تغذية انفسهم . ويجب

ان يُستخرج من حصة المسلمين – بعد اذ اصبح استهلاك الحبوب قنطارين للشخص– تسعة وعشرون مليار فرنك للاستهلاك الذاتي. وهذا يعني في الموازنات العائلية عجز معظم العائلات عن تحديد نفقاتها الغذائية. ان الغذاء يستنفد جميع اموالهم. فلا يبقى شيء للكساء ولا للسكن ولا لشراء الحبوب والآلات.

والسبب الوحيد في هذا الافقار التدريجي ان الزراعة الاستعمارية الجميلة قد اقامت كقرحة في اجمل بقع البلاد، وانها تقضم كل شيء وتأكله.

٣ – يفضي تجميع الأراضي في ايدٍ واحدة الى تصنيع الزراعة. ولا شك في ان المتروبول سعيد ببيع تراكتوراته الى المستعمرين. بينما نقصت طاقة المسلم الانتاجية، وهو مقيم على ارضٍ رديئة، بنسبة الخمس، ازدادت طاقة المستعمرين الشرائية في كل يوم لمصلحتهم الخاصة وحدها: فالأراضي ذات الكروم التي تتراوح مساحتها بين هكتار واحد وثلاثة، والتي يصعب جعل الزراعة فيها عصرية، ان لم نقل يستحيل ذلك، تعطي ٤٤ هكتوليتراً في كل هكتار. اما الاراضي ذات الكروم التي تزيد مساحتها على مئة هكتار، فانها تعطي ٦٠ هكتوليتراً في الهكتار.

وواضح ان التصنيع يفضي الى البطالة التكنولوجية، بسبب ان الآلة تحل محل العمال الزراعيين. ولو كانت الجزائر تملك صناعة لكان ذلك ذا اهمية كبيرة، وان كانت محدودة. ولكن الواقع ان النظام الاستعماري يحرم عليها ذلك. فاذا بالعاطلين يتدفقون نحو المدن حيث يُستخدمون بضعة أيام في اعمال التنظيمات، ثم يظلون هناك لا يدرون اين يذهبون. وينمو افراد هذا اللون من الالوان المنخفضة للبروليتاريا عاماً بعد عام. ففي عام ١٩٥٣، لم يكن هناك إلا ١٤٣،٠٠٠ أجير مسجلين رسمياً على انهم عملوا اكثر من تسعين يوماً في العام، اي بمعدل يوم على كل اربعة. رليس ابلغ من هذا في اظهار نتائج الاستعمار التي لا بد منها: يبدأون باحتلال البلاد، ثم يستولون على الأرض ويستغلون ملاكيها القدماء بأجور لا تسد الجوع. ثم إن هذه اليد العاملة الرخيصة تصبح، مع التصنيع، اغلى مما ينبغي! وهكذا ينتهي الامر بنزع حق العمل – حق حق العمل – من

السكان الاصليين . ولا يبقى للجزائري ، وهو في بيته وأرضه ، وفي بلد مزدهر ابعد حدود الازدهار ، الا ان يموت جوعاً .

اما الذين يجرؤون عندنا على ان يشكوا من ان الجزائريين يأتون الى فرنسا لينازعوا العمال الفرنسيين على العمل ، فهل تراهم يعرفون ان ثمانين بالمئة منهم يرسلون نصف رواتبهم الى عائلاتهم ، وان مليوناً ونصف المليون من السكان الذين ما يزالون يعيشون في الاكواخ والخيام لا يعيشون الا من المال الذي يرسله لهم هؤلاء الاربعمئة ألف الذين اختاروا المنفى اختياراً ؟ وان في هذا ايضاً نتيجة من نتائج النظام الاستعماري الحتمية : ان الجزائريين مقسورون على ان يلتمسوا في فرنسا الخدمات التي تحرمهم فرنسا اياها في الجزائر !

ان الاستثمار الاستعماري هو منظم ودقيق بالنسبة لتسعين بالمئة من الجزائريين: انهم مطرودون من ارضهم ، محشورون في ارض غير منتجة ، مقسورون على ان يعملوا برواتب هزيلة مضحكة ، فلا بد ان يثبط الخوف من البطالة عزائمهم للثورة. وهكذا يغدو المستعمِر ملكاً ، فلا يعطي شيئاً مما استطاع ضغط الجوع ان ينتزعه من ارباب العمل في فرنسا : فليس ثمة « سلّم متحرك » ، وليس من اتفاقات جماعية ، ولا تعويضات عائلية ولا مستودعات للطعام ، ولا مساكن للعمال . وانما هناك اربعة جدران من الطين المجفف ، وخبز وتين ، وعشر ساعات من العمل كل يوم : ان الراتب هنا هو حقاً الحد الادنى الضروري جداً لاستعادة القوى من اجل استئناف العمل .

هذه هي اللوحة . فهل يمكن ان نجد على الأقل تعويضاً عن هذا البؤس المنظم الذي خلقه المغتصبون الاوروبيون ، في ما يسمى الخيرات غير القابلة للقياس مباشرة ، من مثل التنظيمات والأشغال العامة والصحة والتعليم ؟ لو كان لنا هذا العزاء ، لكان بإمكاننا ان نحتفظ ببعض الامل ؛ فلعل بعض الاصلاحات التي تُختار بحكمة .. ولكن لا : ان النظام لا يقبل الرحمة . فما دامت فرنسا ، منذ اليوم الاول ، قد انتزعت من الجزائريين املاكهم وابعدتهم عنها ، وما دامت قد عاملتهم على انهم كتلة غير قابلة التمثل ، فان العمل الفرنسي كله في

الجزائر قد أُنجز لصالح المستعمرين .

وأراني لا اتكلم حتى عن المطارات والمرافىء : هل تنفع الفلاح الا من اجل ان يسافر الى احياء باريس الفقيرة حيث يهلك جوعاً وبرداً ؟

والطرقات، ما شأنها؟ انها تصل المدن الكبيرة باملاك الاوروبيين وبالقطاعات المحولة الى مناطق عسكرية . وهي لم تصنع لكي تتيح للجزائريين ان يبلغوا بيوتهم . ومن الادلة على ذلك ان زلزالاً عنيفاً قد اكتسح مدينة « اورليانسفيل » ومنطقة « شليف » السفلى في ليلة ٨ — ٩ ايلول ١٩٥٤ . وقد اعلنت الصحف نبأ وفاة ٣٩ اوروبياً و١٣٧٠ مسلماً . وقد كان بين هؤلاء الضحايا ٤٠٠ شخص لم « يُكتشفوا » إلا بعد مرور ثلاثة ايام بعد الزلزال . ولم تصل المساعدات الاولى الى بعض الدوارات الا بعد ستة ايام . وفي التعليل الذي تقدمه فرق المنقذين حكم صارم على العمل الفرنسي : « ماذا تريدون ؟ لقد كان هؤلاء المسلمون بعيدين جداً عن الطرق . »

والصحة العامة على الاقل ؟

لقد ارادت الادارة الفرنسية ان تقوم بتحقيق ، بعد زلزال اورليانسفيل ، عن حالة الدوارات ووضعها . وقد تبين ان الذين اختارتهم ، بالمصادفة ، كانوا على بعد ثلاثين كيلومتراً او اربعين من المدينة ، وان الطبيب المكلف بالاسعاف الطبي ، لم يكن يزورهم الا مرتين في العام .

امام ثقافتنا العظيمة، فمن يدري اذا كان الجزائريون راغبين حقاً في اكتسابها؟ على ان ما هو مؤكد، اننا منعناها عنهم . ولن اذهب الى اننا كنا في مثل وقاحة تلك الدولة من دول جنوبي الولايات المتحدة التي شُرع فيها قانون ظل سارياً حتى مطلع القرن التاسع عشر ، وكان يحرم « تحت طائلة الجزاء » تعليم العبيد الزنوج القراءة .

ولكننا على كل حال ، اردنا ان نجعل من « اخواننا المسلمين » شعباً من الاميين . ويبلغ عدد الجزائريين الاميين اليوم ٨٠ بالمئة . وقد كان الأمر يهون لو اننا لم نحرم عليهم الا استعمال لغتنا . ولكن الواقع ان من متطلبات النظام

الاستعماري ان يحاول سد طريق التاريخ على المستعمَرين . ولما كانت المطالب القومية في اوروبا تعتمد دائماً على وحدة اللغة ، فقد حُرّم على المسلمين استعمال لغتهم بالذات . ان اللغة العربية تعتبر في الجزائر لغةً أجنبية منذ عام ١٨٣٠ . انهم ما يزالون يتحدثون بهـا . ولكنها كفّت عن ان تكون لغة مكتوبة الا بالقوة ، لا بالفعل . وليس هذا كل شيء . فان الادارة الفرنسية قد صادرت دين العرب لكي تبقيهم في التجزئة والتفتت ، وهي تختار رجال الدين الاسلامي من بين عملائها ، وقد حافظت على احط الخرافات التي تفرّق بين الناس . ولا شك في ان الفصل بين الكنيسة والدولة امتياز جمهوري، ترف يصلح للمتروبول . اما في الجزائر ، فان الجمهورية الفرنسية لا تستطيع ان تسمح لنفسها بان تكون جمهورية . انها تحرص على عدم انتشار الثقافة وتحافظ على معتقدات الاقطاع ، ولكن بان تلغي البنيات والعوائد التي تتيح لاقطاع حيّ ان يكون ( رغم كل شيء ) مجتمعاً بشرياً ، فهي تفرض قانوناً ذا نزعة فردية حرة لتهدم الاطارات والنهضات في المجتمع الجزائري . ولكنها تبقي على الملوك الصغار الذين لا يستمدون سلطتهم الا منها والذين لا يحكمون الا من اجلها . انها بكلمة واحدة « تصنع سكاناً بلديين » بحركة مزدوجة تفصلهم عن المجموع ذي العقلية القديمة بان تعطيهم او تحفظ لهم ، في عزلة الفردية الحرة ، عقليةً لا تمكّن لاسلوبها القديم ان يستمر الا بالاتصال مع عقلية المجتمع القديمة . انها تخلق « جموعاً » ولكنها تمنعهم من ان يصبحوا بروليتاريا واعية ، وذلك بان تخدعهم بما ترسمه لايديولوجيتهم من رسوم كاريكاتورية .

ولا بد هنا من ان اعود الى محدثنا الاول ، الى رجلنا الواقعي ذي القلب الرقيق ، الذي كان يقترح علينا اصلاحات كثيفة اذ يقول « الاقتصاد اولاً ! » واني اجيبه : نعم ، ان الفلاح يموت جوعاً ، نعم ؛ انه بحاجة الى كل شيء : الى الارض والعمل والعلم ، نعم ان الامراض ترهقه ، نعم، ان حالة الجزائر الراهنة تشبه أسوأ ألوان البؤس في الشرق الأقصى . ومع ذلك فيستحيل البدء بالتغيرات الاقتصادية ، لأن بؤس الجزائريين ويأسهم هما النتيجة المباشرة الضرورية

للاستعمار ، ولانه لا يمكن إزالتها اطلاقاً ما دام الاستعمار قائماً . وهذا ما يعلمه « جميع » الجزائريين الواعين ، وجميعهم يقرّون قول ذلك المسلم ( خطوة الى الامام ، وخطوتان الى الخلف : ذلك هو الاصلاح الاستعماري ) .

ذلك ان النظام يعدم بذاته ، ومن غير جهد ، جميع محاولات التنظيم . انه لا يستطيع ان يظل قائماً الا اذا ازداد كل يوم قسوة ولاانسانية .

ولنفرض ان المتروبول يقترح اصلاحاً . فهناك ثلاثة احوال ممكنة :

١ – اما ان يتم الاصلاح آلياً لصالح المستعمِر والمستعمِر وحده .

لقد بُنيت سدود كثيرة وجهاز كامل للري ،من اجل زيادة محصول الأراضي. ولكن المعلوم ان الماء لا يمكن ان يروي الا اراضي الوديان . والحق ان هذه الأراضي كانت دائماً خير اراضي الجزائر ، وقد اغتصبها الأوروبيون . ويعترف قانون ( مارتان ) ان ثلاثة أرباع الأراضي المروية تعود للمستعمرين . اذهبوا اذن فارووا الجنوب الصحراوي !

٢ – وإما ان يشوّه الاصلاح بحيث يصبح غير ذي فعالية .

والحق ان نظام الجزائر هو في حد ذاته نظام شنيع مسيخ. أكانت الحكومة الفرنسية تأمل ان تخدع الشعوب الاسلامية بانتخاب ذلك ( المجلس ) من قبل جماعتين من الناخبين ؟ ان ما هو مؤكد انه لم يترك لها حق فرصة المضي في الخداع الى النهاية . ان المستعمِرين لم يريدوا ان يتركوا للسكان الأصليين حظ ان يكونوا مخدوعين . فقد كان هذا اكثر مما ينبغي لهم : ولقد وجدوا من الأسهل ان يزوّروا الانتخابات علناً. وكانوا يعتقدون انهم على حق تماماً : فخير لمن اراد ان يقتل الناس ان يطعنهم بالحراب . انه الاستعمار الذي يرتد ، في اشخاصهم ، ضد الاستعمار الجديد ليحذف منه عواقبه الخطرة .

٣ – واما ان يترك الاصلاح نائماً وتكون الادارة الفرنسية ضالعة في هذا الجرم .

كان قانون « مارتان » ينص على ان يتنازل المستعمرون عن بعض مساحات الأرض للدولة ، مقابل زيادة القيمة التي تكسبها اراضيهم من الري . وقد

« باعت » الدولة هذه المسافات الى جزائريين اعطوا اجازة بأن يفوا ديونهم في خمسة وعشرين عاماً . وانتم ترون ان الاصلاح كان متواضعاً ، فالقضية بكل بساطة هي ان يباع بعض السكان الأصليين المختارين قطعة صغيرة من الأراضي التي سرقت من ابنائهم . ولم يكن المستعمرون ليخسروا فلساً في هذه العملية .

ولكن ليست القضية في نظرهم الا يخسروا شيئاً . وانما هي ان يربحوا دائماً المزيد من الربح. فلقد عودهم المتروبول منذ مئة سنة على« التضحيات » التي كان يقوم بها « من اجلهم » فلم يكونوا يستطيعون ان يقروا ان يفيد السكان الاصليون من هذه التضحيات . وكانت النتيجة ان اقيم قانون « مرتان » .

ولا بد ان نفهم المسلك الاستعماري اذا فكر الانسان بالمهمة التي اعدوها « للدوائر الزراعية لتلقين الفلاح المسلم العلم التكنيكي ». فان هدف هذه المؤسسة التي انشئت على الورق في باريس لم يكن الا رفع طاقة الفلاح الانتاجية رفعاً بسيطاً لا يزيد عما لا بد منه حتى لا يموت جوعاً . ولكن مستعمري المتروبول الجدد لم يكونوا يدركون أن هذه المؤسسة كانت تمضي تواً لتنقلب على النظام : فقد كان ينبغي ان يبقى إنتاج الفلاح قليلاً وبأسعار مرتفعة ، حتى تظل اليد العاملة كثيرة غزيرة . أفلا يصبح العمال الزراعيون نادرين اذا انتشر التعليم التكنيكي ؟ أو لا يصبحون أكثر تطلباً ؟ أو لن تُخشى منافسة الملاك المسلم ؟ ثم ان التعليم مهما كان ومن حيث أتى هو خصوصاً وسيلة للتحرر . وإذا كانت الحكومة يمينية تعرف ذلك جيداً ، حتى انها ترفض تعليم فلاحينا في فرنسا بالذات ، فأولى بها ألا تنشر المعرفة التكنيكية بين السكان البلديين في الجزائر . وهكذا ظلت هذه الدوائر غير ذات عمل ، بعد أن هوجمت خفيةً في الجزائر وبعنف في مراكش .

وابتداء من هنا ، تظل جميع الاصلاحات عديمة الجدوى . وهي بصورة خاصة تكلف غالياً . ولا يملك مستعمرو الجزائر وسائل تمويلها ، بسبب تكاليفها الباهظة بالنسبة للمتروبول . فإن نشر التعليم العام ، وهو إصلاح غالباً ما اقتُرح ، يكلف ٥٠٠ مليار فرنك ( إذا حسبنا تكاليف كل تلميذ ٣٢,٠٠٠

فرنك في العام ) بينما لا تتجاوز عائدات الجزائر كلها ٣٠٠ مليار ، والحق أن إصلاح التعليم لا يمكن أن يتحقق إلا في جزائر مصنّعة تضاعف عائداتها ثلاثة أضعاف على الأقل . ولكننا رأينا أن النظام الاستعماري يعارض التصنيع . ان فرنسا تستطيع أن تلتهم الملايين في أعمال كبيرة ، ونحن نعلم جيداً أنه لا يبقى منها شيء .

وحين نتحدث عن النظام الاستعماري ، فيجب أن نتفاهم : فليست القضية قضية آلة مجردة . ان النظام قائم ، وهو يعمل ، فدائرة الاستعمار الجهنمية هي واقع محسوس . ولكن هـذا الواقع يتجسد في مليون من المستعمرين ، وابنائهم وأحفادهم ، ربّاهم الاستعمار فأصبحوا يتكلمون ويعملون وفـق مبادىء النظام الاستعماري .

ذلك ان المستعمِر مصنوع كالمواطن الأصلي : انه مجبول بوظيفته ومصالحه .

لقد ارتبط مع المتروبول بالميثاق الاستعماري ، فأقبل يتاجر بمصالحه مقـابل فائدة ضخمة ، هي غـلال البلد المستعمَر . بل هو قـد خلق زراعات جديدة تعكس حاجات المتروبول أكثر مما تعكس حاجات السكان الأصليين . فهو إذن مزدوج ومتناقض . إن له « وطنه » فرنسا و « بلده » الجزائر . وهو في الجزائر يمثل فرنسا ولا يريد ان تكون له علاقات بسواها. ولكن مصالحه «الاقتصادية» تدعوه الى معارضة المؤسسات « السياسية » في وطنه . ان المؤسسات الفرنسية هي مؤسسات ديموقراطية « بورجوازية » قائمـة على الرأسمالية الحرة . وهي تتضمن حق الانتخاب وحق الاجتماع وحرية الصحافة .

ولكن المستعمر الذي تتعارض مصالحه مباشرة مع مصالح الجزائريـين ، والذي لا يستطيع ان يقيم الاستثمار الا على مجرد الضغط ، لا يستطيع ان يقر هذه الحقوق الا لنفسه ، ويتمتع بها في فرنسا ، وسط الفرنسيين . وهو من هذه الزاوية يحتقر شمول المؤسسات المتروبوليتية ، شمولها الشكلي على الاقـل . فما دامت تنطبق على الناس جميعاً ، فـان بوسع الجزائري ان يطالب بهـا . ومن وظائف النزعة العفوية ان تعوض عن شمولية الحرية البورجوازية ، فما دام جميع

الناس يتمتعون بحقوق واحدة ، فلا بد ان يصنع من الجزائري رجل اسفل ، رجل دوني . وهذا الرفض لمؤسسات وطن المستعمر ، حين يريد مواطنوه ان يبسطوها على ( بلده ) ، يورث عنده نزعة انفصالية . أليس هو رئيس مختاري الجزائر ، الذي قال منذ بضعة اشهر : ( اذا كانت فرنسا حائرة ، فنحن نحل محلها ) .

ولكن التناقض يأخذ كل معناه حين يوضح المستعمر ان الاوروبيين معزولون وسط المسلمين ، وان نسبة القوى هي تسعة مقابل واحد . والحق انهم انما يرفضون كل نظام يمنح السلطة للاكثرية ، لانهم معزولون . ومن أجل هذا السبب نفسه ، ليس من وسيلة للبقاء الا بالقوة .

ولكن بسبب هذا بالذات – وبسبب ان نسبة القوى لا يمكن الا ان ترتد عليهم – نراهم بحاجة الى قوة المتروبول ، أي قوة الجيش الفرنسي . بحيث ان هؤلاء الانفصاليين هم في الوقت نفسه أصحاب وطنية مشوهة مبالغ فيها . فبينما هم جمهوريون في فرنسا – الى الحد الذي تسمح لهم مؤسساتنا ان يقيموا به « سلطة سياسية » عندنا – اذا هم في الجزائر فاشست يكرهون الجمهورية ويحبون حباً عنيفاً الجيش الجمهوري .

وهل تراهم يستطيعون ان يكونوا غير ذلك ؟ كلا . ما داموا مستعمرين . لقد حدث ان بعض الغزاة الذين اقاموا في بلد ما ، امتزجوا بالشعب المحلي وانتهى بهم الامر الى خلق أمة : وقد رأينا اذ ذاك ولادة مصالح قومية مشتركة ، بالنسبة لبعض الطبقات على الاقل . ولكن المستعمرين غزاة قطعهم الميثاق الاستعماري عن المغزوين قطعاً كاملا : فنحن نحتل الجزائر منذ أكثر من قرن ، ولم يكد يسجل أي زواج مختلط او اية صداقة فرنسية – اسلامية . إن مصلحة المستعمرين هي ان يهدموا الجزائر لصالح فرنسا . فلو كانوا جزائريين حقاً ، لكانوا مضطرين ، من أجل مصالحهم الخاصة ، ان يهتموا بتنمية البلاد الاقتصادية وبالتالي الثقافية .

وفي هذه الاثناء ، نرى المتروبول واقعاً في شرك الاستعمار . فما دام يؤكد

سيادته على الجزائر ، فان النظام يشوّه سمعته ، أي المستعمرون الذين ينكرون مؤسساته ، ثم ان الاستعمار يقسر المتروبول على ارسال فرنسيين ديمقراطيين الى الموت ليحمي طغياناً يمارسه مستعمرون لاديمقراطيون ضد الجزائريين ، ولكن الشرك يعمل عمله هنا ايضاً ، وتضيق الدائرة . فان الاضطهاد الذي مارسه لمصلحتهم يعرّضهم كل يوم الى مزيد من الكراهية والبغض . ان فرقنا العسكرية ، بمقدار ما تحميهم ، تبالغ من الخطر الذي تعرض له نفسها ، مما يجعل وجود الجيش امراً لا غنى عنه . وسوف تكلفنا الحرب هذا العام ، اذا نحن واصلناها ، أكثر من ٣٠٠ مليار فرنك ، وهذا ما يعادل مجموع الموارد الجزائرية .

وها نحن نصل الى النقطة التي يهدم عندها النظام نفسه بنفسه : ان المستعمرات تكلف أكثر مما تغل .

لقد كان المستعمرون منسجمين مع أنفسهم حين هدموا المجتمع الاسلامي ورفضوا تمثل المسلمين ، فان التمثل كان يفرض ان تُضمن للجزائريين جميع الحقوق الاساسية ، وان يفيدوا من مؤسسات المساعدة والامن ، وان يفسح في مجلسنا الوطني مكان لمئة نائب جزائري ، وان يؤمَّن للمسلمين مستوى من الحياة يعادل مستوى الفرنسيين ، وذلك باجراء اصلاح زراعي وبتصنيع البلاد .. وكان التمثل ، اذا بلغ كنهه ، يعني بكل بساطة الغاء الاستعمار : فكيف يراد الحصول عليه من الاستعمار نفسه؟ ولكن ما دام المستعمرون ليس لهم ان يعطوا المستعمَرين إلا البؤس ، وما داموا يبعدونهم عنهم ، وما داموا يجعلون منهم كتلة غير قابلة للتمثل ، فلا بد ان يكون لهذا الموقف السلبي رد فعل تجسد في وعي الجموع للوضع. لقد اكتشفت الشخصية الجزائرية نفسها كرد فعل للتجزئة وللنضال اليومي . وليست القومية الجزائرية مجرد احياء للتقاليد القديمة ولا للصلات القديمة ، وانما هي المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حد لاستثمارهم واستغلالهم . لقد رأينا جول فيري يصرح في المجلس « حيث السيادة السياسية تكون السيادة الاقتصادية .. » ونحن نرى ان الجزائريين يموتون من

سيادتنا الاقتصادية ، ولكنهم يأخذون عبرة من هذه التجربة . فلقد قرروا ، من أجل هدم سيادتنا الاقتصادية ، أن يهاجموا سيادتنا السياسية . وهكذا خلق المستعمرون أنفسهم أعداءهم ، فاظهروا المترددين والشاكين ان ليس ثمة حل ممكن إلا حل القوة .

ان حسنة الاستعمار الوحيدة هي أنه يظهر بمظهر الثبات والتصلب من أجل أن يستمر ، وانه يهيء بهذا التصلب نهايته وهلاكه .

ونحن ، فرنسيي المتروبول ، ليس لنا إلا درس واحد نتعلمه من هذه الأحداث: إن الاستعمار يعمل الآن على تهديم نفسه ، ولكنه ما يزال ينتن الجو ، انه عارنا ، وهو يهزأ بقوانيننا ويظهرها بمظهر كاريكاتوري . إنه ينشر بيننا وباء العنصرية ، كما أثبتت ذلك حوادث « مونبليه » أخيراً ، وهو يفرض على شبابنا ان يموتوا رغماً عنهم من أجل مبادىء نازية نحاربها منذ عشر سنوات ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه بخلق فاشية في صميم بلادنا ، فرنسا . وان مهمتنا هي أن نساعده على الموت . لا في الجزائر وحدها ، بل حيثما وجد . ولا شك في ان الذين يتحدثون عن ترك الجزائر هم بلهاء : فليس لنا ان نترك ما لم نملكه قط . بل القضية على العكس ، هي ان نبني مع الجزائريين علاقات جديدة بين فرنسا حرة وجزائر محرّرة . ولكن حذار أن يصرفنا عن رسالتنا خداعٌ إصلاحي . ان الاستعماري الجديد هو انسان أبله ما دام يعتقد ان بالامكان تحسين النظام الاستعماري — أو هو انسان خبيث يقترح إصلاحات لأنه يعلم انها لا جدوى منها . ان هذه الاصلاحات ستأتي في أوانها : والشعب الجزائري هو الذي سيحققها . والشيء الوحيد الذي نستطيع ان نحاوله ، وينبغي ان نحاوله — ولكن المهم ان نحاوله اليوم — هو ان نكافح الى جانبه لنحرر — في الوقت نفسه — الجزائريين والفرنسيين من الاستبداد الاستعماري [1] .

---

(١) خطاب ألقي في اجتماع من أجل « السلام في الجزائر » ، ونشر في « التان مودرن » العدد ١٢٣ ، آذار — نيسان ١٩٥٦ .

# «صورة المستعمَر»
# تسبقها «صورة المستعمِر»
## «لألبير ميمي»

إن ساكن الجنوب وحده يملك صلاحية التحدث عن الرق: ذلك أنه يعرف الزنجي؛ أما سكان الشمال، وهم طهريّون مجرّدون، فلا يعرفون إلا «الانسان» الذي هو جوهر. وهـذه الحجّة صالحة ايضاً: في «هوستون»، في صحافة «نوفيل – أورليان»، ثم في الجزائر «الفرنسية» باعتبار ان المرء هو دائماً «شماليُّ» أحدٍ ما. إن الصحافة هناك تردد لنا أن المستعمِر هو وحده الصالح للتحدث عن المستعمرة: أما نحن، سكان المتروبول، فلا نملك تجربته؛ فيجب ان نرى ارض افريقيا اللاهبة بعينيه، وألا لم نرَ إلا نادراً.

وأنا أوصي الذين يخيفهم هـذا «الشانتاج» أن يقرأوا «صورة المستعمَر، تسبقها «صورة المستعمِر». إن هنا، هذه المرة، تجربة مقابل تجربة؛ وقد روى المؤلف، وهو تونسي، شبابه المعذب في «تمثال الملح». وما هو على الضبط؟ مستعمِر أم مستعمَر؟ لو سئل هـذا لقال: لا هذا ولا ذاك؛ وربما قلتم أنتم: هذا وذاك؛ والأمران، في الحقيقة، سواء. إنه ينتمي الى إحدى تلـك الفئات المحلية، التي ليست هي مسلمة، والتي «تتمتع بنصيب أوفر من الامتيازات بالنسبة للجموع المستعمَرة و... التي ترفضها الجماعة المستعمِرة» ولكنها لا تثبّط مئة بالمئة جهودها لتندمج في المجتمع الأوروبي. إن أفراد هذه الفئة الذين يشدّهم تضامن عملي الى البروليتاريا الدنيا، وتفصلهم عنها امتيازات هزيلة، يعيشون في قلق أبدي. ولقد عانى «ميمي» هـذا التضامن المزدوج

وهذا الرفض المزدوج : الحركة التي تنصُب المستعمِرين في وجه المستعمَرين ، « المستعمِرين الذين يرفضون أنفسهم » في وجه « المستعمِرين الذين يقبلون أنفسهم » . ولقد أدرك ذلك بعمق لأنه أحسّه أولاً على أنه تناقضُه الخاص . وهو يشرح شرحاً موفقاً في كتابه أن تمزّقات الروح هذه ، وهي تمثّلٌ محض للصراعات الاجتماعية ، لا تهيّىء للعمل . ولكن الذي يعانيها ، إذا وعى ذاته، وعرف مشاركاته في الذنب واغراءاته ونفيَه ، يستطيع ان يضيء الآخرين حين يتحدث عن نفسه : أن هذا المشتبَه به ، « وهو قوة لا أهمية لها في المقارنة » ، لا « يمثّل » أحداً ؛ ولكنه ما دام الجميع في وقت واحد ، فسيكون خير الشهود .

ولكن كتاب « ميمي » لا « يروي » ؛ فلئن تغذّى بالذكريات ، فهو قد تمثّلها كلها : انه « اخراج » تجربة : فبين اغتصاب المستعمِرين العرقي والأمة التي سيبنيها المستعمَرون في المستقبل ، حيث « يشك في أن يكون له مكان » ، يحاول المؤلف أن يعيش تفرُّده بتجاوزه الى العالمي العمومي . لا نحو «الانسان» الذي لا يوجد بعد ، وإنما نحو « عقل » دقيق يفرض نفسه على الجميع . وهذا الكتاب الموجز الواضح يأتي في عداد « الهندسات المهووسة » : فموضوعيته إنما هي الألم والغضب وقد تجُووزا .

ولا شك في أن هذا سبب ما يمكن ان يؤخذ عليه من مظهر المثالية : والحق ان كل شيء قد قيل . ولكن هناك مجالاً لانتقاده من حيث النظام المتبع . فلعله كان من الأفضل ان يصوّر الاستعماري وضحيّته مخنوقين بصورة متشابهة بـ « الجهاز » الاستعماري ، تلك الآلة الثقيلة التي بُنيت في أواخر « الامبراطورية الثانية » ، في عهد « الجمهورية الثالثة » ، والتي ، بعد أن أرضت المستعمرين كل الارضاء ، ارتدّت عليهم وهي توشك ان تطحنهم . والعنصرية هي في الواقع مُدرجةٌ في النظام : ان المستعمرة تبيع بأسعار رخيصة مؤناً غذائية ، ومنتوجات خاماً، وتشتري باسعار باهظة منتجات صناعية من المتروبول. وهذه التجارة الغريبة لا تفيد الجانبين إلا اذا كان المواطن المحلي يشتغل من أجل لا

شيء ، او قريباً من هذا . ولا تستطيع البروليتاريا الزراعية المتخلفة ان تعتمد على تحالف الأوروبيين الأقلّ حظوة : فالجميع يعيشون عليها ، بما في ذلك « هؤلاء المستعمِرون الصغار » الذين يستغلهم كبار الملاكين، ولكنهم اذا قورنوا بالجزائريين ، يظلون ذوي امتياز : وإن الدخل المتوسط لفرنسيّ الجزائر يبلغ عشرة أضعاف دخل المسلم . ومن هنا ينشأ التوتّر . ولكي تصبح الرواتب وتكاليف الحياة في أخفض درجاتها، فلا بدّ من منافسة شديدة جداً بين العمّال المحليين ، وهذا يعني أنه لا بدّ من ان ترتفع نسبة المواليد ؛ ولكن لما كانت موارد البلاد محددة بالاغتصاب الاستعماري ، فان مستوى الحياة المسلمة ينخفض دون انقطاع ، وتظلّ الرواتب كما هي ، فيعيش السكان في حالة دائمة من سوء التغذية . ولقد تمّ الفتح بالعنف ؛ ويتطلّب الاستغلال في اقصى حدوده والاضطهاد الحفاظ على العنف ، وأحد مظاهره وجود « الجيش » . ولن يكون ثمة من تناقض اذا كان الارهاب يسود الأرض كلّها : ولكن المستعمِر يتمتّع هناك في المتروبول ، بالحقوق الديمقراطية التي يرفض النظام الاستعماري منحها للمستعمِرين : والواقع ان النظام هو الذي يشجّع تزايد السكان ليخفض تكاليف اليد العاملة، وهو الذي يمنع ايضاً « اندماج المحليين ».فاذا تمتعوا بحق التصويت، فان تفوقهم العددي يفجّر كل شيء في الحال . ان الاستعمار يرفض منح « حقوق الانسان » لبشر أخضعهم بالعنف،وهو يقسرهم على ان يظلوا في البؤس والجهل ، أي في حالةٍ من « البشرية — الدون » كما قد يقول ماركس . ان العنصرية موجودة في الوقائع نفسها ، وفي المؤسسات ، وفي طبيعة المبادلات والانتاج ؛ والنظامان السياسي والاجتماعي يتعزّزان بالتبادل : فما دام الساكن المحليّ انساناً — دوناً ، فان « وثيقة اعلان حقوق الانسان » لا تعنيه ؛ وبالعكس ، ما دام لا يملك حقوقاً ، فهو متروك بلا حماية لقوى الطبيعة اللابشرية ولقوانين الاقتصاد القاسية . إن العنصرية « موجودة هنا » ، وقد حملها التطبيق الاستعماري، وأخذت الآلة الاستعمارية تلبنّاها في كل دقيقة ، وتدعمها علاقات الانتاج تلك التي تحدّد نوعين من الأفراد : فالامتياز والانسانية ، بالنسبة لأحد

هذين النوعين ، ليسا الا شيئاً واحداً ؛ فهم يكتسبون الانسانية بالممارسة الحرّة لحقوقهم ، في حين أنّ انعـــدام الحق ، بالنسبة للنوع الآخر ، يقرّر بؤسهم وجوعهم المزمن وجهلهم ، وبالاختصار انسانيتهم الدونية . ولقد اعتقدت دائماً أن الأفكار ترتسم في الأشياء ، وانها مقيمة في الانسان حين يوقظها ويعبر عنهــا ليشرح لنفسه وضعه . إن « نزعــة المحافظة » لدى المستعمِر ، و « عنصريته » والعلاقات المتبسة بينه وبين المتروبول ، كل ذلك معطىً أولاً ، قبل ان يبعثها من جديد في « عقدة نيرون » .

وأنا أرى « ميمي » يجيبني بلا شك بأنــه لا يقول شيئاً غير ذلك : أعرف هذا[1] ، وربما كان هو على حق ، في نهاية المطاف : انه إذ يعرض افكاره وفق وتيرة الاكتشاف ، اي انطلاقاً من النوايا الانسانية والعلاقات المعاشة ، يؤكد صحة تجربته ويضمنها : لقد تألم أولاً في علاقاته مع الآخرين ، وفي علاقاته مع نفسه ؛ وقد التقى البُنية الموضوعية بتعميق التناقض الذي كان يمزّقــه ؛ وهو يقدّم لنا هذه العلاقات كما هي ، خاماً ، ما تزال مخضّلةً بذاتيتها .

ولكن لندع هذه المماحكات . إن الكتاب يقرّر حقائق قويّة . أولهــا ان ليس ثمة مستعمِرون طيّبون ومستعمِرون سيئون : هناك استعماريون . وبينهم من يرفضون حقيقتهم الموضوعية : انهم وهم مدفوعون بالآلة الاستعمارية يفعلون كل يوم « بالفعل » ما يشجبونه « بالحلم ».وكل عمل من أعمالهم يساعد على بقاء الاضطهاد ؛ انهم لن يغيّروا شيئاً ، ولن يصلحوا لأحـد وسيجدون رضاهم وراحتهم النفسية في الاستياء ، هذا كل شيء .

اما الآخرون — وهم العدد الأكبر — فيبدأون أو ينتهون بان يقبلوا أنفسهم.

ولقد صوّر « ميمي » تصويراً بارعـاً بقية المراحل التي تقودهم الى « التبرئة الذاتية » . إن نزعة المحافظة تنتج اختيــار المتوسّطين . فكيف تستطيع ان تقيم امتيازاتها ، هذه النخبة من المغتصبين الواعين لوسطيتهم ؟ ان هنــاك وسيلة واحدة : هي ان يُخفضوا المستعمَر ليكبروا ، وان يرفضوا منح السكان المحليين

١ — ألم يكتب : « ان الوضع الاستعماري يصنع استعماريــين ، كما يصنع مستعمرات » ؟ ( ص ٧٧ ) ان كل الاختلاف بيننا ربما كان مرجعه انه يرى وضعاً حيث أرى نظاماً .

صفة البشر ، وان يحددوهم على أنهم مجرّد « حرمانات » . ولن يكون ذلك صعباً ، باعتبار أن النظام ذاته يحرمهم من كل شيء ؛ إن التطبيق الاستعماري قد حفر الفكرة الاستعمارية في الأشياء نفسها؛ وحركة الأشياء نفسها هي التي تعيّن في الوقت نفسه المستعمِر والمستعمَر . وهكذا يتبرّر الاضطهاد بنفسه : إن المضطهدين ينتجون ويحافظون بالقوة على الأمراض التي تجعل المضطهَد ، في نظرهم ، يزداد شبهاً لما ينبغي أن يكون ليستحق قدره . ولا يستطيع المستعمِر أن يبرّيء نفسه إلا بان يواصل مواصلة منتظمة « سلب الصفة البشرية » عن المستعمَر ، أي بأن يتوحّد كل يوم أكثر فأكثر مع الآلة الاستعمارية . إن الإرهاب والاستغلال يسلبان الصفة الانسانية ، ويسمح المستغلّ لنفسه بهذا السلب ليزداد استغلالاً . إن الآلة تدور وتدور ؛ ومن المستحيل تمييز الفكرة عن التطبيق ، والتطبيق عن الضرورة الموضوعية . ولحظات الاستعمار هذه تتكيّف فيما بيننا بالتبادل تارة وتتمازج تارة أخرى . إن الاضطهاد هو « أولاً » حقد المضطهِد على المضطهَد . وهناك حدّ واحد لمشروع الاستئصال هذا : هو الاستعمار نفسه . هنا يلتقي المستعمِر تناقضه الخاص : فمع المستعمَر سيختفي الاستعمار ، والمستعمِر معه . لن يكون بعدُ بروليتاريا — دون ، ولن يكو بعدُ استغلال الى أقصى حد : بل سنقع من جديد في الاشكال العادية للاستغلال الرأسمالي ، وستبلغ الرواتب والأسعار رواتب المتروبول وأسعاره : وسيكون ذلك الخراب . ان النظام يريد في وقت واحد موت ضحاياه وتكاثرهم ؛ وكل تغيير سيكون شؤماً عليه : وسواء دُمج السكان المحليّون ام قُتلوا ، فان سعر اليد العاملة لن يكفّ عن الارتفاع . إن الآلة الثقيلة تُقيم بين الموت والحياة — واقرب الى الموت منها الى الحياة — أولئك الذين هم مجبرون على تحريكها ؛ وثمة ايديولوجية متحجرّة تجهد في ان تعتبر فئة من « البشر » كحيوانات تتكلم . وعبثاً ما يكون ذلك ؛ فلكي يُعطوا أوامر ، حتى ولو كانت أقسى الاوامر وأشدّها إهانة ، فيجب البدء « بالاعتراف » بهم ؛ ولما لم يكن ممكناً مراقبتهم بلا انقطاع ، فلا مفرّ من منحهم الثقة : إن أحداً لا يستطيع ان يعامل انساناً « كالكلب » ، اذا لم يعتبره

أولاً انساناً . وسلب المضطهَد انسانيته ، هـذا السلب المستحيل ، يرتدّ فيصبح سلب المضطهِد : فانه هو نفسه من يبتعث بأقل حركة ، الانسانيةَ التي يريد أن يهدمها ؛ ولما كان يُنكرها لدى الآخرين ، فانه سيجدهـا في كل مكان كقوة عدوّة . ولكي يفلت منها لا بدّ له من ان يتعدّن ، ومن أن يمنح نفسه الكثافة وعدم قابلية الصخر للاختراق، وبالاختصار ان يسلب نفسه انسانيته ».

إن تبادلاً لا هوادة فيه يشد المستعمِر الى المستعمَر ، نتاجه ومصيره . وقد سجل « ميمي » ذلك بقـوة ؛ ونحن نكتشف معه أن النظـام الاستعماري هو شكل متحرك، وُلد حوالي منتصف القرن الماضي وسينتج بذاته وسائل تهديمه : وها قد انقضى وقت طويل جداً وهو يكلف المتروبولات أكثر مما يرد عليها ؛ إن فرنسا مسحوقة تحت عبء الجزائر ، ونحن نعلم الآن اننا سنترك الحرب ، بلا نصر ولا هزيمة ، حين نصبح أفقر من أن ندفع تكاليفها . ولكن الصلابة الميكانيكية للجهاز هي التي تعمل الآن اولاً على تعطيله : إن البنيات الاجتماعية القديمة قد تحطّمت ، وقـد أصبح المحلّيون « مصابين بالذرة » ولا يستطيع المجتمع الاستعماري ان يدمجهم من غير ان يهدم نفسه ؛ فيجب إذن ان يجدوا من جديـد وحدتهم « ضدّه » . وسيطالب هؤلاء المبعدون بنفيهم تحت اسم « الشخصية القومية » : فالاستعمار هو الذي يخلق وطنية المستعمَرين . إن النظام الاضطهادي الذي يجعلهم على مستوى الحيوان لا يعطيهم اي حق ، حق ولا حق الحياة ، ووضعهم يسوء كل يوم : وحين لا يبقى لشعبٍ أي ملجأ آخر إلا ان يختار طريقة موته ، وحين لا يكون قد تلقّى من مضطهديه إلا هدية واحدة ، هي اليأس ، فما الذي يبقى له ليخسره ؟ إن مصيبته هي التي تصبح شجاعته ؛ وهـذا الرفض الأبدي الذي يواجهه بـه الاستعمار ، سيكون رفضاً مطلقاً عنده للاستعمار . وقد قال ماركس يوماً إن سر البروليتاريا هو انها تحمل في ذاتها تهديم المجتمع البورجوازي . ويجب ان نحمد لـ « ميمي » أنه ذكّرنا بأن للمستعمَر هو الآخر سره ، واننا نشهد الاحتضار الفظيع للاستعمار [1] .

---

(١) « التان مودرن » العدد ١٣٧ - ١٣٨ ، تموز - آب ١٩٥٧ .

# « إنكم هائلون ! »[1]

نشرت أخيراً مجموعة من الشهادات والوثائق عن الطرق التي نتبعها[1] في الجزائر لإحلال السلام ، وذلك في كتاب عنوانه « مجنّدون يشهدون » Des Rappelés témoignent [2] فهل قرأتموه؟ إن هؤلاء العائدين مسيحيون، كهنة ، رجال دين مجنّدون . وقد يبدو معقولاً ان تختلف آراؤهم على صعيد السياسة العامة ، وان كانوا لم يذكروا من ذلك شيئاً . ولكنهم يملكون الارادة المشتركة في أن يكشفوا عن هذا القرح – الذي ما زال بعيداً عن ان يشمل الجيش كله ، غير انه بات من المستحيل تعيين مكانه بالضبط – وعن تلك الممارسة المنظمة العنيدة للعنف المطلق . فهناك ألوان من السلب والنهب والاعتداء على أعراض النساء وأنواع من الانتقام من السكان المدنيين، ومن الاعدام بالجملة وبلا محاكمة ، ومن اللجوء الى التعذيب لانتزاع الاعترافات او المعلومات . والواقع ان هؤلاء الشهود لا يخفون شيئاً ، ويفضحون جميع جرائم الحرب التي ارتكبت تحت انظارهم . والحق ان هذه الشهادات المعتدلة ، الذكية ، الحريصة على إنصاف الجميع ، حتى أشد الناس اجراماً ، انما تؤلف وثيقة مرهقة الى ابعد

---

(١) يبدو لي ضرورياً ان افسح المجال واسعاً للتعريف بالكتاب الذي سأتحدث عنه . من أجل هذا كتبت هذا المقال، وكنت اريد نشره في جريدة يومية كبرى. ولكنها رفضت نشره، وانا انشره الآن في « التان مودرن » .

(٢) نشرته لجنة المقاومة الروحية .

الحدود . وان تلاوتها أمر غير محتمل على الاطلاق ، فعلى القــارىء ان يجاهد لينتقل من سطر الى سطر . ومع ذلك ، فاني اوصي بقراءة هــذا الكتيب ، أوصي جميع الذين لم يعرفوه بعد ، واتمنى ان يقرأه جميع الفرنسيين . ذلك اننا مريضون ، مريضون جــداً ... ان فرنسا المحمومة الراكعة ، المأخوذة بأحلام مجدهــا القديمة وباستشعار خجلهــا ، تتخبط وسط كابوس مبهم لا تستطيع التخلص منه ولا تستطيع سبر غوره . فأما ان نرى بوضوح ، واما ان ننفجر .

فمنذ ثمانية عشر عاماً ، نرى بلادنا واقعة ضحية مــا سماه القانون « عملية قتل المعنويات ». والحق ان قتل معنويات امة لا يكون أولاً بتخريب معنوياتها . وانما يكون بحط اخلاقيتها . اما الطريقة ، فيعرفها الجميع : فحين ألقوا بنــا في مغامرة حقيرة ، وضعوا في نفوسنا ، من الخارج، شعوراً بالذنب الاجتماعي . ولكننا نصوت ، ونمنح السلطات ، ونستطيع بطريقة مــا ان نسحبها : فان اندفاعات الرأي العــام تسقط الوزراء ، وينبغي ان نكون شخصياً ضــالعين بالجرائم التي ترتكب باسمنا ، لأن بوسعنا ان نوقفها ، وهذا الشعور بالذنب الذي يستريح في نفوسنا ، جامداً ، غريباً ، ينبغي ان نأخــذه لحسابنا ، وان نذل وندنو لنستطيع احتماله .

على اننــا لم نسقط الى مثل هــذا الدرك لنستطيع ان نسمع صراخ طفل معذب ، من غير ان نشعر بالهول والارتعاد [١] . وكم يكون كل شيء يسيراً ، وكم يسهل رد الأمر الى نصابه ، لو ان هذه الصرخات تطرق آذاننا . ولكنهم في الواقع يقدمون لنا المعروف بخنقها . ليس ما يقتل معنوياتنا هو القحة وليس هو البغض ، كلا ، انما هو الجهل الزائف الذي يعيشوننا فيه ، والذي نسهم نحن أنفسنا في الابقــاء عليه . ان حاكمينا ، لشدة حرصهم على تأمين الراحة لنــا لا يتورعون عن ان يلغموا حرية التعبير ، فاما اخفاء الحقيقة ، واما غربلتها . حين يقتل الثوار أسرة اوروبية ، لا توفر علينا الصحف شيئاً من اخبار هــذه المجزرة ، حتى ولا صور الأجساد المقطعة ، ولكن حين لا يجد محــام مسلم أي

(١) راجع الصفحتين ١٠ و ٥٩٩ من « مجندون يشهدون » .

ملجأ من جلاديه الفرنسيين الا الانتحار فـــان الخبر يشار اليه بثلاثة اسطر « مراعاة » لحساسيتنا . فالاخفاء والخداع والكذب واجب على مخبري فرنسا ، والجريمة الوحيدة هي تعكير صفونا . ولقد اثبتوا ذلك للسيد بايريغا Peyerga : فليس ثمـة في الجزائر من يفكر في انكار الحوادث التي رواها ، وانما يؤخذ عليه فقط انه رواها لنا . اننا فرنسيون ، وهناك جنود فرنسيون يَقتلون بـلا وعي في شوارع مدينـة الجزائر تحت انظار السكان الاوروبيين المتعطشين للحرب ، ولكن هذا ليس من شأننا. ان حقيقة افريقيا هي خمر قوي جداً ، اقوى من ان تحتمله ادمغتنا الطرية : فما عساه يصيب المستعمرين اذا سكرت البلاد الفرنسية؟ ان الهدوء هو ما نحتاج اليه ، فترة استجمام ، بعض الوان التسلية : فمنذ وفـاة لويس السادس عشر ، أصبح كل فرنسي حقاً يتيماً ، وان حكومة موليه تعرف حداد طبقتنا البورجوازية وتقاسمها اياه ، ولمـا كانت لا تتأخر عن اية تضحية فقد نصبت ملكة انكلترا ، ثلاثة ايام ، على عرش فرنسا [1] . فما الذ ذلـــك وافتنه ! ان الناس يتحدثون فيما بينهم من غـــير ان يعرف بعضهم بعضاً ، وهم يتماسكون بالايدي ويرقصون. ومع ذلك، فان في الجزائر رجالاً اشداء يتابعون عملهم : فليست للجلادين ايام عطلة أو عيـد ، وان الراديو يحمل اليهم تنهدات نشوتنا ، فيقولون في انفسهم « امــا وقد حصلوا الآن على ملكتهم فليدعونا وشأننا ! » . وقد ذهبت الملكة ، وهي تستريح في قصر وندسور، فاذا فرنسا، وقـد استبد بها الحب ، تسقط مريضة وتلزم السرير ، واذا الحكومة الفرنسية تسير على اطراف اصابعها . « لا تقلقوا نومها » . ومع ذلـك فاذا اتفق لأحدنا ان يفتح عينه وان يسأل ممرضيه ، فسرعان ما تلجأ الحكومة الى حيلة أخرى: ففي خطة قلم ، تصنع لجنة للحماية ليست لهـــا من مهمة أخرى غـير تخفيف مسؤولياتنا . « اهناك تجاوزات وسوء تصرف ؟ ربما ، ولكن مرة او مرتين . ولا بد من مثل ذلك في الحروب . ولكن مـــا الذي يهمكم ؟ انكم بعيدون عن

---

(١) يشير الكاتب الى زيارة ملكة انكلترا آنذاك الى فرنسا (هـ.م) .

مدينة الجزائر ، وانتم لا تعرفون القضية ، فأولوا ثقتكم اذن لجنة الحماية هــذه . سوف نؤلفها مــن اشخاص طيبين ، اختصاصيين في الوساوس وحالات الضمير. فأعطوها ما ينتابكم من قلق ، فانها ستنقله الى الجزائر . وناموا قريري العين . »

ليتنا نستطيع النوم ، وليتنا نستطيع ان نجهل كل شيء ! ليتنا مفصولون عن الجزائر بجزر من الصمت ! وليتهم يخدعوننا حقــاً ! ان الأجنبي يستطيع آنذاك ان يشك بذكائنا ، ولكنه لا يشك بسلامة طويتنا .

والواقع اننا لسنا سليمي الطوية . اننا قذرون . ان ضمائرنا لم تعكر ، وهي مع ذلك مبلبلة . وحاكمونا يعرفون ذلك جيداً . وهم يحبوننا على هــذا النحو : ان ما يريدون الحصول عليه بعناياتهم المرهفة ومراعاتهم المعلنة ، انمــا هو اشتراكنا في الجريمة تحت ستار جهل مزيف . فإن الناس جميعاً ، قــد سمعوا بألوان التعذيب ، وقــد تسرب منها أنباء الى الصحف الكبيرة رغم كل شيء ، ونشرت بعض الصحف الشريفة الصغيرة شهادات مختلفة وتداولت الأيــدي نشرات ، وعاد جنود يتحدثون .. ولكن هذا هو بالذات مــا يخدم مفسدي المعنويات . لأن كل شيء يضل أو ينبت في الكثافة الاجتماعية ، ويجب أن تشق الدروب للانباء الآتية من هناك ، ثم ينعطف الدرب وتموت الأنباء . وهــذه الصحف والنشرات لم يقرأها معظم الفرنسيين وهم لا يستطيعون قراءتها : وإنما هم يعرفون أشخاصاً يقرأونها ، وكثيرون منا لم يسمعوا قط مجنّداً يتكلم ، وانما نقل إليهم ما كان يقوله بعض العسكريين . وهذه الشهادات البعيدة ، التي نقلت فماً لأذن، وكـُذبت رسمياً ، تصاب في أثناء التجوال بنقص تدريجي في الحظوة. وهنا تنتظرنا « العملية » وهنا ننتظر أنفسنا ويا للأسف ! فلماذا نصدق هــذه الروايات ؟ أين هي الوثائق ؟ أين هم الشهود؟ أما الذين يصرحون بأنهم مقتنعون، فلأنهم كانوا كذلك من قبل . صحيح انــه لا يمكن رفض الامكانية بصورة « مسبقة » .. ولكن يجب الانتظار ، ويجب الا نصدر الحكم قبـل ان نتيقن . وإذن ، فإننا لا نحكم . ولكننا لا نستعلم كذلك . فمــا أن نحاول الحصول على أوراق الدعوى ، حتى يتحول مجتمعنا الواضح الى غابة عذراء : اننا نسمع من

بعيد جداً ، وبصورة غامضة ، صوت الطبل ، ونأخذ نسير في دائرة مفرغة اذا أردنا الاقتراب منه . ثم نقول: حسبنا ما لدينا من هموم شخصية ولا حاجة الى إلصاق هموم الآخرين بنا . ان من قضى نهاره في العمل ، وتلقى في المكتب جميع مضايقات الحياة اليومية ، ينبغي ألا يُطلب منه أن يقضي السهرة وهو يجمع الأخبار عن العرب .

وتلك هي أول أكاذيبنا – ليس على مفسدي المعنويات بعدُ إلا أن يشبكوا أذرعتهم ويقولوا : سوف ننجز العمل بأنفسنا . والحق ان الهموم العملية لا تمنع انساناً من أن يقرأ الجريدة بعد العشاء ، ذلك ان الحكم في القضايا العامة يلهي عن القضايا الخاصة . وان ذرف دموع رقيقة أو الاستسلام لعسر هضم عنيف ينسي الغضب المكبوت بعد الظهر . إن الصحف تغازلنا : فهي تريد أن نؤمن بأننا طيبون ... وهنا يكمن الكذب – وتبرير الكذب : أجل ان الأدلة تعوزنا ، ولذلك لا نستطيع أن نصدّق شيئاً ، على اننا لا نبحث عن هذه الأدلة ، لأننا نعرف ، بالرغم منا . وما الذي كان يطلبه مفسدو المعنويات ؟ انهم يطلبون ذلك ولا شيء سواه : جهلاً معذوراً – وغير قابل للغفران أكثر فأكثر ، يذلنا تدريجياً ويقرّبنا كل يوم من اولئك الذين كان علينا ان نحكم عليهم . حتى اذا أشبهناهم تماماً ، صحنا : « جميع الناس أخوة ! » ثم نرتمي بين أذرعتهم .

أما كذبتنا الثانية ، فقد أعدّوها لنا . ان الشَرك هو لجنة الحماية . ليتنا نستطيع ان نوليها ثقتنا ! ولكن لنفرض اننا نريد ذلك، فمن أين نستمد الخداع اللازم ؟ ما فائدة لجنة حين تتكاثر الجرائم والمذابح في طول الجزائر وعرضها ؟ من الذي ينبئها في مدينة الجزائر، عما يجري في الريف؟ ومن الذي يستشيرها؟ وفي أي شيء ؟ أتراها ستذكر الناس بحقوق الانسان ؟ ان الجميع يعرفونها ، بما فيهم السيد لاكوست . وانما القضية ان يُعتَرف بهذه الحقوق . فكيف يراد ان تبلغ ذلك اذا كان الوزير المقيم لا يستطيع ان ينهي الأعمال غير الشرعية ، أفيظن ان تزويده ببضعة مستشارين سيمكنه من القضاء على هذه الأعمال؟ واذا

كان يريـــد ويستطيع ان يقضي على التجاوزات ، فأية حاجة له بهم ؟ ولكن الواقع ان الحكومة قامت بحركة ما، فصرح السيد موليه بأنه «قلق مضطرب» وانه يريد النور كله في الموضوع . فاذا نحن صدقناه فان لنا في ذلك الاعذار : ان الكلمة الانسانية مصنوعة لتصدق ، واذا نحن لم نصدقه ، فنحن معذورون أكثر : ان كلمة السيد موليــه مصنوعة لتوضع موضع الشك . فنحن نعرف ان لجنة التحقيق ستؤلف من رجال لا غبار عليهم، ونعرف كذلك انها لن تستطيع أن تعمل شيئاً : ان نزاهتهم تفيدنا في انها تقنّع عجزهم . وهكذا نرفض ايلاء الحكومة الثقة ، ومع ذلك نعتمد عليها لتبديد حذرنا .

مجرمون . مجرمون مرتين . نحن نشعر بأننا فريسة ضيق واضطراب ، ليس هو الهول بعد ، ولكنه الارهاص بأن الهول موجود ، قريب منا جداً ، وانــه يتهددنا بحيث لا نستطيع ولا نريد ان ننظر اليه وجهاً لوجه . وفجأة ينبعث بريق يبهر العيون : « واذا كان هذا صحيحاً ؟ » يجد كل منا جاره مريباً ويخشى ان يصبح هو مريباً في عين جاره. قد يختلف اصدقاء في الرأي حول حل القضية الجزائرية ، ولكن ذلك لا يمنعهم من أن يتبادلوا الاحترام . ولكن ما القول في الاعدامات بالجملة ؟ ومـــا القول في اساليب التعذيب ؟ أمن الممكن الاحتفاظ بشعور الصداقة تجــاه من يقرّها ؟ ان كل انسان يصمت ، وكل انسان ينظر الى جاره الصامت ، وكل انسان يتساءل : « ما الذي يعرفه ؟ مــا الذي يظنه ، ما الذي قرر ان ينساه ؟ » ان الناس يخشون ان يتحدثوا فيما بينهم، الا اذا كانوا في اتجاه فكري واحد . فاذا اتفق ان اكتشفتُ مجاملة مجرمة لدى الانسان الذي شدّ على يدي ، فان هذا الرجل لا يقول شيئاً ، ومن لا يقول شيئاً يوافق . غير اني ، انا ايضـــاً ، لا أقول شيئاً . ولكن لنفرض انه كان هو الذي يأخذ عليّ ضعفي وميوعتي ؟ ان الحذر يعلـّمنا عزلة جديدة : اننا مفصولون عن مواطنينا بدافع من خوفٍ ان َنحتقر أو ُنحتقر . والحق ان هذا شيء واحد، لأننا جميعاً متشابهون ونحن نخشى ان نسأل النـــاس لأن جوابهم يوشك أن يكشف عن انحطاطنا . فاذا همس لنا احدهم مثلاً ، من غير عنف ، ليتخلص من قلقه وضيقه

بأسرع ما يمكن : « والثوار ؟ الم يرتكبوا الفظائع ؟ » نفهم فجأة ان الخوف والرفض والصمت قد اسقطتنا مرة ثانية في عصور الثأر البربرية . ان الفرنسيين بكلمة واحدة ، ذوو ضمائر فاسدة – ربما باستثناء السيد موليه ! وهذه الضمائر هي التي تجعلنا مجرمين : ان تمزقات فكرنا ، ولعبة « الاستخباء » التي نلعبها في داخلنا ، وهذه المصابيح التي تخفف نورها ، وهذا الرياء المؤلم .. ينبغي الا نجد فيها كلها طريق خلاصنا ، بل اشارة انحلال عميق . اننا نغرق . وقد بدأت ثائرتنا تثور اذ نرى الآخرين يصدرون حكمهم علينا ، فيغرقنا غضبنا اكثر فأكثر في الاشتراك بالجرم : « لا يحق لأميركا ان تتكلم ! لو كنا نعامل زنوجاً كما يعاملون هم زنوجهم ! .. » هذا صحيح . فانه لا يحق لأميركا ان تتكلم . ولا يحق كذلك للسويد التي لا مستعمرات لها . لا يحق لأحد ان يتكلم : اما نحن فمن واجبنا ان نتكلم . وها نحن اولاء لا نتكلم . ان هناك مخبرين شرفاء ، يقولون ما يعرفون كل يوم او كل اسبوع : فاذا نحن نريد هدمهم او سجنهم ، وهكذا يقل الاستماع اليهم . ولكن ماذا دهى الأصوات الشريفة الكبيرة التي اهتزت كالارغن في تشرين الماضي الثاني ؟ لقد صعّدنا من براءتنا نبرات حنق وغيظ لنشجب – بحق – التدخل السوفياتي في المجر . ولكن لماذا لا تلتزمون يا أصحاب الأصوات الكبيرة ،ان تقولوا لنا كل شيء عن انفسنا ؟ انكم تعرفون، انتم . وليس لكم حق عذر الجهل . انتم تعرفون الوثائق والشهادات . ان الأمر يتعلق بنا اليوم ، ونحن بحاجة الى ان نعرف ، وان نصدق . اننا نحن الذين تستطيعون ان تخلصونا من كوابيسنا وتنقذونا من العار. ولكنكم تصمتون، وانه لحساب خاطىء الا يُحكم علينا من صمتكم اليوم، بل من صخبكم في تشرين الماضي .

لماذا ؟ لأن الفم يغلق الآن ، ولأننا سنحشر في شرك حقير ، وفي موقف سبق لنا ان شجبناه نحن انفسنا ، لسوء حظنا . انها براءة مزيفة ، وهرب ، ورياء ، وعزلة وصمت ومشاركة في الجرم مرفوضة ومقبولة ، وهذا ما دعوناه عام ١٩٤٨ بالمسؤولية الجماعية. ما كان ينبغي للشعب الالماني ، في تلك الفترة، ان يجهل وجود المعسكرات . لقد كنا نقول : « كفى هذرا . لقد كانوا يعرفون

كل شيء ، واليوم فقط نستطيع ان ندرك ذلــك . فاننا نحن أيضاً نعرف كل شيء. ان معظم الالمان لم يكونوا قد رأوا « داشو » ولا «بوشانوالد» ، ولكنهم كانوا يعرفون أشخاصاً عرفوا آخرين قـد رأوا الاسلاك الشائكة او راجعوا بطاقات سرية في احدى الوزارات . وقد كانوا يظنون مثلنا ان هـذه الانباء لم تكن موثوقة ، فكانوا يصمتون ، وكان يحذر بعضهم بعضاً . افنجرؤ بعـد على الحكم عليهم ؟ او نجرؤ على تبرئة انفسنا ؟ كم يجب علينا أن نبسط من الفرش في ساحة « الكونكورد » لننسي العالم ان اطفالاً يعذبون باسمنا واننا نحن نصمت ؟

انه لم يفت الأوان بعد لاحباط عمل ملتزمي الهدم القومي ، وما زال ممكناً تحطيم الدائرة الجهنمية لهذه المسؤولية اللامسؤولة ، هذه البراءة المجرمة ، هـذا الجهل الذي هو معرفـة : فلننظر الى الحقيقة ، فهي ستتيح لكل منا اما أن نشجب علناً الجرائم المقترفة واما ان نتبناها ونحن واعون. من اجل هذا وجدت ضرورياً ان أدل الجمهور على كتاب المجنّدين العائدين. فهنا الحقيقة، وهنا الهول، هولنا : فنحن لن نستطيع ان نراه من غير ان ننتزعه من انفسنا ونسحقه [1] .

---

١ – « التان مودرن » العدد ١٣٥ ، ايار ١٩٥٧ .

# «نحن جميعاً قتلة!»

في تشرين الثاني عام ١٩٥٦ ، وضع فرنان ايفوتون، عضو « محاربي التحرير» ، قنبلة في مركز كهرباء حمّا » . انها محاولة للتخريب لا نستطيع بأية حجـة ان نشبهها بعمل إرهابي : وقد أثبتت تقرير الخبراء أنها كانت قنبلة زمنية مضبوطة ضبطاً دقيقاً بحيث لا يمكن ان تنفجر قبل ذهاب العمال والموظفين . ولكن ذلك لم يؤثـر أي تأثير : فقد قُبض على ايفوتون ، وحُكم بالاعـدام ، ورُفض العفو عنه ، ثم نُفذ فيه الحكم . وليس ثمة أدنى شك : لقد صرح هذا الرجل وأثبت انه لم يكن يريد موت أحد ، ولكننا نحن أردنا موته ، وحصلنا عليه بلا تردد. كان لا بدّ من بث الخوف ، أليس كذلك ؟ ومن « اظهار الوجه المريـع لفرنسا الغاضبة » على حدّ قول أحد البُلهاء . وكم ينبغي ان يكون طاهراً وواثقاً من طهارته لكي يُطلق حكم العدالة الملائكي هـذا ! وحين نسلّم لهم ، ذات لحظة ، بأن لهذه الحرب اللامعقولة معنىً ، ألا نرى مـا لا بد للعسكريين والمدنيين الفرنسيين أن يطلبوه من أنفسهم ، اذا كانوا يأملون أن يبرروا صرامة هـذا الحكم الفظيعة ؟

وبعد ذلك بقليل تأتي محاكمة « الضالعين » ، وجاكلين وعبد القادر غروج . اما هو فكان مسؤولاً « سياسياً » . كان يؤمّن الاتصالات بـين محاربي التحرير وقيادة جبهة التحرير الوطني . وأما هي ، فبورجوازية صغيرة من « المتروبول » أرادت ان تأخذ نصيبها من الأخطار لأنها كانت تقرّ عمل زوجها . وقد دخلت

« الحركة » بعده بزمن ، وكلفها رؤساؤها المباشرون ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، ان تسلم ايفوتون آلات التخريب المزمع عليه . وقد أطاعت لأنهم أكدوا لها ان الانفجار لن يكلف اية حياة بشرية .

ولم يكن الحكم ، بالنسبة للذين يعرفون منطق المحاكم العسكرية ، مشكوكاً فيه : فما دام ايفوتون قد أُعدم ، وما دام غرّوج وزوجته ضالعين معه ، فلا بد من إعدامهما ايضاً أو الارتداد على الحكم . ومنذ ذلك الحين ، تأكدت هذه التقديرات : فإن مفوض الحكومة قد طالب برأسي الشريكين ، بصورة لا مبالية تقريباً . وقد حصل على ما طلب . أيقال إن ضلوع غرّوج في قضية إيفوتون لم يكن ثابتاً ؟ وبعد ذلك ؟ إن عدالتنا ، في مدينة الجزائر ، تؤثر أن تدهش الناس بقسوة أحكامها على أن تدهشهم بقيمة الحجج التي تدعم هذه الأحكام .

أتراهم سيدفعون المنطق الى حدّ تنفيذ الإعدام بغرّوج وزوجته ، وحدّ رفض العفو الرئاسي ؟ لو كان من المسموح به ان اوجّه الكلام الى أكبر موظف في الجمهورية الرابعة ، لجعلته يلاحظ ، بكل احترام ، أننا لسنا بعدُ في أيام ١٩٥٦ الجميلة . فمنذ محاكمة غرّوج ، وقع حادث ، صحيح أنه حادث زهيد ، ولكنه لا بد ان يخلّف أثراً على طريقتنا في إصدار احكام العدالة ، ولا سيما العدالة العسكرية : انه حادث قصف قرية « ساقية » ! لقد أُلقيت قنابل على ساقية ؛ كما وضعت القنبلة في مركز كهرباء حمّا . والفرق أنها لم تكن قنابل زمنية . ولم يرتكب المسؤولون حماقة أن يحدّوا العملية باتلاف بسيط العتاد . ففي « ساقية » أيضاً ، اختيرت ساعة العملية اختياراً دقيقاً : وهي ساعة تدفق الناس على السوق . صحيح أن ايفوتون لم يكن له من هدف آخر غير إغراق المدينة في النور . أما هدف طائراتنا ، فكان إغراق قرية في الموت . ولو كنا قد أردنا ان نحافظ على صرامة ملاكنا ، فعله كان من الواجب ان نبحث عن المجرمين ، وأن نحاكمهم — من يدري ؟ ولكن لا : إن السيد غايار قد « غطّى » ! بأي وشاح سميك او بأي ضباب لا يُخرق تُراه قد أمّل ان

« يغطّي » دمـــار « ساقية » ، لست أدري . ولكن العملية لم تنجح : كان الناس جميعاً يرون الحجارة وهي ترسل دخانهـــا تحت الشمس . على ان السيد غايار ، هو نحن ، فرنسا : فإنه حين قام ، من أعلى منصّته ، بحركة « المغطّي » الجليلة ، وَضعَنا جميعاً في المغطس ؛ وقـــد بدأ أصدقاؤنا الأجانب – كما يروق لصحافتهم أن تشرح لنا كل يوم – يتساءلون بكل جد عما إذا كنا لم نصبح كلاباً مسعورة . وهـــذا هو السؤال الذي يمكن بكل تواضع ان يطرح على الموظف الأول لجمهوريتنا العظيمة : هـــل من المناسب تماماً تنفيذ حكم الاعدام بغرّوج وزوجته ؟ أليس من صالحنا ان نتراخى قليلاً من قسوتنا الرائعة ؟ أيكون بـلدٌ تأخذ حكومته على عاتقها بكل اعتزاز ما كان السيد مورياك يسمّيه ، في ذلك المقال ، مجزرةَ فقراء – أيكون هـذا البلد مؤهّلاً حقاً لأن يطبّق ممثلوه باسمه حكم الموت على رجل لم يكن له من دور إلا أن يؤمّن الاتصالات السياسية بـين فرقٍ ذات أصل شيوعي وجبهة التحرير الوطنية ، وعلى امرأة شاركت في عمل تخريب ولكنها اتخذت جميع الاحتياطات الضرورية لكي لا تحدث العملية قتلى أو جرحى ؟ يجب ان نردّد كل يوم للبلهاء الذين يتمنون إرعاب العـالم باطلاعه على « وجه فرنسا المريع » أن فرنسا لا تخلّف لدى الناس شعور الرهبـــة . إن أحداً لن يرى في تنفيذ حكم الاعدام بغرّوج وزوجته ، إذا تم يومـــاً ، لن يرى ولن يعجب بصرامتنا الملائكية ، وانمـــا سيفكر الناس بكل بساطة اننا ارتكبنا جريمة أخرى [1] .

١ – التان مودرن ، العدد ١٤٥ ، آذار ١٩٥٨ .

# نصر...

في عام ١٩٤٣ في شارع « لوريستن » ، كان فرنسيون يصرخون من القلق والالم . وكانت فرنسا كلها تسمعهم آنذاك ، ولم يكن مصير الحرب اكيداً ، ولم نكن نود ان نفكر في المستقبل ، ومع ذلك فـان شيئاً واحداً كان يبدو لنا مستحيلاً : ان يكون باستطاعتنا ان نجعل رجالاً يصرخون يوماً ما بسببنا .

والمستحيل ليس كلمة فرنسية : ففي عـام ١٩٥٨ ، يُعمد في الجزائر الى التعذيب المستمر المنتظم . والكل يعلم ذلك ، من السيد لاكوست الى مزارعي لافيرون ، ولا احد يتكلم عن ذلـك ، او ان اصواتاً تتلاشى في السكون . لم تكن فرنسا تحت الاحتلال ابكم منها الآن ، بالرغم من انها كان لهـا العذر في ان تحمل السلاح .

ولقد حُكم علينا في الخارج : باننا لم نكفّ عن الانحدار. وقد بدأ ذلك منذ سنة ٢٩ ، في رأي البعض ، وفي رأي الآخرين منذ سنة ٩١٨ . وانـه لقول مرتجل : فانا لا أؤمن بهـذه السهولة في انهيار شعب . انني أؤمن بفشله وخبله . وفي أثناء الحرب عندما كانت الاذاعة الانكليزية او الصحافـة السرية تتحدث عن « اورادور » كنا ننظر الى الجنود الالمـان الذين كانوا يتنزهون في الشوارع نظرة بريئة وكنا نقول أحياناً : انهم مع ذلك رجال يشبهوننا ، فكيف يكون باستطاعتهم ان يفعلوا ما فعلوا ؟ وكنا فخورين بأنفسنا لأننا لم نكن نفهم .

واليوم نعلم انـه ليس هناك شيء للفهم : لقد تم كل شيء بغفلة واستسلامات غير ملحوظة ، وعندما رفعنا رؤوسنا ، رأينا في المرآة وجهاً غريباً ، بغيضاً :

وجهنا .

ان الفرنسيين يكتشفون ، في غمرة دهشتهم ، هذه الحقيقة الهائلة : اذا لم يكن هناك ما يحمي أمة ضد نفسها ، لا ماضيها ، ولا اماناتها ، ولا قوانينها الخاصة ، واذا كانت خمس عشرة سنة كافية لتحويل الضحايا الى جلادين، فذلك لأن الظرف هو وحده الذي يقرر : فحسب الظروف يستطيع أي كان وفي أي وقت ، ان يصبح ضحية أو جلاداً .

سعداء هم اولئك الذين ماتوا من غير ان يضطروا أبداً الى التساؤل « أتراني أتكلم، اذا هم نزعوا لي اظافري ؟ » واكثر سعادة منهم اولئك الذين لم يُجبروا، وهم لم يكادوا يفارقون الطفولة ، على ان يتساءلوا هذا السؤال الآخر : « ماذا تراني افعل، اذا عمد اصدقائي او اخوتي في السلاح، او رؤسائي الى انتزاع اظافر عدو امام عيني ؟ »

هؤلاء الشباب الذين يوضعون في موقف حرج ، ماذا يعرفون عن انفسهم ؟ القرارات التي يتخذونها هنا ، يحدسون انها ستبدو لهم مجردة وفارغة عندما يحين الوقت ، وان وضعاً غير منتظر سيطرح قضيتهم كلهم من جديد ، وان عليهم ان يقرروا هناك ، وحدهم ، مصير فرنسا ومصيرهم . وها هم يذهبون ، وآخرون يعودون وقد عرفوا عجزهم فبقي اغلبهم يحتفظون بصمت حقود . ويولد الخوف : من الآخرين ، والخوف من النفس ، فيجتاح جميع الاوساط ، ولا تعود الضحية والجلاد سوى صورة واحدة : انها صورتنا . وفي الحالات القصوى ، فان الطريقة الوحيدة لرفض احد هذين الدورين هي ان نطالب بالآخر .

ان هذا الاختيار لا يُفرض — او لم يفرض حتى الآن — على فرنسيي فرنسا، ولكن عدم التحديد هذا يثقل علينا : وبسببه نحن «الجرح والسكين» . فالهلع في ان نكون السكين ، والخوف من ان نصبح الجرح : كلاهما يتبادلان التأثير والقوة . وتستيقظ ذكريات : فمنذ خمسة عشر عاماً ، كان اشجع المقاومين يخشون الألم أقل مما كانوا يخشون استسلامهم للألم وكانوا يقولون: حين تسكت

الضحية ، فانها تنقذ كل شيء ، وحين تتكلم فليس لأحد الحق في ان يحكم عليها، حتى الذين لم يتكلموا . ولكن الضحية تتزوج جلادها ، انهـا امرأته ، وهكذا يغرق هذان الزوجان في ليل الحقارة . ولقد عاد ليل الحقارة ، انـه يعود الى « البيار » كل ليلة . وانه في فرنسا سواد قلوبنا . وبالفعل فـان دعاية مهموسة تتيح لنا ان نسمع ان « جميع الناس يتكلمون » . هذه هي ألوان التعذيب التي يبررها الجهل الانساني . مـا دام كل واحد منا خائناً بالقوة ، فالجلاد الكامن في كل منا يخطىء في ان ينزعج، لا سيما وان عظمة فرنسا تفرض ذلك.. واصوات متناهية في النعومة تفسر لنا ذلك كل يوم: ان المواطن الصالح ينبغي ان يكون ذا ضمير صالح ، اما صاحب الضمير السيء ، فلا بد ان يكون انهزامياً .

وحالاً ما ينقلب الذهول الى يأس. فاذا كان على الوطنية ان ترمينا في حضن الحقارة ، اذا لم يكن هناك أي حاجز في اي مكان لا يمنع في أية لحظة الأمم ولا الانسانية كلها من ان تنصبّ في اللاانساني ، فلماذا نحن اذن نكلف انفسنا هذا الجهـــد كله لنصبح او لنظل بشراً ؟ ان اللاانساني هو حقيقتنا . ولكن اذا لم يكن أي شيء آخر صحيحاً ، اذا كان لا بـد من الارهاب او ان نموت من الارهاب ، فلماذا نجدّ في ان نعيش وفي ان نبقى وطنيين ؟

لقد وضعوا هذه الافكار في رؤوسنا بالقوة والقسر ، وانها لأفكار غامضة وخاطئة . انها تنبثق كلها من هـذا المبدأ نفسه : الانسان هو لا انساني . وان هدفهم في ذلك ، هو اقناعنا بعجزنا . وان هذه الأفكار تبلغ هدفها مـا دمنا لا ننظر اليها مواجهة . والحق انه يجب ان يُعرف في الخارج : ان سكوتنا لا يعني قبولنا . انه يأتي من الكوابيس التي يخلقونها ويغذونها ويوجهونها. ولقد كنت اعرف ذلك من قبل ولكنني كنت انتظر منذ زمن بعيد دليلاً قاطعاً .

منذ خمسة عشر يومـــاً تقريباً ، ظهر كتاب في « منشورات دومينوي » بعنوان « الاستجواب » ومؤلفه هو « هنري اليغ » الذي ما يزال اليوم معتقلاً في سجن في الجزائر . وهو يروي ، من غير تعليقات لا جدوى منهـا ، وبدقة مدهشة ، « الاستنطاقات » التي تعرض لهـا . ولقد « اعتنى » الجلادون بـه كما

وعدوه بذلك هم أنفسهم : فأخضعوه لعذاب الماء كما كان ذلك في ايام «البرنفيليه» Brinivilliers . ولكن يضاف اليه المتقنات التكنيكية التي فرضهـــا عصرنا ، وعذاب النار والعطش الخ.. انه كتاب لا ننصح النفوس الحساسة بقراءته . والواقع ان الطبعة الأولى — وهي عشرون الفـاً قد نفدت . وبالرغم من طبعة ثانية تمت على عجل ، فقد عجز الناشر عن تلبية الطلب : فـان بعض المكتبات تبيع من الخمسين الى مئة نسخة يومياً .

وقد كان الذين يجرؤون على ان يدلوا بشهاداتهم حتى الآن هم الذين عاشوا مع اخوتهم واخوتنا : الجـلادين . ولم يكونوا يعرفون من الضحايا غالبـــاً سوى صراخاتهم وجراحاتهم وآلامهم . وكانوا يصفون لنا ساديين منحنين فوق مزق من اللحم . وما الذي كان يميزنا عن هؤلاء الساديين ؟ لا شيء ما دمنا نسكت : وكان غضبنا يبدو لنا صادقاً . ولكن هل كنا نحتفظ به لو كنا قد عشنا هناك؟ اما كان يخلي مكانه للقرف العالمي وللاستسلام كئيب ؟

وقد كنت من جهتي اقرأ لأن الواجب يحتم علي ذلك ، وكنت انشر احياناً، وكنت احتقر هذه القصص التي كانت تضعنا في قفص الاتهام من غير شفقة والتي لم تكن تترك مجالاً للأمل .

اما مع هذا الكتاب « الاستجواب » ، فان كل شيء يتبدل : ان « اليـغ » يوفر علينا اليأس والخجل لأنه ضحية ولأنه قد قهر العذاب . وهذا الارتداد لا يتم من غير روح فكاهية حزينة . لقد عذبوه باسمنا ، واننـا لنسترد بسببه بعضاً من فخرنا : اننا فخورون بان يكون فرنسياً . ان القراء يتجسدون فيه بشغف، ويرافقونه حتى نهاية الالم ، ويصمدون واياه ، وحيدين وعراة . اتراهم جديرين، اترانا جديرين بذلك حقاً وحقيقة ؟ تلك هي مسألة أخرى ، المهم الذي يعتـد به ، هو ان التضحية تحررنا اذ تجعلنا نكتشف ، كما تكتشف هي نفسهـا ، اننا نستطيع ويجب ان نتحمل كل شيء .

اننا ننبهر ونسحر على هوة اللاانساني . ولكن يكفي رجلٌ قاس وعنيـد ومصرّ على ان يقوم بمهنته كانسان لينقذنا من الدوار . ان « الاستجواب » ليس

لا انسانياً . انه بكل بساطة جريمة دنيئة وحمقـــاء يرتكبها بشر ، ضد بشر آخرين . وباستطاعة سواهم ومن واجبهم ان يقضوا عليهـــا . ان اللاانساني لا يوجد في أي مكان ، الا في الكوابيس التي يولدها الخوف . والحق ان شجاعة ضحية هادئة وتواضعها ، وصفاءها ، توقظنا لنكشف عن حقيقتنا. ان « البيغ » ينتشل التعذيب من الليـل الذي يطمسه . فلنقترب لننظر اليه في وضح النهار .

مـــا هؤلاء الجلادون أولاً ؟ اهم ساديون ؟ ام هم ملائكة غاضبون ؟ ام هم اسياد حرب ذوو اهواء مرعبـة ؟ ان كان علينا ان نصدقهم ، فانهم خليط من هذا كله . ولكن الواقع ان « البيغ » لا يصدقهم . ان مـا ينتج من الاحاديث التي ينقلها انهم يودون ان يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الضحية بسيادتهم المطلقة : فهم احياناً بشر اعلون يمسكون اناساً تحت رحمتهم ، وهم احياناً أخرى رجال قساة اقوياء وكل اليهم امر ترويض أوقح البهائم واشدها وحشية ، واكسلها ، البهيمة الانسانية . ومن المفهوم انهم لا ينظرون اليها عـــن كثب : فالمهم ان يشعروا السجين بانه ليس من جنسهم : ولذلك يعرونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهزأون منه . ويمر جنود بالقرب منه ذهاباً وإياباً يقذفونه بشتائم وتهديدات بلا مبالاة تريد أن تكون هائلة .

ولكن البيغ ، المرتجف من البرد ، المربوط الى خشبة ما تزال سوداء لزجـة – بسبب قيء قديم ، يعيد هـذه الحيل كلها الى حقيقتها التي تدعو الى الشفقة : إنها تمثيليات يلعبهـا حمقى : فمسرحية ً هي قسوة أحاديثهم الفاشلية وقسمهم بأن « يقضوا على الجمهورية »، ومسرحية هو أيضاً مسعى « ضابط الجنرال م . . » هذا المسعى الذي ينتهي بهذه الكلمات : « لم يبق لكم إلا ان تنتحروا » . إنهـا مهازل سمجة ، جامدة يعـــاد تمثيلها كل ليلة من دون اقتناع أمام كل سجين ثم توقف بسرعـــة بسبب ضيق الوقت : ذلك ان هؤلاء العمال المرعبين مثقلون بالأعمال، وهم مرهقون لأن السجناء يقفون مصطفين بالقرب من خشبة التعذيب، ولا بـد من ربطهم وحلهم ومرافقة الضحايا من غرفة تعذيب الى أخرى . وان من ينظر بعين « البيغ » الى هـــذه الخلية القذرة ، يدرك ان الجلادين مرهقون

بالعمل كل الارهاق . وقد يحدث بالطبع ان يتظاهروا بالهدوء وأن يشربوا البيرة ، وقد تراخوا فوق جسد معذب، ثم يقفون فجأة على أقدامهم ويركضون في كل اتجاه فيشتمون ويزأرون من الغضب . انهم عصبيون من طراز رفيع يُخضعون ضحايا كثيرة ويعتقدون أنهم سيعترفون من « الرفسة الأولى » !

أما ان يكونوا خبثاء مجانين من الغضب ، فهذا أكيد ، ولكنهم ليسوا ساديين . إنهم مستعجلون جداً ؛ وهذا ما ينقذهم حقاً . إن كلاً منهم يتماسك على قدميه من جراء السرعة المكتسبة ، فعليه أن يعدوا باستمرار أو ينهار .

غير أنهم يحبون العمل المتقن . انهم عند اللزوم يدفعون بالضمير المهني الى درجة ارتكاب القتل . وهذا ما يثير في قصة « اليغ » . إن وراء هؤلاء المشرحين الشرسين او المضحكين صلابة تتجاوزهم وتتجاوز رؤوساءهم أنفسهم.

ولقد كان من الممكن ان يكون حظنا كبيراً لو كانت هذه الجرائم عمل قبضة من الحانقين ، ولكن الحقيقة هي ان التعذيب يُنتج الجلادين . وبعد هذا كله ، فإن هؤلاء الجنود لم يكونوا قد انخرطوا في فرقة من النخبة ليعذبوا العدو المهزوم . ويصف لنا اليغ في بضعة خطوط اولئك الذين عرفهم ، وهذا يكفي لتسجيل مراحل التغير :

هناك الجلادون الأصغر سناً ، العاجزون الذين يتمتعون باضطراب « هذا فظيع » عندما يضيء مصباحهم الكهربائي معذباً ما . ثم هناك مساعدو الجلادين الذين لم يشتركوا بعد بالعمل ، وهم يمسكون بالمساجين وينقلونهم ، فبعضهم قد قسا ، وبعضهم ينتظر . ولكن جميعاً قد أُخذوا في الدوامة ، وليس لهم عذر قط. وهناك ذلك الاشقر من المنطقة الشمالية « ذو الوجه الودود الذي يستطيع ان يتحدث عن جلسات التعذيب التي أخضع لها « اليغ » كما لو كان يتحدث عن مباراة يذكرها ويهنأ بها من غير مشقة : كما يفعل بالنسبة لبطل من راكبي الدراجات ... » ولقد رآه « اليغ » بعد أيام يقتل على السلم أحد المسلمين ، ووجهه ينبض بالحقد والكراهية .. وهناك الذين يتسلون برؤية الانتفاضات التي تعرو معذباً بالكهرباء، ولكنهم لا يحتملون ان يسمعوه يصرخ.

وهناك أخيراً المجانين الذين يطوفون ويدورون كورقـة ميتة في دوار فوراتهم وعنفهم .

وليس في هؤلاء جميعاً من هو موجود بذاته ، وليس فيهم من سيبقى كما هو : انهم يمثلون لحظات تبدل لا مفر منــه . فهنــاك فرق واحــد بين افضلهم وبين اسوأهم : فأولئك هم « زرق » وهؤلاء قدامى . وسينتهي الامر بهم جميعاً الى ان يرحلوا ، واذا استمرت الحرب فسيخلفهم آخرون ، شقر من الشمال ، او سمر قصار من الجنوب،يقومون بالمهمة نفسها ويعتادون العنف نفسه والعصبية ذاتها.

وفي هذه القضية ، لا يعتد بالافراد : فان هناك حقداً تافهاً ، مغفلاً ، حقداً جذرياً في الانسان ينقضُ في وقت واحد على الجلادين وعلى الضحايا فينحط بهم معاً ويحط بعضهم بسبب بعض . وليس العذاب إلا هذا الحقد وقــد انــدرج في نظام وخلق لنفسه وسائله الخاصة .

وحين يقال ذلك بحياء في المجلس الوطني ، تنفجر الضجــة : « انكم تهينون الجيش ! » وينبغي ان نسأل مرة اولى وأخيرة هؤلاء الكلاب الصغيرة : « مــا دخل الجيش هنا »؟ ان ما هو مؤكد ان التعذيب يقوم ايضاً « في الجيش » وأن « لجنــة الحماية » لم تخف ذلك في تقرير لهــا هزيل ، وبعد ذلك أهو « الجيش » الذي يعذب ؟

انها حماقة ! أيظنون المدنيين يجهلون الطرق الصالحة ؟ اذا لم تكن القضية إلا هذا ، فلنمنح شرطة الجزائر ثقتنا . ثم اذا كان هناك حاجة الى رئيس جلادين، فلقد سمّاه المجلس الوطني كله: ليس هو الجنرال « س » كما انه ليس الجنرال « أ » ولا الجنرال « م » الذي ذكره اليغ : بل هو السيد لاكوست صاحب السلطات المطلقة.فكل شيء يتم من خلاله وبواسطته ، سواء في «بون» او في« وهران »: ان جميع النــاس الذين ماتوا من الألم والهول في مبنى « البيــار » وفي مقصورة «س» ، انما ماتوا بارادته، ولست انا الذي يقول ذلك : انهم النواب والحكومة. والواقع ان القرح يمتد ، فهو قد جاوز البحر ، بل لقد شاع ان الاستجواب يقوم في بعض السجون المدنية في فرنسا ذاتها . ولا أدري اذا كانت الشائعة حقيقية ،

ولكن لا بد ان انتشارها قد أثار السلطات العامة، بدليل ان النائب العام، في قضية ابن صدوق، قد سأل المتهم جهراً اذا كان قد عُذّب، وقد كان الجواب بالطبع معروفاً مسبقاً.

لا، ليس التعذيب مدنياً أو عسكرياً ولا فرنسياً على وجه التخصيص. انه وباء يكتسح العصر كله. فقد عرف الشرق والغرب جلادين: فلم يمض وقت طويل على تعذيب «فاركاس» للهنغاريين، ولا يخفي البولونيون ان الشرطة عندهم كانت تعمد، قبل بوزنان، الى الاستجواب. اما ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي في حياة ستالين فان تقرير خروتشيف شاهد لا يُردّ على ذلك... واليوم أتى دور قبرص والجزائر. والواقع ان هتلر لم يكن إلا رائداً في هذا كله.

هذا التعذيب الذي يُشجَب – بميوعة أحياناً – ولكنه يطبق بانتظام خلف ستار المشروعية الديمقراطية، يمكن تعريفه بانه مؤسسة نصف سرية. فهل اسبابه واحدة في كل مكان؟ كلا، بلا ريب: ولكنه يعبّر في كل مكان عن الضيق نفسه. والحق انه لا أهمية لذلك، فليس لنا ان نحكم على العصر. ولنكتف بان نكنس امام بابنا، ولنحاول ان نفهم ما الذي وقع لنا، نحن الفرنسيين.

انكم تعرفون ما يقال أحياناً لتبرير الجلادين: من انه لا بد من تعذيب انسان ما يمكن لاعترافاته ان توفر مئات من الارواح. وهذا نفاق واضح. فان «اليغ» لم يكن ارهابياً، وكذلك «اودين». وذلك انه معتقل بتهمة «تعريض أمن الدولة واعادة تشكيل جمعية محلولة».

افمن اجل أرواح بشرية احرقوا له ثدييه وشعر عضوه التناسلي؟ لا: لقد أرادوا ان ينتزعوا منه عنوان الرفيق الذي آواه. ولو قد تكلم، لوضعوا شيوعياً آخر وراء القضبان الحديدية: هذا كل ما في الأمر.

ثم انهم يعتقلون هنا وهناك بالمصادفة، كل مسلم «قابل الاستجواب» طوعا: إلا اذا قدموا شهادة كاذبة او اتهموا انفسهم مجاناً بجريمة ما تخلصاً من العذاب. أما أولئك الذين يستطيعون ان يتكلموا، فمن المعلوم انهم يصمتون، كلهم أو

جلهم ، فلا « اودين » ولا « اليغ » ولا « غروج » قد فتحوا افواههم. ولا شك ان جلادي « البيار » اوسع معرفة منا في هـذا الصدد . وقد قال احدهم بعـد الاستجواب الاول « لااليغ » : « لقـد كسب ليلة على كل حال ليتيح لرفاقـه الوقت الكافي للانسحاب » . وقال ضابط بعـد بضعة أيام : « لقـد استقر في رؤوسهم منذ عشر سنوات ، منـــذ خمس عشرة سنة ، انهم اذا قبض عليهم ، فيجب ألا يقولوا شيئاً : وليس هناك ما يعمل لنزع هذا التصميم من رؤوسهم. »

لعله لم يكن يقصد إلا الشيوعيين : ولكن أتراهم يظنون أن مقاتلاً في جيش التحرير الوطني هو من غير هذه الطينة؟ ان اعمال العنف هذه لا تعود الا بنتائج سيئة ، ولقد اقتنع الالمان انفسهم بذلك عام ١٩٤٤ . انها تكلف أرواحاً بشرية ولا توفر أرواحاً أخرى .

ومع ذلك ، فـان الحجة ليست مخطئة تماماً : وهي على كل حال تلقي لنـا ضوءاً على رسالة التعذيب : ان الاستجواب الذي هو مؤسسة سريـة أو نصف سرية ، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة او المعارضة .

وفي الجزائر انتشر جيشنا في الاراضي كلهـا : فنحن نملك العدد والمـال والاسلحة ، اما الثوار فـلا يملكون شيئاً الا الثقة وتأييد قسم كبير من الشعب لهم. ولقد عرفنا، وبالرغم من الخطوط الرئيسية لهذه الحرب الأهلية، اغتيالات في المـدن ، وكمائن في الريف ، ولم تختر جبهة التحرير الوطنية نشاطاتها ، وانمـا هي تفعل مـا تطيق فعله . وهذا كل ما في الامر ، وان نسبة قواهـا الى قواتنا يجبرهـا على ان تهاجمنا هجمات فجائية ، فعليها ان لا تُرى ولا تُنتظر ولا تُمس اذ تضرب وتختفي خشية ان يُقضى عليها . ومن هنا ينبع ضيقنا : اننا نقارع خصماً سرياً ، فهذه يـد تلقي قنبلة في شارع ، وتلك طلقة بندقية تجرح جندياً من جنودنا في الطريق ، فاذا سارعنا لم نجد احداً . وفيما بعد ، لا بد ان يُعثر على مسلمين لم يروا شيئاً . ان الامور مترابطة ، ان الحرب الشعبية ، حرب الفقراء ضد الاغنياء ، تتميز بالصلة الوثيقة التي تشد بين الوحدات الثائرة وبـين الشعب ، وفي الوقت نفسه يصبح هـذا الفيض مـن البؤساء ، بالنسبة للجيش

النظامي والسلطات المدنية ، العدد اليومي الذي لا يعد ، وتقلق فرق الاحتلال من صمت اخرس انتجته هي نفسها ، وتدرك ان هنـاك ارادة للصمت لا يمكن الامساك بها، سراً دائراً حاضراً في كل مكان، ويشعر الاغنياء بأنهم مطاردون وسط فقراء لا يتكلمون، وتجد « قوى الامن » نفسها مرتبكة بقدرتها بالذات، عاجزة عن مواجهة العمليات الحربية الصغيرة، إلا بالتنظيف والتكنيس وبعثات الانتقام ، وعن مواجهة الارهاب إلا بارهاب . على ان هناك شيئاً خفياً : يجب الاستجواب والاستنطاق في كل مكان .

ان التعذيب غضب لا طائل تحته ولّده الخوف: يراد انتزاع سر الجميع من حلق يصعد الصرخات ويقيء الدم. وانه لعنف لا جدوى منه : فسواء تكلمت الضحية او ماتت تحت الضرب ، فـان السر الذي لا حصر لعدده موجود في مكان آخر، دائماً وأبداً ، بعيد عن المتناول .. وهنا ينقلب الجلاد الى سيزيف: فان عليه اذا طبق الاستجواب ان يبدأ دائماً من جديد .

ولكن حتى هـذا الصمت وهذا الخوف وهذه الاخطار التي لا ترى قط ، وهي حاضرة ابداً ، لا يمكن ان تشرح سبب ضراوة الجلادين وارادتهم في ان يسوقوا ضحاياهم الى الحقارة ومن ثم الى الحقـد البشري اذا استولى عليهم على غير رضاهم .

ان يتقاتل الناس : تلك هي القاعدة : فهم قد تحاربوا ابداً من اجل مصالح جماعية او فردية . اما في التعذيب ، هذه المباراة الغريبة ، فانمـا يقيس الجلاد نفسه بالضحية من اجل صفـة الانسان ، وكل شيء يحدث كما لو انهما لا ينتميان معاً الى الجنس البشري .

ان هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحية على الكلام وعلى الخيانة: بل على الضحية أن تشير الى نفسها بالصراخ والخضوع على انها بهيمة بشرية ، في عيون الجميع وفي عينهـا بالذات . يجب على خيانتها ان تحطمها وتخلّص المجتمع منهـا الى الابد . وان من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام ، وانما هو قد دُمغ الى الابد بصفة كونه : أقل من إنسان .

ولا شك في أن تعميم هذا الشرط صفة من صفات هـذا العصر . ذلك ان الانسان بحـاجة الى أن ُيصنع ، ان إرادته في ان يكون حراً لم تكن في اي وقت أقوى منهـا الآن ولا اعمق وعياً ، وكذلك الاضطهاد لم يكن اعنف ولا أفتك سلاحاً .

والمفارقات في الجزائر غير قابلة للتخفيف : إن كلاً من الفريقين المتصارعين يطالب بطرد الآخر بصورة جذرية . ولقد سلبنا المسلمين كل شيء ثم حرمنا عليهم كل شيء ، حق استعمال لغتهم الخاصة . وقـد أوضح « ميمي » كيف ان الاستعمار يتحقق بإلغاء المستعمَرين . انهم لا يملكون بعد شيئاً ، وليسوا هم بعد أحداً . لقد صفينا حضارتهم فيما منعنا عنهم حضارتنا . كانوا قد طلبوا الانضمام فقلنا لهم لا ونحن نتساءل: بأية معجزة ترانا نستبقي الاستغلال الاستعماري اذا كان المستعمَرون يتمتعون بالحقوق نفسها التي يتمتع بها المستعمِرون ؟ إن النظام المتبع كان يدفعهم ، وهم البؤساء الجهلة المحتاجون للغذاء ، الى تخوم الصحراء ، والى آخر حدود الانسان ، دفعاً لا شفقة فيه ، وقد كان مستوى حيـاتهم ، بسبب ازدياد المواليد، ينحدر من سنة الى سنة. وحين دفعهم اليأس الى الثورة، قلنـا ان عليهم ، هؤلاء اللابشر ، ان يموتوا أو أن يؤكدوا إنسانيتهم ضـدنا : فاذا هم يطرحون قيَمنا وثقافتنا وتفوقنا المزعوم ، واستوى عندهم ان يطالبوا بصفة الانسان وان يرفضوا الجنسية الفرنسية .

ولم يقتصر هذا التمرد على تحدي سلطة المستعمِرين، وانما هم قد شعروا بأنهم مهددون بوجودهم ذاته . إن هناك حقيقتين متكاملتين وغـير منفصلتين في نظر معظم الاوروبيين القاطنين في الجزائر : إن المستعمرين هم ذوو حق إلهي ، والسكان الاصليون هم دون البشر . وتلك هي ترجمة اسطورية لواقع حقيقي، ما دام غنى الأولين يرتكز على بؤس الآخرين . وهكذا يجعل الاستغلال المستغَل تبعاً للمستغِل . ثم ان هذه التبعية، على صعيد آخر، هي في صميم النزعة العنصرية ، وذلك هو تناقضها العميق وشرها المرير : ان الاوروبي الجزائري يرى أن كونه انساناً يعني قبل كل شيء أنه متفوق على المسلم .

فإذا حدث أن وكد المسلم نفسه كإنسان يساوي المستعمِر، فماذا تراه يكون الموقف ؟ إن المستعمِر يشعر أنه قد مُس في كيانه ، وانه قد انتقص من قدره وهبطت قيمته ، وهو لا يرى في دخول هؤلاء الى العالم البشري نتائج اقتصادية فحسب ، بل ان هذا الحادث يزري به لأنه يعلن له سقوطه الشخصي . وقد يتفق له ، وهو في غضبه ، أن يحلم بالاجتثاث ، ولكن ذلك لا يعدو ان يكون حلماً شعرياً محضاً . إنه يعلم ذلك ، وهو يعرف تبعية الآخر له ، فما عساه يفعل من غير عمال من السكان الأصليين ، من غير ايد عاملة رخيصة ، من غير بطالة مستديمة تتيح له أن يفرض الرواتب التي يشاء ؟ وبعد ذلك إذا كان المسلمون حقاً من البشر، فقد ضاع كل شيء ، ولم يبق ثمة حاجة حق الى اجتثاثهم. كلا ، بل إن ما يتطلب السرعة ، إذا كان الأوان لم يفت بعد ، هو أن يذلوا ، وأن تنتزع العزة من قلوبهم وأن يدفعوا الى صفوف البهيمة . سيترك للأجساد ان تعيش، ولكن لا بد من قتل النفوس. وتستولي عليهم حينئذ كلمات : الترويض والتقويم والعقاب : فليس في الجزائر مكان كاف لجنسين بشريين اثنين ، ولا بد من الاختيار بينهما .

وأنا لا أدعي بالطبع أن الأوروبيين في الجزائر هم الذين اخترعوا التعذيب حق ولا انهم حثوا السلطات المدنية والعسكرية على تطبيقه ، بل على العكس : لقد فرض التعذيب نفسه تلقائياً ، وقد أصبح « روتيناً » قبل ان يلاحظ الناس ذلك . غير أن الحقد البشري الذي يتمثل فيه إنما يعبر عن العنصرية ، لأنه إنما يراد تهديم الانسان نفسه بكل صفاته الانسانية ، الشجاعة والإرادة والذكاء والأمانة — الصفات نفسها التي يطالب بها المستعمر. ولكن إذا استخف الغضب بالأوروبي الى درجة أن يحتقر صورته نفسها ، فذلك لأن عربياً قد عكس هذه الصورة .

وهكذا يبدو من هذا الزوج الذي لا ينفصل ، المستعمِر والمستعمَر ، الجلاد والضحية ، أن الثاني ليس إلا تبعاً للأول . مما لا ريب فيه ان الجلادين ليسوا مستعمرين، ولا المستعمرون جلادين . فإن هؤلاء هم على الغالب شبان يأتون من

فرنسا وقد عاشوا عشرين عاماً من حياتهم من غير أن يهتموا بالمسألة الجزائرية. ولكن الحقد كان هناك حقلاً للقوى المغنطيسية، فجذبهم واخترقهم واستعبدهم.

إن هذا كله إنما يوحي به مـــا في قضية « اليغ » من بصيرة هادئة واعية. فإذا لم يكن يحمل شيئاً آخر، فينبغي أن نحفظ له عرفاناً عميقـــاً بالجميل. غير أنه قد أتى بأكثر من ذلك، فهو حين أخاف جلاديه، إنما نصر إنسانية الضحايا والمستعمرين ضد العنف المجنون الذي ينطوي عليـــه بعض العسكريين، وضد عنصرية المستعمرين. وأرجو ألا تعني كلمة « ضحايا » هـــذه نوعاً لا أفهمه من الانسانية الباكية: ان « اليغ » وسط هؤلاء القواد الصغار الفخورين بشبابهم وبقوتهم وبعددهم هـــو الوحيد الصامد، الوحيد القوي حقاً. وبوسعنا نحن أن نقول انه دفع أغلى ثمن من أجل حـــق بسيط، من أجل أن يظل إنساناً بين البشر. ولكنه لم يفكر بذلك. ولهذا نهتز بالغ الاهتزاز لهذه العبارة التي وردت في نهاية فصل من فصول كتابه:

« واحسستني فجأة فخوراً وفرحاً بانني لم استسلم، وكنت على يقين من انني سأقاوم مرة اخرى اذا عاودوا الكرة، وسأجالد حتى النهاية، وانني لن اسهل لهم مهمتهم بان اعمد الى الانتحار ».

اجل انه انسان صلب جلود، انتهى بـــه الامر الى بث الخـــوف في نفوس ملائكة الغضب.

اننا نشعر في بعض أقوالهم على الأقل انهم يحاولون ان يقلبوا الدنيـــا رأساً على عقب حين تنتصر الضحية، ويعلنون زوال السيادة وحقـــوق « السيد »، وسرعان مـــا تجمد الاجنحة الملائكية ويتساءل كل منهم: « اتراني استطيع الصمود اذا عذبوني؟ » ذلك ان نظاماً من القيم قد حلّ محـــل النظام الاول، في ساعة الانتصار، ولا حاجة الى اكثر من دقائق ليصاب الجلادون انفسهم بالدوار، ولكن الحقيقة ان رؤوسهم فارغة، وان العمل يتجاوزهم، ثم انهم لا يكادون يصدقون ما يرتكبون من اعمال.

وبعد، فما جدوى إقلاق ضمير الجلادين؟ إذا فكر احدهم بان يقول شيئاً،

اسرع الآخرون الى الرد عليه بقولهم : اذا فقدنا انساناً ، فاننا نجد عشرة بدلاً منه .

ان شهادة « اليغ » تبدد اوهامنا : لا ، انه لا يكفي ان نعاقب بعض الأفراد او نعيد تربيتهم ، وان نستطيع أنسنة حرب الجزائر ، فقد قام فيها التعذيب تلقائياً ، وأدت اليه الظروف وعمّقته النعرات العنصرية .. واذا كنا نود ان نضع حداً لهذه الأعمال الوحشية القذرة الكئيبة ، وأن ننقذ فرنسا من العار وننقذ الجزائريين من الجحيم ، فليس امامنا الا وسيلة واحدة : ان نفتح المفاوضات ونعقد السلام[1] .

---

١ — جريدة « الاكسبريس » العدد ٣٥٠ ، ٦ آذار ١٩٥٨ .

# المُطالب بالإمارة

في البدء ، جرى كل شيء كما ينبغي ، بل أحسن مما ينبغي . كما هي العادة دائماً . إن فرنسا اللاعسكرية والشوفينية ، تحبّ استعراضات ١٤ تموز، ولكنها منذ عهد الجنرال بولانجيه[١] ، كفّت عن ان تحبّ الجنود المشاغبين . وقد حدث ذلك الصراخ في سوق مدينة الجزائر ، وكان الراديو يُطلقه دفعات، وقام الهجوم على قصر الحاكم ، وكانوا يصيحون « ليعش ماسو ! » في الشوارع ؛ وفي باريس ، قام الاتحاد . وعزمت المراكز النقابية ان تصمد بصورة مشتركة . وتدفّأ قلب السيد فليملان: فارتمى رئيس مجلس الوزراء في احتفالات التكليف بالضيف المعروف لدى المتخرّج الديكتاتور الذي يحاول القيام بانقلاب . وقد وجد الجرأة على مهاجمة أصوات الشيوعيين : ولكن ذلك كان بدافع تبرئة الضمير . وبالاختصار ، أمسية جميلة، ونسيم لطيف ، وهذا المزيج اللذيذ من الأمل والقلق الذي يوجد في جميع البداءات . على انه كان ثمة شَرَك : اننا لم نكن قد رأينا كل شيء .

إن الرجل الشَرَفيّ العظيم ، خَطِرٌ على الأمة ؛ حتى ولو احتبس في قرية متوحّدة . فهو إن صمت ، سمع الناس ماضيه . وقد كان الجنرال ديغول يحتفظ منذ وقت طويل بالصمت، ولكن ماضيه كان باقياً بيننا. ووحدنا اتجاه«ماسو»

---

١ — ولد في رين ( ١٨٣٧ — ١٨٩١ )وكان وزيراً للحربية عام ١٨٨٦ ، وقد حاول القيام بانقلاب وحين هدد بالاعتقال فر الى بروكسل حيث انتحر ( هـ. م ) .

و « سالان » . كنـّا نستطيع ان نصمد . ولكنّ وزراءنا أُخذوا من طرَف : ففيما كانوا يتشاورون مع الجنرالية ، رأوا فجأة شبحاً لا ينتهي يمتدّ عند اقدامهم . وكان « سالان » على الشاطىء الآخر ، قد بدأ يصرخ : « ليعش ديغول » وكان جميع سكان مدينة الجزائر يصرخون : « ديغول الى الحكم » .

وفسد الزمن دفعةً واحدة : واكتشفنا من جديد منطق الكوارث الذي لا هوادة فيه ؛ إن العدو يفيد ، في هذه الحالات ، من كل شيء ، مهما فعلنا. ولكي تُنقذ الحكومة نفسها ، كانت تهيء ضياعها : فلكي تفلت مـن ديغول ، كانت ترتمي في ذراعي سالان . وكان معظم الوزراء مقتنعين بأنه ينبغي ايقاف مذابح الجزائر في أقرب فرصة ؛ وكانوا يريدون التصريح بذلـك ؛ وكان بعضهم قـد صرّح به ، للمرة الاولى. ولكن اذا كان فليملان يود ان يكون له حظ في البقاء ، فلا بد من هزم ديغول بالمزايدة . فاذا به يقترح سبعة وعشرين شهراً من الخدمة العسكرية ، وثمانين مليار فرنك ضرائب جديدة ، وملاطفات حلوة للجنرالية المشاغبين . ولكن عبثاً : فان رجال مدينة الجزائر – مدنيين وعسكريين – لم يكونوا راغبين فيه . ولا بماله : كانوا يريدون ديغول .

ومحافظةً على البقاء ، اصبح فريق الوزراء « حتى نهائياً » ؛ وكان قلب السيد فليملان يبكي في جميع مكبرات الصوت : « خطأ فاجع ؛ سوء تفاهم مأسوي ! » ولكن نزعته الحربية المبتهلة سرعان ما فقدت ميزتها بصمت خلـَفِه . وكانت الحكومـة تضيّع نفسها لتجلب بسمةً الى شفتي سالان : سنبدأ باحراز النصر النهائي ، وإبادة العدو ؛ وبعد ذلـك نعمد الى التفاوض . ولم يكن سالان ليقرر موقفه ، فـيما كان رئيس الوزارة يحرض مدينة الجزائر على الثقة ، وكان اليسار الفرنسي يتساءل في دهشة عما كان يميزه عن « بيدو » ، وبأية خدعة كان قـد منحه ، بكل أصواته ، السلطات المطلقة التي كان قد بدأ يُصرح بأنه سيستطيع ان يرتد بها عليه .

في اللحظات الشفقية – الكثيرة في تاريخنا – التي تسبق الانقلابات ، كان شيء ما يستلفت دائماً نظر المراقبين : الخلط بين العواطف والافكار. اننا نتصور

من بعيد أن ثمة بعض الفرقاء المتصارعين ، انصار الدكتاتور القادم ، والمدافعين عن القديم ، وانهم يتنازعون حتى يصفي هؤلاء اولئك . ومن قرب ، ليس ثمة ما هو أكثر تخييباً من ذلك : ان الجميع مترددون ، والجميع خائفون ، المشاغبون والحكومة على السواء ، الجميع هم ضد ومع الجميع في وقت واحد . إن لنا أعداء ألدّاء الى حدّ بعيد حتى اننا نؤثر العبودية او الموت على محالفتهم حتى ولو ضد عدو أكثر لدّة ولكن أكثر جدّة . والانقلابات تسهل كثيراً حين يفضل كل فرد ان يستسلم باختياره للعدو على ان يفقد شيئاً يضعه فوق كل شيء ، وعلى ان يُنتجَ منه شيئاً آخر يحتقره بصورة خاصّة . وينتهي الأمر بكل فرد الى ان يشل نفسه ويشلّ سواه ، ويقوم أقل من أصيب بالشلل بالانقلاب اتفاقاً ، وهو يرتجف .

وعندنا ، فهمت منذ اليوم الثالث أن الاشتراكيين كانوا يحتقرون شيئاً في العالم أكثر من العبودية والموت وإذلال البلاد ؛ هو « الجبهة الشعبية » . فقد قرّرت « القوة العمالية » و « الاتحاد الفرنسي للعمال المسيحيين » و « الاتحاد العام للعمل » ان تصمد معاً ، وسرعان ما انطلقت صيحة في مجلس النواب : « لقد عاد ، وها هو ! » وجرّ « شبح الجبهة الشعبية » سلاسله ذلك اليوم في جميع أعمدة جريدة «لوموند» المذعورة. وفي اليوم التالي نشر «الاتحاد الفرنسي» للعمال المسيحيين » و « القوة العمالية » تحذيراً مشتركاً : إن العمال بمحافظتهم على برودة أعصابهم ، وهدوئهم ، وباستنكافهم عن المظاهرات السابقة لأوانها ينقذون « الجمهورية » . وصاح كل مركز نقابي باستثناء «الاتحاد العام للعمل» وكل حزب سياسي باستثناء الحزب الشيوعي : « الأفضل ان ينهار الحكم ! » ولم يكن ثمة اثر « للجبهة الشعبية » . كانت القضية قضية بضعة اتفاقات ، وبعض التدابير المشتركة المتخذة لغاية دفاعية محض . وكان ذلك كافياً لكي يدفع السيد غي موليه السيد فليملان وأن ينتزع منه الكلام ويبتهل الى الجنرال ديغول ، عن طريق وسيط ، ان يتنازل ويقدّم بعض ألوان التهدئة للرأي العام .

وكانت هذه العملية تناسب الجميع : وكان الجنرال ، عشية الأمس ، قد

أصدر تصريحاً صلباً بعض الشيء ، فلم يرق للناس إلا قليلاً . ولم يكن شارل ديغول قد أشار أية اشارة الى القوانين الجمهورية ؛ ولو تفضّل وقال كلمة قصيرة من مثل : « انني لن أمسّ هذه القوانين » أو « لن اريد بهـا شراً » لهتفت له فرنسا كما فعلت عام ١٩٤٥ ، ولوجد السيد موليه ، بالمقابل ، طريقة لحمل السيد فليملان على الاستقالة : فربما كان الجنرال ديغول يحفظ بعض الحقائب للاشتراكيين في وزارة الاتحاد الوطني . وبعد ذلك بقليل ، اكتشف السيد فليملان في ذهول مغتاظ أن الشيوعيين قد سمحوا لأنفسهم بأن يصوّتوا في صالحه ، وانتزع اصواتهم وقذف بها في وسط الدائرة . وفي حركة بلاغة سخيّة، مضى الى حدّ أن رفض منحهم حق الدفاع عن الحريات الفردية : فـانهم لم يكونوا جديرين بهـا . وكان من أثر هذه المزايدة على مهاجمة الشيوعية في « الحزبين الجمهوريين الكبيرين » ان يرد كل فرد الى العجز والى الوحدة . وقد اثبت غضب المعلم « ايزروني » أن اليمين « البيتاني » بالرغم من المصالحة التي جُرّبت في السابق ، لن يغفر ابداً لديغول انه أدان بيتان . اما في اليسار ، فقد كانت بعض النفوس الطيبة تستمد لوناً من الراحة من هذه الحجّة المشرقة : هل يستطيع « منقذ الجمهورية » ان يهدمها بيديه ؟ ( مع ان الجواب سهل : ولِمَ لا ؟ ) .

وأما في صفوف الشيوعيين، فقد كان بعض المناضلين، تحت صرامة موقفهم، يُشعِرون أن لديهم بعض الارتباك : كانوا يلمحون المصالحة الوطنية الكبرى ، ولا يخفون عن انفسهم انهم سيدفعون هم ثمنها . ولكنهم لم يكونوا ينسون رحلة شارل ديغول الى موسكو ولا الميثاق الفرنسي — السوفياتي . وكان ثمة كذلك هذا الشعار : فرنسا ! فرنسا وحدها ! وربما كان هذا يعني : اننا سننسحب من حلف الاطلنطي .

وللأسباب نفسها ، ولكن معكوسة ، كانت البورجوازية الكاثوليكية الضخمة ، وهي العماد المالي لحزب « الحركة الجمهورية الشعبية » ، تظهر غيظها من « منقذ الجمهورية » : انها لم تكن تشك بأنه قد أعـاد بعض النظام ؛ ولا

شك في أن ضربة مكنسة لا تسيء ابــداً ؛ ولكنها كانت على استعداد لتبيع الجزائر ، والامبراطورية كلهـا ، من اجل الاحتفاظ بالصداقــة الانكلو — سكسونية .

ولكن ما الذي كان قد قرّره ، فعلاً ، بشأن الجزائر ؟ الإبقاء عليهـا ؟ التخلي عنها ؟ كان هذا يتوقف : على الايام وعلى الزوار . وقــد ظل الالتباس باقياً بعد تصريحه : على ان البعض قد نبّهوا الى انــه ، بالرغم من عدم تلفّظه بعبارة الجزائر الفرنسية ، فقـد اهتم اكثر من مرة بالاشارة الى « الشعوب المتحالفة » . وقد حددت هذه الملاحظات ازمةً من الماسوشية في اليسار : فما دامت وزارة فليملان تصادر حرياتنا لكي تدفع سياسة اشاعة السلام الى حــد موت آخر منــاضل جزائري ، أليس من الافضل ان تُسلَّم هــذه الحريات الضائعة الى ديغول وان يستخدمها لصنع السلام ؟ ذلك أنــه الرجل الوحيد في فرنسا الذي يستطيع ان يردّ العسكريين الى الصواب ، وان يفرض ارادته على أوروبي الجزائر. وقد كان هؤلاء الشهداء المقبلون يرضون ان يدفعوا ثمن السلام الجزائري تصفية مؤسساتنا الديموقراطية . انهم سيبتهجون في السجن باستقلال المسلمين .

وهكذا كان كل فرد يبدو وهو يلاحق — عبر مئــة لون من النشاطات المختلفة، في اللجان المناهضة للفاشية ، وحتى في المنظمات السياسية — حلماً بطيئاً ومتناقضاً ، كما لو انه ، وقد يئس من « الجمهورية » ، لم يكن يسعه ان يمتنع عن وضع آماله المعلّقة بين يدي الجنرال ديغول . وقد كان الناس ، في الشوارع ، يصمتون : كانت المقاهي غاصّة ، ولم تكد واردات المسارح تنخفض .

حتى لكأن المرء كان يستطيع ان يظن انهم لم يكونوا يكترثون إلا بحياتهم الخاصة ؛ ولم يسبق لي قط ان رأيت مثل هذا العدد من العشاق .

« ثم ماذا ؟ هل يجب الهبوط الى الشارع للدفاع عن غي موليه ؟ غي موليه مدينة الجزائر ؟ غي موليه السويس ؟ أيجب ان يواجه المرء ، اكراماً له ، امر انقسام الجزائر ؟ والحرب الاهلية ؟ من منكم يعرّض رأسه للضرب من أجل

ماكس لوجون « صديق المتطرفين ؟ » .

إن هذه الكلمات تجد صدى لها في القلوب ؛ ويهز النـاس رؤوسهم : لو كان ثمة رجل عادل واحد في المجلس الوطني .. ولكن لا : إن هذا ممكن . الا ينبغي ان يُترَكوا لقدرهم ، هؤلاء المساكين ؟ أو َ يُلجأ الى ديغول ؟ الواقع ان الجنرال ديغول قد جعل الناس يهزأون بميوله في مؤتمره الصحفي . نجـاح رخيص : ولكنني أتحدّى السيد موليه ان يعامله بالمثل . ليس من الضروري ان يتحدّث المرء مطوّلاً الى الناخب ليحرز ما يجترّه من ألوان الغضب : غضب فوضوي ، غضب الاشتراكي المخدوع . إن عوامل اقوى من ذلك ثمة مرّة ، ولكنهـا من الطراز نفسه ، واحقاداً واشمئزازات قد شلّت في الماضي مقاومة العمّال لحادث ٢ كانون الأول .

كان ديغول ينتظر . وكان هـذا الجبل من الصمت يستمدّ قوته من ضروب ضعفنا ، وكان المكان الهندسي لجميع ألوان عجزنا ، ولكل تناقضاتنا : صحيح انه كان ثمة مزيد من مراكز الإطلاق ، ولكن كان ثمة كذلك مزيد من قوة « الجبهة الشعبية » ؛ وكان ثمة مزيـد من الحرب في الجزائر ، ولكن النظام المعنوي ازداد دعماً وثباتاً . وحين أُعلن في الراديو انه سيعقد مؤتمراً صحفياً يوم الاثنين ، بدا أنّ كل شيء قد انتهى . سوف يكون لطيفاً ، خفيفاً ، مواليـاً ، وسيكسب الناس . وصباح الاثنين ، وحوالي الظهر ، كان النـاس يراهنون على أن « الجمهورية » ستخسر .

وبعد المؤتمر الصحفي ، ظلّت « الجمهورية » واقفةً على قدميها ؛ وبـدت قوانينها أصلب مما كنّا نظنّ . وبقيت الاخطار : لعلّ الجمهورية لن تستطيع الصمود في وجه العنف ولكنه شيء عظيم أنها لم تخضع للرقّة .

كان السيناريو قد رُتب ، وقد شاهدناه : سيُمنح الرأي العام بعض أقراص التهدئة ، فيُجبِر في حماسته السيد فليملان على الاستقالة . ولكن ما حدث هو العكس ، وهذا ما أثار دهشة الجميع : لقد قطّب أصدقـاء الجنرال وجوههم ؛ والوجوه الوحيدة التي اشرقت هي وجوه خصومه العازمين . ومع ذلك ، فانه

كان قد أدلى بتصريحات مطمئنة جداً ، ولم يكن ثمة مجال للشك في صدقها: انه لم يكن يريد أن يقبل ان يكون متعصباً ، وكذلك ديكتاتوراً ؛ وهو سيتلقّى سلطاته من رئيس الجمهورية ، وكذلك تكليفه من المجلس الوطني – ولو كان الاجراء الذي ينبغي ان يتّبع استثنائياً .

ولكن ما كان يفكر به الجنرال ديغول وما كان يقوله قد كفّ عن ان تكون له أهمية الا في نظره ونظر المقرّبين اليه . فانه حين كان يؤكدّ في نيّة طيّبة انه لن يستصوب ، وقد بلغ السابعة والسبعين ، ان يمارس الديكتاتورية ، فانه لم يكن باقياً له الا اختيار احد امرين : إما ان يتخلّى عن الحكم ( او لا يكون مدعوّاً لأخذه ) وإمّا ان يصبح دكتاتوراً . ذلك لأن الموقف هو الذي يقرّر ، لا أعمالنا الخاصة ، بل المعنى الذي نأخذه بالرغم منا، في عيون الآخرين وفي عيوننا بالذات .

يجب ان نتحدث اولاً عن هذا الوهم الأعرج : التحكيم . وتفادياً لطرح السؤال الاساسي ( « على أي شيء ستقوم سلطة الجنرال ديغول ؟ » ) كان السيد سوستيل قد اخترع هذه الكياسة القانونية : إن ثمة نزاعاً بين فرنسيي الجزائر ( مدنيين وعسكريين ) وبين الحكومة . المطلوب من شارل ديغول ان يتفضّل فيكون حكماً في النزاع .

ولكن ما كادت تُذكر هذه الحجّة الغريبة التي ردّدها الجنرال في مؤتمره الصحفي ، حتى كان وقعها في الآذان مزعجاً . فهل سبق ان رؤيت حكومة ، مهما كانت ضعيفة ، وهي تقبل ان تحلّ بالتحكيم نزاعاً سبّبه تمرُّد موظّفها ؟ لقد اراد ديغول أن يوضّح ان الجنرالين سالان وماسو لم يكونا مشاغبين طامعين؛ والحكومة لا تعتبرهما كذلك . وهذا صحيح شكلياً : ولكن الحكومة ليست واثقة من نفسها، ومن الممكن ان تتمهّل وتبطىء. والأمر سواء ، على كل حال : إن هذين الجنرالين مشاغبان او انهما ليسا كذلك .

فاذا كانت الحالة الأولى ، فان الحكومة تتخذ عقوبات حتى ولو كان ضعفها الموقت يقسرها على ألا تطبّقها ؛ واقتراح التحكيم هو اعطاء مكافأة للتمرّد .

أما اذا كانت الحالة الثانية ، فان الجنرالين لم يكفا عن إطاعة رؤسائهما ( حتى ولو كانت حالة الطوارىء قد أجبرتهما على اتخاذ هذا التدبير او ذاك من غير أن يراجعاهم ) وليس ثمة ما هو موضوع تحكيم . وهكذا نرى انّ هذا العرض الذي لا يُصدّق ، يصبح مجرّد أن يُهمَس به ، إهانة لسلطة الدولة السيّدة ، ويسقط في اللامشروعية .

ومع ذلك ، فثمة محاولة لتوضيحه : وسرعان ما ينفجر . إن النزاع ينصب « الجزائر الفرنسية » ضد الحكومة . فماذا يصنع الحَكَمَ ؟ انه يريد أن يأكل أحد المرافعين ويحتلّ محلّه . والحق ان الجنرال ديغول انما يضطلع بمهمة السيد فليملان وبسلطاته من أجل أن « يكون حكماً » . ولكن حين يصبح السيد فليملان شارل ديغول ، فكيف يبقى التحكيم ممكناً ؟ إن الحَكَمَ هو اولاً قاض وخصم ؛ ثم انه ليس ثمة مجال للتحكيم ما دام ليس ثمة نزاع بين رئيس فرنسا الحرة وجيش الجزائر ؛ وهذه التفسيرات المرتبكة تفجّر الفضيحة التي تريد ان تقنّعها . وحين يصرح الجنرال ديغول انه مستعدّ للاضطلاع بسلطات الجمهورية ، فانه يكون قد تلقّى التكليف القضائي ، وهو التكليف الوحيد الذي له وزن لديه . إن الضباط والمدنيين الاوروبيين قد عيّنوه ليمارس باسم المستعمِرين دكتاتورية غير مشروطة على المحليّين المتروبوليين . وهذا لم يقرّه الجنرال ديغول بكل تأكيد : وبالفعل ، فإن كرامته ووطنيته وعزّته تأبى عليه ان يضحّي بفرنسا من أجل مستعمراتها : انه انما يريد «الوحدة» . ولصالح الطرفين . ولكن ماذا يهمّ ما يريده . وماذا يهمّ ما يريده ضبّاط ما وراء البحر؟ ليس ثمة اي شكّ في الاّ يكونوا مخلصين له كل الاخلاص؛ وربما لم يشعروا الا بشعور دعوته الى مساعدتهم ، والى مساعدة فرنسا كما يراها . ولكن النتيجة واضحة : لقد فرضوا او حاولوا ان يفرضوا من اختاروه على ارادة المجلس الوطني . فيجب عليه ان يقبله او ان يرفضه تحت تهديد حرب أهلية . إنه سيبقى هنا بلا انقطاع ، حتى ولو أبعد ظاهرياً أو مؤقتاً ، شأنه في ذلك شأن الامبراطور الذي عينته الجيوش الرومانية .

وهو يستطيع ان يظهر من جديد عند أدنى أزمة ، غداً ، أو بعد ثمانية أيام ، أو بعد عام . انه مرشّح دائم ( الا ّ ان ياتي انقلاب فيجعل منه الامبراطور الممارس) من جرّاء هذا الشانتاج الذي لا يُحتمل . إن لعبة القوانين الديمقراطية مزوّرة تزويراً جذرياً . واذا لم يأخذ ديغول الحكم ، فسيظل مزوراً بحضور هذا « المطالب بالإمارة » الى ان يتخلّى رسمياً عن الحق المزيف الذي منحته إياه القوة .

وما يهم أن تكون الأشكال الدستورية بعد ذلك مرعيةً أو غير مرعية . فإذا لم يَدْعُ رئيسُ الجمهورية المطالب بالإمارة ، واذا نوى هذا أن يستعمل القوة، فان العنف سيبدو عارياً . اذا استدعى السيد كوتي، شارل ديغول، فإن هذا استسلام آخر . وثمة تصريح للجنرال بعيد المغزى في هذا الصدد : « إن على « الجيش » أن « يطيع » الدولة . ولكن لا بد من أن توجد الدولة . » وليس ثمة ما هو افضل : إن الجيش لا يستطيع أن « يعصاك » يا سيد فليملان ، لأنك لست الدولة ، بل أنا الدولة : من أجل هذا سيطيعني . ولكن مـا دام السيد جنرالاً ، فإن الجيش لا يطيع إلا نفسه ، والبلاد تطيع الجيش . وصحيح جداً أنها ضعيفة ، دولتنا . ولكن على من تقـع التبعة إن لم تقع على جنرالية الجزائر وعلى المدنيين الذين يدعمونهم ؟ وإن لم تقـع على الوزراء الذين أضعفوا جميعهم الدولة بتنازلات تزداد إثمـاً وخطورة ؟ إن « تغطية » حادث « ساقية » ، يا سيد غايار ، لم تكن فحسب الاضطلاع في جذل بتبعة جريمة ، بل كذلك وضع خلَفِك تحت رحمة تمرّد عسكري .

وإذا كان شارل ديغول يملكها ، هذه السلطات الاستثنائية ، فما تراه فاعلاً بها ؟ مـا هي مشروعاته ؟ بأيّ اتجاه يحوّل حكَمَه بصفته حكَماً ؟ إن هذه الأسئلة ستظلّ بلا جواب ما ظلّ بعيداً عن الحكم ، أي ربمـا الى الأبد . ذلك أن ديغول يُنهي صورته لنفسه كما بدأها : بالصمت . وليس سبب ذلك أنه لا يملك مشروعاً له . ولكنه لن يُطلع الناس عليه : ذلك أنـــه – وهنا يكمن الخطر الأخطر – لا يريد أن يُحكم عليه من برنامج يتبعه بل من شخصه . لا من

أجل ما يفعله اليوم ، وإنما من أجل ما فعله أمس الأول حين كان يمثّل « فرنسا الحرة » بالقرب من « الحلفاء » .

وإذا طلب منا موافقتنا ، فليس « برغم » جهلنا لمخططاته ، بل « بسببها » . وليست القضية ان نطلب منه — بكل الاحترام المرغوب فيه — ما ينوي أن يفعل ، بل أن نقرّ سلفاً كل ما سيعمله ، على ضوء ما عمل . وتلك السنوات الخمس التي صنع فيها « تاريخنا » — برفقة كثير من الرجال الآخرين — ستضمن كل أعماله المقبلة ، أياً كانت . أو بالأحرى إن حركاته البطولية والمختفية ، مهما كان الظرف غداً ، علينا أن نعتقد انها هي التي ستولد من جديد ، وقد انسجمت بصورة خفية مع متطلبات الموقف .. إن العودة الخالدة لحركته الماضية هي التي ينبغي أن ننتظرها : وجميع أعماله المرحومة تصبح ، وهي تكتسح الحاضر فخأة ، مقدّسة . وهذه الصلة التي تشدّنا إليه ولا بد — إخلاص ، أمانة ، شرف ، احترام ديني — تحمل اسماً : إنه الايمان المحلّف الذي يربط الشخص الى الشخص ، أو إذا كنا نفضل ، إنها صلة خضوع صاحب الإخاذة للسيد .

وأنا لا أدّعي ان هذه الصلة خالية من القيمة البشرية : ولكن بسبب أن الصلاة محمّلة بالموت والماضي ، ومرهقة بصفة التقديس ، فإنها على طرفيْ نقيض مع الصلة الديموقراطية المحض التي تتلخّص بالحكم على البشر من أعمالهم ، لا الحكم على الأعمال من البشر ، وبالتواصل عَبْر المشاريع المشتركة ، وبمقاسمة التبعات ، وبتقييم عملٍ نسبةً الى هدفه ونتيجته . وهذا ما أحسّ به الصحفيون الذين حضروا المؤتمر ، وفيما بعد ، مستمعو الإذاعة : إن وحدة هذا الرجل الحابس نفسه في عظمته تحول بينه ، في كل الأحوال ، وبين أن يصبح رئيس دولة جمهورية . أو تحول بين الدولة التي سيصبح رئيسها وبين أن تبقى جمهورية . وجميع أولئك الذين أحسّوا أنفسهم منجذبين الى حدّ كبير أو صغير ، في هذه الايام ، الى دوار الكارثة ، والذين شعروا بمتعة حرّيفة أن يروا فرنسا كأنها القَدَر ، والذين كانوا يحلمون بديموقراطية ديغولية ، جنائزية بعض الشيء ولكنها حيّة ، قد أدركوا دفعةً واحدة ما يُعرض عليهم ، والشيء الوحيد الذي يمكن

أن يُعرض عليهم، هذه العظيمة الكئيبة المتوحدة . وليس من قبيل الاتفاق أن تنسى القوى الجمهورية خلافاتها وتتجمّع منذ مساء الاثنين من أجل نضال أجدى، وليس اتفاقاً ان تحسّ الحكومة نفسها أشدّ صلابة بين ساعة وساعة، وأن تكون اضرابات المترو والاوتوبيس والتلفون ناجحة نجاحاً غير مشكوك فيه . صحيح أن فرنسا بحاجة الى دولة قوية ؛ ويجب إعادة سلطة الحكومة التي هدمتها اثنتا عشرة سنة من التخلّيات والتسويات ، ولكن أفضل طريقة لإنجاز هدمها هي تسليمها لـ « رجل قوي » واحد يفرض على الجميع قوانينه : إن علينا أن نعيد بناء « هذه » الدولة المخرّبة ، و « هذه » الجمهورية المحتَقَرة ، مع الرجال أنفسهم ، مع جميع الرجال الذين هم مسؤولون عن إفلاسها النصفي ؛ ونحن لن نردّ لها قوتها المرتبطة بالمؤسسات إلا إذا أعدنا في الوقت نفسه ، وفي وجه جميع أحلام العظمة الميتة ، بناء حقوق المواطنين وحرياتهم الحقيقية[1] .

---

١ — جريدة « الاكسبرس » العدد ٣٦٢ ، ٢٢ ايار ١٩٥٨ .

# دستور الاحتقار

قالوا لنا اننا سننتخب : وهم يكذبون علينا . فلننتزع نسيج الكلمات الكبيرة التي تغطي جريمة : إن يوم ٢٨ أيلول لن يكون يوم انتخاب ، بل يوم عنف . والعنف ، انما نحن الذين نتلقاه .

من الذي اقترح اولاً هذا الاستفتاء ؟ لا أحد. إنه يُفرض على الأمة السيدة. وهو سينقضّ علينا كاللص. ولا نأملنّ ان ننسحب منه بالصمت: إن الاستنكاف يعني التصويت الأعمى للأكثرية ، أياً كانت .

إنني أفهم أنّ المرء ، في فرنسا على الأقل، لا يملك حقّ النظر الى ورقتنا الانتخابية . وبعد ذلك ؟ إن هناك ألواناً أخرى من الضغط ، ومن التزوير . وستكون حرية الانتخاب خطرة إن لم تكن محميّة إلا بالغرفة السرّية. فالقوانين هي ، في الواقع ، التي تضمن هذه الحرية . والأخلاق . والعودة الدورية للاستشارات الانتخابية تحمي المواطن من اللايقين والعجلة المفرطة . وتعدّد الاحزاب يقسر كلاً منها على شرح برنامجه ، من غير تعب . وباختصار ، فان الناخب يُعطي رأيه في الاشكال المتلقّاة ، وله علاماته ، وعاداته ، والجديد لا يُفقده رُشده ما دام يظهر في إطار التقليد السياسي . أما الاستفتاء ، فهو يتمتع بالسحر المشكوك فيه للارتجالات . وفيه تنقلب علاقة الجديد بالقديم . لقد بدأوا يدوسون على قوانيننا ، فلم يبق منها إلا فتات ؛ ثم اذا هم يعرضون علينا هذا الشيء المبتذل ، ميثاقاً ملكياً .

إن على الناخب ، المضيّع « بالأرض الحرام » التي تفصل الجمهورية المرحومة

عن المملكة القادمة ، ان يقرّر وحده ، وبلا عون . فإما كل شيء او لا شيء . كل شيء : الملك شارل الحادي عشر . لا شيء : العودة الى هذه « الجمهورية الرابعة » التي لا يرغب فيها أحدٌ بعد . فإما ان اقبل جميع مطالب الجنرال ديغول، او أن أسقط في العدم. أليس ثمة من حلّ آخر؟ إن «المطالب بالإمارة» يجيب : « لا أريد أن أعرف ذلك . فإما أن تتبنوا حلي ، وإما ان أذهب . » إنّ دعاية مرائية تضللنا عن قصد بلعبة التشبيهات : ان موظّفي المرحومة الجمهورية الرابعة يثيرون اشمئزازك ، وإذن فانت تكره الديموقراطية ، وإذن فأنت تريد الملكية الديغولية .

سيُقال إن الحكم كان فاسداً ، وأن ضربة سبّابة كانت كافية لإحالته الى رماد ، وأن مهمتنا العاجلة هي أن نبني « دولة » . وانا لا أنكر ذلك . ولكن يُطلب منا ، استغلالاً لحجّة معقولة ، ان نجعل من ضربة قسر وإكراه امراً مشروعاً .

ولا ريب في أن هناك حالات يصبح فيها تحويل القوة الى حق احتياطاً ضرورياً : فالحكومة الثورية التي يحملها الجمهور الى الحكم ، تنحدر الى الطغيان اذا لم تسارع الى سنّ دستور يُصوّت عليه بصورة شرعية . ولكن من الذي يتكلم اليوم عن دستور ؟ ذلك أن الجنرال ديغول ليس أقلّ من مختار الجماهير والجموع . ولكن هل يسمّى حبيبَ الشعب ذلك المرشح الذي يعدل عن القيام بدورته الانتخابية خشية الاضطرابات التي قد تثيرها ؟ لقد قام الدليل على ذلك يوم الرابع من هذا الشهر : انه يستطيع ان يتحدث في الراديو، وفي التلفزيون ، وأمام مجلس ؛ ولكنه لا يستطيع ان يخطب في ساحة عامة . الا اذا لم يكن ثمة قيمة للقتلى والجرحى .

لا : ان حكومته لم تنبع من ثورة، وانما من اغتصاب سلطة. ولن يستطيع صمت صحافة غرقت في العبودية حتى قبل أن يُطلب منها شيء ، ولا طيبة ظاهرية للضباط ولا تعريضات الدبلوماسيين الأجانب ، لن يستطيع شيء من ذلك ان ينسينا أن الجنرال ديغول انما حُمل الى السلطة على يد كولونيلية مدينة

الجزائر .

وهو نفسه لا ينسى ذلك . أتراه يعاني منه ؟ أرجو هذا . انه على أي حال، يستعجل لكي يجازي اللاشرعية . وما دمنا لا نقول نعم ، مهما بلغ من نفوذه ، فانه يحكم بالقوة . بقوة الآخرين – وهذا هو الأسوأ. وبضعف ممثّلينا المنتخبين. وهذا العرش الذي سُرق من متحف « اللوفر » لكي يُجلسوه عليه ، اذا لم نعطه إياه حبّاً ورضى ، فلن يكون شيء قد حدث .

وهذه هي الخدعة : إن السلطة، حتى ولو كانت مغتصبة ، تأخذ دائماً مظهر الشرعية ؛ يكفي ان « تسود » الفوضى ، لا سيما اذا كانت مُهيبة ، لتختلط في أعين الناس بالنظام . وان فرنسيين عديدين ينخدعون في ذلك؛ وأبويّة الدستور الحانية تأتي فتُنجز تضليلهم . فالتصويت بـ « نعم » ، كما يبدو لهم ، هو لم التصويت للنظام المعنوي ، اما الـ « لا » فسوف تغرقنا في الفوضى . ولكن اذا لم يكن ثمة الا هذا ، فان الاستفتاء سيكون تدجيلاً : انهم يَعِدُوننا بالعودة الى الهدوء ، والنظام ، والتقليد ، لكي نعطي أصواتنا لمشاغبي مدينة الجزائر .

ولا تنخدعنّ بهذا : إن جميع الاستفتاءات الشعبية في العالم لا تستطيع الحيلولة دون ان تكون حركة قسر واغتصاب فوضى وأن تظلّ فوضى . إن المرء يُحسّ دائماً عقابيل مرضه القديم : وسيشعر العهد الديغولي الى نهايته وفي جميع مظاهره الاعتباط والعنف اللذين خرج منهما .

لقد قلت اننا سننتخب بلا ضغط أو اكراه – ولكن هذا ليس صحيحاً الا بمقدار النصف . إن هيئة الناخبين كلٌّ لا يتجزّأ ؛ وحين تدركه الغنغرينا ، تمتدُّ في اللحظة نفسها الى جميع الناخبين . ليُنتزعْ صوتٌ واحدٌ ، تكنْ جميع الأصوات مقلسرة . ومنذا الذي يجرؤ على الادّعاء الآن بأن المسلمين في الجزائر سينتخبون بحرية، وانهم سيطالبون باستقلالهم في وجه ٥٠٠٠٠٠ جندي مهمّتهم هي ان يمنعوهم من أخذ ذلك الاستقلال ؟

إن معونة الأصوات المنتزعة من المسلمين تضفي على كل « نعم » تصدر في المتروبول فاعليةً إضافية ، وتنزع من كل « لا » قليلاً من طاقتها . ففي اللحظة

التي تسقط فيها ورقة المعارض في صندوق الاقتراع ، يصبح مواطناً من الدرجة الثانية . إن رفضه ليست له القيمة نفسها التي تتمتع بها موافقة الجار .

وإتماماً لإفساد الأوراق ، مُزج استفتاءان متميّزان . والحق ان شعوب إفريقيا قلّما يهتمّون بعلاقات الهيئة التنفيذية بالهيئة التشريعية في « الدستور » الجديد . إن الناخب الزنجي يريد الاستقلال ، ولكنه يتساءل عما اذا كانت موارد بلاده ونمّوها الاقتصادي تسمح له ان يستغني عن مساعدتنا . هـا هو شغله الشاغل ، واقتراعه يتوّقف على الجواب الذي يجيب به نفسه ...

وهكذا فإن صوتاً يقول « نعم » ويكون معنـاه في مدغشقر الاستقلال الداخلي والسير التدريجي نحو الحرية ،يأتي فيعني في باريس وضع الشعب الفرنسي تحت الوصاية والحدّ من فعالية الأصوات التي تقول « لا » . وهذا العنف المرائي يختار ضحاياه : والديموقراطيون وحدهم يتألمون من ذلك .

إن كسب الأصوات يحدث في المتروبول نفسه . فالالتباس يبلغ حـداً لا يعرف الناخب معه لمن أو ضد من ينتخب ولماذا أو ضد ماذا . وهذا الميثاق هو للنظرة الأولى صورة . صورة الفنّان بريشته ذاتها . وهـذا الأمير – الرئيس الذي يملك ، والذي ليس هو مسؤولاً إلا أمـام الرب ، من يكون ان لم يكن ديغول شخصياً ؟

هل يمكن التصديق لحظة أنه سيكون مختـار الأمة ؟ هل سيستمد سلطاته من الشعب السيّد ؟ على الاطلاق . إنـه الآن متمركز ، وقد اختـار أنصاره لينتخبوه ؛ وهـذا يعني ان الانتخاب ليس إلا احتفالاً . فمـنذا الذي يحمله الى العرش ؟ إنها فرنسا نفسها – بصرف النظر طبعاً عن جميع سكانها . وهـذه الذات الصلبة القاسية ، التي لا يراها أحد ، لا تحتقر ، في الوحدة ، أن تحدّثه في أذنه . وتسألونني الدليل ؟ إن الجنرال ديغول لم يكن يوم الخميس الماضي قـد نال بعدُ نتيجة الاستفتاء . والدسّ والخوف وحدهما كانا قد جعلاه وزيراً ، غير أننا كنا قد استمعنا إليه في خطاب أخّاذ يحرّض الفرنسيين ، **باسم فرنسا** ، على أن يقترعوا على الدستور . وكل شيء يكمن هنـا : إن فرنسا قد أقرّت سلفاً

الاختيار الديغولي ؛ وقد رُسم واجبنا . فإذا رفضناه ، تألمّت فرنسا وأصبحنا أشراراً . وإذا قبلناه ، فإن فرنسا ستبتسم ، وربما دُعينا الى الحفلات الرسمية.

لقد قيل ان « أوليس » وحـــده كان يملك القدرة على توتير قوسه ؛ ومثله الجنرال ديغول الذي يملك وحده في العــالم الكبرياء الضرورية للدخول في دور الرئيس المبعوث من العناية. إنني لا أؤمن بالله، ولكن إن كان عليّ في هذا الاستفتاء ان أختار بينه وبين المطالب بالإمارة الحالي ، فإني أفضّل أن أصوّت لله : فهو أكثر تواضعاً . إنه يطلب كل حبّنا واحترامنا اللامتناهي ، ولكن سبق للكهنة أن قالوا لي إنه كان بالمقابل يحبّنا وأنه كان يحترم الى مـا لا نهاية حرّية أكثرنا بؤساً . أمـــا أميرنا المقبل ، فيطلب أيضاً أن نحترمه ، ولكني أخشى كثيراً ألاّ يحترمنا . وبكلمة واحدة ، إن الله يحتاج البشر ، والجنرال ديغول لا يحتاج الفرنسيين .

بل الأصح انه يحتاجهم. فقد قالها: « انني بحاجة كبيرة الى ثقتكم. » ولكن يكفيه ان نمنحه هذه الثقة مرة ، مرة واحدة ، يوم ٢٨ أيلول . فاذا جرى كل شيء كما يريد ، في ذلك اليوم ، فاننا سنركن الى الرجـل الذي يظهر لنا الحذر الأشد والذي يريد أن يجعلنـا نتبنـّى « دستور » الاحتقـار . إن « المجلس » الوطني الشعبي يقوم الى جانبـه مجلس شيوخ رجعي ، وهــو محروم من ملكه اختيار وزرائه بنفسه ومن صفوفه . ويأبون عليه ، تقريباً ، ان يقاب الحكومة التي تفرض عليه . إنهم يقصّرون مـدة دوراتـه ، ويحتفظون بامكانية حلّه أو تعطيل جلساته بحجج غير واضحة. فهل تدركون أيها الفرنسيون أنهم ينكرون علينا نحن ، نحن جميعاً ، هذه الحقوق كلها ؟ إن « استفتاء » ١٩٥٨ يذكّرني بكلمة لماركس تعود الى مئة عام ؛ كان يقول : « إن التصويت العام لم يظهر عام ١٨٤٨ إلاّ ليحذف نفسه على الفور » .

وهنا تماماً يكمن الالتباس . ذلك ان هذا « الدستور » يبـدو للوهلة الأولى الصورة الداخلية والمضخّمة التي صنعها رجـل لنفسه . ولكن من أمعن النظر فيها ، يلمس أنها نتيجة تسوية بـين القوى التي حملت هــذا الرجل الى الحكم :

اقطاعيي مدينة الجزائر والرأسمال الكبير . وإرضاءً للأولين يُعطى التفوّق والرجحان لفرنسا الفلاّحية في هية الناخبين : فالفلاّح يصوّت بصوت كامل ؛ اما العامل ، فلا – ولكنْ يعوّض عليه بمنحه وسام جوقة الشرف . وإرضاءً للمصارف ، يُختار الوزراء من خارج المجلس الوطني . ولا يمكن للأمر ان يتخذ شكلاً آخر : فان ديغول حين حُمل الى السلطة على أيدي زراعيي مدينة الجزائر ، حشا وزراءه بالمصرفيين . ويأمل رأس المال ، إذ يحرّر الهيئة التنفيذية من اللعبة البرلمانية ، ان يراقب « الدولة » ؛ ولن يكتفي ممثّلوه بعدُ بالضغط على الوزراء ، بل سيكونون هم أنفسهم وزراء . وإذ يختص ممثلو المستعمِرين بالميزات طبقة الفلاحين ، أي الجزء الأكثر رجعية في هيئة الناخبين ، تلك الطبقة التي تشرف منذ اثني عشر عاماً على النفقات ، فانهم يأملون ان يسّهلوا انتخاب مجلس « لا وجود له » ، مجلس يصوّت على الاعتمادات العسكرية المرتفعة من غير ان يتردد .

الرأسماليون الباريسيون ، وملاكو العقارات الجزائريون : انا لا أقول إن هؤلاء يتفاهمون جيداً فيما بينهم ؛ بل على العكس ، يجب اعتبار الجنرال ديغول ميدان قتالهم ، و « الدستور » المكان الهندسي لتناقضاتهم . ولكن يبقى انهم متفقون على نقطة واحدة : كمّ فم الشعب .

أما أولئك الذين لا ينخدعون بأكاذيبهم ، فتُستعمل ضدهم وسائل كبيرة. وقد قلت لكم: إن هذه السلطة وُلدت من العنف ، فهي اذن ستظل باقية بالعنف . لقد انتج لنا « الشانتاج » ديغول والشانتاج هو الذي يحفظه لنا .

انني أقرّ اننا لم نبلغ بعد حدّ أن ننقضّ تحت ضربات البنادق على صناديق الاقتراع . ولكني اقول إن الاستشارة الانتخابية لا تكون حرة حين يكون الناخب تحت الارهاب . فبدون هذه التهديدات ، وبدون طائرات الجزائر هذه العظيمة المستعدّة للتحليق من اجل إلقاء حمولتها من المظليين فوق باريس ، وبدون الرجل « الذي يحمل السكين بين اسنانه » ، سيُستقبل الميثاق بقهقهات كبيرة : فهو من شدة الاختلاط والبلاهـــة والرجعية الساذجة بحيث لن يحمله أحد على

محمل الجدّ . ولئن كانت « الجمهورية الرابعة » قد ماتت ، فلأنها قبل كل شيء قد انقطعت عن الشعب . أيحسبون أن حالهم ستكون أفضل اذا أنكروا الشعب تماماً ؟ إن حفلة ٤ أيلول ، كانت على صورة فرنسا التي يهيئونها لنا : الأمير في وسط الساحة ؛ وحوله جوقة المنتخبين ؛ ثم خلف الحواجز وسلسلة رجال الشرطة ، في البعيد ، هدير الشعب الذي يقول « لا » .

انني أتوجّه الى الذين يثقون برجل حزيران وأسألهم : لِمَ هذا الميثاق ؟ تقولون ان الجنرال ديغول بحاجة الى ثقتكم ؛ انا أفهم ذلك . وانتم تفترضون انه سيقف في وجه الكولونيلية ، وانه لن ينجح في عمليته إذا لم تكن البلاد خلفه . وأستطيع ايضاً ان أفهم ذلك . ولكن اين تراكم تجدون ان تصويتكم وكالة وانتداب لإعادة النظام والسلام الى الجزائر ؟ إن الـ « نعم » التي ستقولونها هي موافقة على كل ما فعله منذ اول حزيران . وإذن ، فأنتم توافقون على وجود السيد سوستيل في الوزارة ؛ ولكن السيد سوستيل يمثل تمثيلاً شبه رسمي « لجان السلامة العامة » . وأنتم تقرّون ترقية الجنرال ماسّو . ولكن الجنرال ماسو هو أحد المسؤولين الرئيسيين عن ١٣ أيار . فلكي تصوّتوا ضد المتطرفين لم تجدوا وسيلة أخرى إلا ان تمزجوا « نَعَمكم » بـ « نَعَمهم » . ذلك انهم سيقولون جميعاً « نعم » ولا تشككّوا في هذا . وبعد ذلك ، سيتعرّف الله على أهله . الله ، ولكن لا الجنرال ديغول . فكيف تراه سيستطيع ان يعرف ان كنتم توافقون أو لا توافقون على الدمج ما دمتم ، أنتم الخصوم ، تقدّمون له الجواب نفسه الذي يقدّمه له الأنصار ؟

إنّ كل شيء مزوّر . ولو أن الجنرال ديغول كان قد تمنى تأييدكم ليُجري إصلاحات ، وعملاً محسوساً ، والنضال ضد بعض العناصر العسكرية والمدنية ، لبدأ بإعلان برنامجه . افترضوا أنه قال : « انني أريد التفاوض مع العصاة » او قال على العكس : « سأخوض الحرب حتى النهاية » فكم سيكون واضحاً ! إن كل انسان يأخذ آنذاك مسؤولياته . ولكنه بدلاً من ذلك ، يدعونا الى التفكير بسلطات الرئيس والمجلس الوطني التي لم تخرج بعدُ من ميدان الخيال . إن فرنسا

تدوّم في حرب بشعة ، والأسعار ترتفع كالسهم ، والصناعة تبحثُ عن أسواق. ثم يُعرض علينا دستور ! وخارج ذلك : لا شيء ، الصمت او كلمات تحتمل المعنيين يسارع مفسّرون الى تفسيرها كلٌّ على طريقته .

لا ، ليس هو تأييدنا ما يطلبه منا الجنرال ، بل طاعتنا ، لا أكثر . ولماذا تراكم ستطيعونه ؟ لقد بلغت فرنسا سنّ الرشد منذ مئة وخمسين عاماً . فما حاجتها الى أب؟حذار من أن نسقط مرة أخرى في سذاجات الطفولة؛والبالغون ميّالون الى ذلك اكثر مما ينبغي .

ستجيبون بأنكم تعرفون هذا كله ، ولكن لا بد من قبول شروط مذلة ، ما دام الجنرال ديغول هو الرجل الوحيد الذي يستطيع قمع تمرّد مدينة الجزائر . هو ، يقمعه ؟ حين يكون هو الذي قد أعطاه القوة ، وهو يحفظ له هذه القوة ؟

إن هذه « الحكومة » ، في فرنسا ، تعرف ان تكون متسلطة مستبدّة : لقد تعلمت أن تجعل الشرطة تحشو بنادقها تجاه الجموع وتصادر صحف المعارضة. اما فيما يخصّ الجزائر ، فعبثاً ما يلتمس المرء ما يميزها عن وزارة « بورغيس — مونوري » .

اذا صوّتم لديغول، فما الذي ستعطونه مما لم يملكه من قبل؟ إنه يتمتع بالقدرة الكلية . وطوال ثلاثة أشهر ، كان يمكنه أن يفعل كل شيء ، ولم يفعل شيئاً . وأنتم بالمقابل تدعمون شجاعة المتطرفين . فاعتمدوا عليهم لتتكاثروا تحت هذا الظل الكبير .

إن كل شيء مزيف . أكاذيب وعنف ، شانتاج ، إرهاب ، التباسات — ان كل شيء في هذا « الاستفتاء » مدبَّر لانتهاك الضمائر وللحطّ من قيمة تصويت المعارضين .

اذا كانت كلمة « نعم » هي التي ستنتصر ، ففكروا بما سوف يتبع . ولكن حتى من غير ان تحسبوا حساب المستقبل ، فمن غير اللائق ان تنتخبوا تحت التهديد . وما دمنا لم نستطع ان نتجنبه ، هذا الاستفتاء المزوّر ، فليس لنا إلا جواب واحد نقدمه : « لا » . ولكن لنحذر السقوط في الشرَك الأخير . لا

نكن « الروح الذي يُنكر دائمـــاً » . لقد تعمّدوا ان يدفعونا ويحشرونا في الرفض المحض : فلنتجمع ولنعط هذا الرفض مغزى . وليكن معنى « لائنـــا » الموجهــة الى الملكية « مجلساً تشريعياً » . سوف نقول للجنرال ديغول والذين يحيطونه : اننا متفقون معكم على نقطة واحدة : إن الجمهورية الرابعة قد ماتت، وفي نيّتنا ألاّ نبعثها ! ولكن لستم انتم المرصودين لإقامة الجمهورية الخامسة . وانما المرصود هو الشعب الفرنسي نفسه ، بكامل سيادته [1] .

---

(١) جريدة « الاكسبريس » العدد ٣٧٨ ، ١١ ايلول ١٩٥٨ .

# الضفادع التي تطلب ملكاً

ستكون كلمات « نعم » كثيرة ، كثيرة جداً ، ولكن علامَ يُقال «نعم»؟ أللدستور ؟ إن الجميع يسخرون منه . ألبرنامج ؟ إنه لا تكاد تهبط ، من الفلك الذي يلامسه رأس الجنرال ، معجزة غير مفهومة . كلا : بل انــه الرجل الذي يُستفق عليه . ان رجل – الإجماع يبرز فجأة في هــذا البلد المقسّم ، والمزروع بالحواجز والسدود والمماحكات، والذي يتنازع فيه الجميع عظمْة يريد كل واحد أن يظفر بها . واذا كان لا بد ان يفوز ، يوم ٢٨ ايلول ، حتى ولو فوزاً صعباً ، فنحن نعلم جميعاً انه لن يعتبر نفسه زعيم الأغلبية فحسب ، بل هو سيدّعي انه يحقق في شخصه تجمُّع جميع الفرنسيين . وهو يحتاط فــلا يقدم شيئاً . وتظلُّ المصالح على الأرض، متفتتة ومتماكسة . ولكن حين يرفع النــــاخب عينيه ، يكتشف فوق الغيوم سراب الوحــــدة الساحر . واذا صوّتنا له ، سيتوحّد اليسار واليمين كأذنه اليمنى وأذنــه اليسرى ؛ وسيتوحّد رأس المال العــالي وعمــال الطريق كقمّة رأس وأخمص قدمــين . ان كثيراً من الفرنسيين يحتقرون قريبهم ، وسوف يحبّونه في ديغول ؛ وسوف يتواصل الجميع في هــذه الذات العظيمة التي يريد عدم انحلالهــا العضوي ان يرمز الى أعلى درجــة من الاندماج الاجتماعي .

ولكن كيف لنا ألاّ نرى ، بعد تلك الديكتاتوريات الكثيرة ، أن هــذا الاتحاد الصوفي سيغطي خلافاتنا من غير ان يزيلها أو يهدئهــا ؟ كيف لا نعرف

ان بلداً يحمّل رجلاً واحداً رغبته الأليمة في الوحدة ، حين تكون تناقضات الساعة قد جعلت هذه الوحدة مستحيلة ؟ سيُقال إن الناخب ناعس . فانظروا فيما حولكم : إن كلمات « نعم » وكلمات « لا » منتشرة في كل مكان : على الجدران ، وفي صحف الريف ، وفي « الاكسبريس » . إن الـ « لا » تقدّم معاذيرها ، وتشرح اختيارها ، إنها هندسة مهووسة . اما الـ « نعم » فهي تنهّدات : انها تستسلم للأحلام الكبيرة ، وللكلمات الكبيرة ، ولهذه الفيضانات من الدموع التي سبقت غالباً اقامة الديكتاتوريات. حماسٌ كئيب : إن الـ «نعم» تنصب في وجه « العقل » أسباب القلب التي تجهلها – ولكن القلب غير قائم فيها .

ينبغي ألاّ ندهش اذا لم يكن امامنا الا ديغوليّو الساعة الأولى ، المخلصون لرفيق الأزمان البطولية ، وللقائد الذي لم يكفّوا عن احترامه . ومن وجهة نظر أخرى ، يبدو طبيعياً ان يكون بعض الناس ، ممن اساءت اليهم الحياة ، في حاجة الا الايمان بالله ، ولا سيما بتجسُّده . فكم ثمّة من نساء متوحّدات مخدوعات قد بسطن كراهيتهنّ على الجنس البشري كلّه : فكل ما هو بشري يثير لديهن الاشمئزاز ، وهن يحببن الكلاب والرجال الأعليْن ( السوبرمان ) .

ولكن سيكون ثمّة شبّان سيصوّتون للأمير القادم : انهم نشيطون ، وسعداء احياناً ، واذكياء ، ويعتبرون أنفسهم جمهوريين عن نية طيّبة . وكثيرون تكنيكيون، يعملون عملاً مشتركاً ، ويعرفون كيف تبرز مشكلة ما ، وكيف تُحل ؛ ولقد اكتشفوا ، في وجه جميع الوان العصمة ، أهميّة المراقبات المتبادلة ، والتعاون ، والمخاصمة : إنهم لا يؤمنون بعد ببابا نويل . وإذن ؟ فما شأنهم بـ « العظيم الأوحد » ؟ لماذا تراهم يرجعون ، حين يتعلق الأمر بالقضايا العامة ، الى هذا الأمير المعصوم ، لا الى منظمات تكنيكية يستطيعون ان يراقبوها ؟ لا بدّ أن « شخص » الجنرال ديغول يعكس بنفسه وبصمت صورة مهزوزة بعض الشيء لسياسة من السياسات . ولا بدّ ، لتفهُّم هذه الصورة ، من ان يكون لدى هؤلاء الجمهوريين فكرةٌ ما عن فرنسا ، وعن

الجمهورية ، وعن العالم ، وعن أنفسهم . واذا كان بامكاننا ، على ذمّة التحقيقات التي لا تُحصى ، والشهادات والمحادثات الخاصة ، ان نرسم الملامح والأفكار لدى هؤلاء الناخبين الشرفاء تماماً والديموقراطيين أصلاً الذين سيصوّتون « نعم » ، يوم الأحد القادم ، فسنرى كما أعتقد أنهم ، هم ايضاً ، ضحايا سراب . ولئن وقع هذا الرسم تحت نظرهم ، فربّما تعرف بعضهم أنفسهم ، وربما أنفتحت عيونهم .

* * *

يجب أن ننطلق من هذه الجمهورية الرابعة البائسة التي تفتّتت اشمئزازاً من نفسها .

وليست جديدة هي المآخذ التي تُوجّه إليها : فقد سبق أن وُجّهت الى « الثالثة » التي ظنّت ، يوم ٦ شباط ١٩٣٤ ، انها ستقضي عليها . وقد كانت تلك المآخذ آنذاك أقل لذعاً وأقل استقطاباً للإجماع : وبالكاد أقل تبريراً . والواقع أن الحكم ، منذ عام ٤٧ ، يدور في الفراغ ، وأن « المجلس الوطني » كان مقطوعاً عن الشعب ، أي عن الناخبين ؛ وأنه كان ثمة « نظام » ، أي أن رجالنا السياسيين كانوا قد أصبحوا أشياء جامدة وانهم كانوا يطيعون قوانين صلبة شبيهة بالقوانين التي تقود مجرى الأشياء . وما كان يستلفت النظر هو أولاً التقلقل الوزاري ؛ فإن تلك الألوان من السقوط المفاجىء ، غير المنتظر أحياناً ، وتلك الأزمات الطويلة ، كانت بالنسبة لكثير من الفرنسيين صورة الفوضى نفسها . ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة إلا وزارة واحدة . ثابتة ولكنها دائرة . وكان فريق المستوزرين – المحدود – يرقص رقصة الدائرة ، وكان كل منهم يمسك جيرانه باليد ، منتظراً أن ينبثق وجهه من الظل بفعل الحركة الدائرية لجهاز الأشعة . ومن الممكن أن يكون السيدان فليملان وشومان ، في نظر بعض الأخصّاء ، متميّزين حقاً ، ولكنهما سياسيان يفلتان من مبدأ الاختلاف والتفرّد . أما الجدد الذين تدعهم الأكثرية نفسها ، فقد كانوا يمثلون سياسة القدامى ، أي انهم كانوا يظلّون في الجمود .

وفي هذه الفترة كلها ، حدث خرق واحـد ، سرعان ما أصلح ، هو وزارة منديس – فرانس . ولما لم يكن هذا الواصل من أعضاء العصبة ، فقـد كان لا بد من اطلاعه على ذلك .

حسناً . إن هذا الوصف قد قام به مئـة آخرون . إن النظام هو العجز في السلطة لا الفوضى – التي يقوم فيها كل فرد بمـا يشاء – بل الشلل – الذي يظل الرأس فيه يفكـّر فيما تمتنع الأطراف عن الحركة . صحيح أن السيد غايار والسيد بيناي كانا يملكان شيئاً شبيهاً بالرأس ، وكان هذا الرأس يقول لهما – ولم يكونا يخفيان ذلك عن الاخصـّاء – إن حرب الجزائر كانت لا معقولة وأنـــه ينبغي التفاوض . ولكن حين تولى السيد غايار نوبـــة الحراسة في رئاسة الوزارة ، لم يراوده الجنون ليفكـّر بأنهم كانوا يمهدون إليه في هـذا المنصب ليعطوه الإذن في أن يعمل ما يعتقد أنه مفيد وعادل ، وان يعلن مـــا كان يعتقده صحيحاً . وقد منح هذا الرئيس القابل للمبادلة صوتـه للنظام ، وأكـّد النظام بلسانه : ليس الحكم هو التنبـّؤ ، وليس هو التحذير ، وليس هو الاختيـار ، بـــل هو الطاعة ؛ اننا سنتابع الحرب حتى النهاية .

وليس من اختصاص مشهد العجز أن ُيفرح القلب . إنـــه يغيظ الأشخاص الذين يعملون ، لأن العمل تأثير وفعل .

وما يثبت بما فيه الكفاية أن نزعة مناهضة البرلمانية هي ذات أصل مهني ، هو أن الناس يأخذون على المنتخَبين كسلهم ، أكثر ممـا يأخذون عليهم عجزهم أو جبنهم ، وذلك الكسل عيب غريب عنهم كل الغرابـة . « إنهم يدفعون لهم حتى لا يفعلوا شيئاً » تلك هي الفكرة .

في حوالي ١٥ حزيران الماضي ، حاذاني بورجوازي صغير بالقرب من مجلس النواب ، وقال لي بلهجة غاضبة :

– ماذا ؟ إنهم لا يزالون في العطلة ؟

فأجبت : – يجب الاعتراف بأنهم ُدفعوا إليها دفعاً .

فلم يعتكر إلا لحظة واحدة ، ثم استعاد غضبه وأضاف :

– دفعوا إليها دفعاً ؟ هـذا أفضل : ولكن ينبغي في هـذه الحالة ألاّ يُدفع لهم .

وجمهوريّونا – أولئك الذين سيحملون أصواتهم الى ديغول – هم عمّال شرفاء يعرفون طعم التكنيكات الدقيقة والأعمـال السليمة، ولا يتعرفون أنفسهم أو – كما سنرى – لا « يعتقدون » أنهم يتعرفون في ممثليهم المنتَخبين .

اننا، حتى هذا الحد، متفقون جميعاً . ولكننا لم نغادر ميدان المظاهر . لأننا نتساءل : ولكن ما هو مصدر هذا العجز ؟ أيكون البشر هم الذين خلقوا النظام، أم ان النظام هو الذي خلق البشر ؟

وما هو النظام بالضبط : انه لا يمكن لنزعة الجمود أن تكون سببه، وإنما نتيجته . والأجوبة على هذه النقطة تظل غير واضحة .

لقد قرأت كتاب « الأمراء الذين يحكموننا »تأليف السيد دوبريه، وأعترف أني قرأته على أمل ان اكزّ على اسناني؛ولكني أصبت بخيبة : إنّ هذه الشورباء الكثيفة لا تُمضغ . ولكن اذا رجعنا في ذلك الى « الدستور » رأينا ان الغلطة الاصلية تعود الى اولوية الهيئة التشريعية .

وهنا نبلغ نقطتنا . لنتصوّر رجلاً ذا أعصاب فولاذية، وقلب قاس رائع، ورأس مليء بالمشاريع الواسعة، وهو لا يريد ان يعمل إلا من أجـل فرنسا، وليس بحاجة، لكي يبلغ بعمله النجاح، الا الى الاستمرار : انه الهيئة التنفيذية. ولنقارن الآن هذا الوجه الكبير بالهيئة التشريعية، هـذه السلّة من السراطين الناغلة، المتدبّقة، التي يتسلّق بعضها على البعض الآخر ويسقط بلا انقطاع . أليس من اللامعقول والعبثي إخضاع الرجل لأهواء السراطين ؟

هنا يجب أن نفضح أكبر أكذوبة ديغولية .فهل ثمة من يجرؤ على الادّعاء بان « المجلس الوطني » هو الذي أحال وزراءنا الى هذه الحيوانات الشرسة المذعورة التي سمعناها غالباً تلقي في الراديو والتلفزيون عبارات التهـاني التي تلقّتها ؟ أم الوزراء الذين أشاعوا الخوف في المجلس الوطني ؟ أهو المجلس الوطني الذى منـع موليه من ان يستنكر اختطاف بن بللا ؟ أهو الذي أجبر السيد غـايار على أن

« يغطّي » قصف قرية ساقية ؟

أنا اقول العكس بأن كل الشرّ قد صدر ، في هـذه السنوات الأخيرة ، عن هيئة تنفيذية اقوى مما ينبغي كانت تفلت من رقابة الهيئة التشريعية . ذلك اننا كنا نملك هيئة تنفيذية . كان هـذا الامير يقصف « هايفونغ » حين كان المجلس الوطني يريد التفاوض مع هوشي – منه ؛ كان يطلب مـالاً – عصب الحرب – وكان يُمنَحه على عجل ، ومن غير مناقشة ، وكان يضاعف في الجزائر عـدد « قوانين المشتبه بهم » وعمليـات الشرطة ، وكان يمشّط ويقسّم ويقصف ؛ وفي فرنسا نفسها ، كان يصادر صحافة المعارضة ، ويلاحق الصحفيين امام المحـاكم العسكرية ؛ وكانت الحياة الوطنية كلهـا تصطدم بأحلامه البطولية الكبيرة ، أحلام الفتح من جديد ، وكان يضحّي لصالح مستعمراتها ، وكان المجلس الوطني العاجز المذعور يتأرجح ويهتزّ على ذَنَب الحروب الاستعمارية ، كما يتأرجح على ذَنَب قطّة .

هذه الهيئة التنفيذية المتسلطة ، غير القابلة للرقابـة ، دَعَتْ نفسها « تييرى دارجانليو » ؛ أما اليوم ، فان لهـا مئة اسم ، ماسّو ، ترانكييه ، لاشروى ، وكولونيلية آخرين . لقـد أصبحت فرنسا ، في ثلاثة عشر عاماً ، هـذا البلد العسكري الذي يقاتل ابناؤه فيما وراء البحار تحت إمرة امرائنـا ، « سادة الحرب » .

لقد انقضت تسعة عشرة سنة ونحن نخوض الحرب : فالنظام لا يستمد أصله من عيوب مزعومة في دستور ١٩٤٦ ، بل منها انبهار أمّـة تفقد دمها ووقتها وثقافتها وثرواتها المحافظة على فتوح قديمة تكلفها ، منذ وقت طويل ، أكثر مما ترد عليها .

التنفيذي ؟ التشريعي ؟ النظام ؟ العهد ؟ إنها كلمات .

فلئن كان ثمة اليوم أزمة سلطات ، فيجب تعمّق اسبابها في أمراض لا يريد أسيادنا الجدد أو لا يستطيعون شفاءها . ومـا اريد أن اقوله ، يعرفه الجميع ، وكثيرون لا يريدون ان يعرفوه . وأنا أردّده برسم هؤلاء الجهلة المزيّفين .

انني لا أدعي أن « التاريخ » عـادل : فربما لم يكن عادلاً بان كنا الوحيدين الذين يتحمّلون الضربة الاولى للجيش الألماني ، ولا بان يحتلنا العدو أربعة أعوام وأن نظل متروكين ونحن نجترّ هزيمتنا ، في حين كان حلفاؤنا يربحون الحرب ، ولا بأن نتحرر على أيديهم ، وان نعلْنَ منتصرين بـــدافع التعاطف وان نُقبَل كقريبٍ مسكين بين « الخمسة الكبار » .

وكنا قد ظننا عـــام ٤٥ اننا نسترد مصيرنا بأيدينا : فقـــد حطم الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والجنرال ديغول ضلوع « المقاومـــة » . وأضنت اضرابات ٤٨ العمال . واكتشفنا آنذاك اننا كنا بلداً قديـاً جداً ، مجتمعاً يقوم على الطبقات من القمة حتى القاعدة بفعل المالتوسية الاقتصادية لما بين الحربين . فأين كان الشعب ؟ لم يكن ثمة من شعب بعد : كان قـــد صُنّف الى فئات ذات مصالح متباينة لا تتبادل فيما بينها الحب . ثم إن الجميع كانوا يعارضون الجميع : المشروعات الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، وتجارة المفرق ، وتجارة نصف الجملة ، والفلاحون وسكان المدن ، كما يحدث حيث تتوقف حركة « التاريخ » وتتحول التناقضات الحية الى منـازعات جامدة . وضاعفت الصناعة الكبيرة ميولهـــا المـــالتوسية ، وتمزقت الطبقة العمالية : كان العمال المحترفون ، ورثة النزعـــة الفوضوية – النقابية القديمة ، يُلجمون ما وسعهم ذلك تعصير الآلات لأنهم كانوا يخشون منها على عملهم أن يفقد حسناته . أما العمال المتخصّصون ، الذين أتعبهم الدوران الفارغ في الدائرة الجهنمية « الأسعار – الرواتب » ، فكانوا على العكس يرون في الانتـاج الكثيف الوسيلة الوحيدة لرفع مستوى حياتهـــم . وأقبلت النقابات والأحزاب تكلل هذه المنازعات وتزيدها قسوة . ولكن ضربة الاجهاز هذه المرة أيضـــاً ، أتت « من الخارج » ، فحوّل مشروع مارشال و « حادث براغ » هذه المنازعات الاقتصادية والاجتماعية الى حقد سياسي . لقد عاش اليسار قلقاً عظيماً .

وكانت تبقى « الامبراطورية » . وقد بدأت بسرعة تتفتت . وما كان المرء بحاجة الى أنوار عظيمة ليفهم ، منذ الثورات الاولى ، اننا كنا نشاهد بداءة ما

سوف يصبح أعظم حدث في النصف الثاني من القرن العشرين : يقظة القوميـــة لدى الشعوب الافريقية الأسيوية ، كما لم يكن المرء بحاجـة الى مثل تلك الأنوار ليدرك أن حركة التحرر هذه ستكون غير قابلة للمقاومة او للقلب . ولكننا لم نُرد أن نرى شيئاً فيها ، وحتى اليسار نفسه ، في بادىء الأمر ، استسلم لفكرة: إن الامبراطورية هي عنوان عظمتنا .

وكنّـا نعتقد أننا إذا قسرنا المتمرّدين على الاعتراف بهذه السيادة التي كنّا قد قنّعنا نقائصها على الطريقة الاميركية ، فيسّعنا ان نحلم لحظة بأننا حافظنا عليها .

وليس « المجلس الوطني » هو الذي أنتج الثرثرة البلهاء التي تفسد كل شيء : بل هو الوضع . لقد كنّـا واحداً « من الخمسة الكبار » ، ولكن المانيا كانت ، بعد سبعة أعوام من نكبة الاندحار ، تسحقنا بقدرتها . وكانت كلمة « كبير » تصبح كلمة خالية من المعنى . كنـــا نجبر المستعمرات ، بواسطة المذابح ، على احترام سيادة كنّـا قد فقدناها . لم تكن « سيادة » الا كلمة . وكنا في كل مكان نؤكد ان فرنسا عظيمة ، وكانت القوى الذرية تتساءل ، مندهشة : « ما الذي يفعلون ؟ هم يلعبون ؟ لا بدّ انهم يريدون إلهاء جنودهم » ولم تكن « عظيمة » الا كلمة . وكلمة أخرى ، النصر : يجب ايقـاف الحرب ، او خسارتها . وأتت الكلمات الأخرى من تلقاء نفسها : حين أردنا ، في جهـد أخير ، ان نجتذب الولايات المتحدة الاميركية الى النزاع ، رأينا من المستحسن أن ننسى اننا انمـــا كنا قد ألقينا أنفسنا في النزاع ، جزئياً ، لنؤكّد انفسنا ضد الولايات المتحـدة الأميركية ؛ وكفّ الناس عن التلفّظ بعبارة « بعثة تعميرية » ؛ لقــد أصبح الفرنسي حارس الغرب ، وقد دافع في الفيتنام عن القيم المسيحية واليونانيــة — اللاتينية في وجه ستالين المناهض للمسيح ووجه البرابرة السلافيين . كنا قــد انفككنا وتسللّنا الى الحكم هرباً من الحقيقة التي لا تُحتمل . والحلم يتحوّل الى كابوس منذ بضعة أعوام ، ولكننا نفضّل إرهاب الليل على عار الظهيرة .

وقد عاش « الجيش » هذه المغامرة بصورة أكثف ، ولكن بالشكل نفسه

إجمالاً . كانت الهزيمة الصاعقة التي ضربته عام ١٩٤٠ ، قد خلّفته في الخدر والذهول . ومنذ ذلك الحين ، بدتْ له كلُّ حرب خاضها ثأراً من الحرب السابقة . ولم يكن الضباط يحبّون حروب العصابات في الهند الصينية ، ولكنهم كانوا يقذفون أنفسهم في المعمعة بهوسٍ مظلم . وحدث ان هذا الثأر كان هزيمة. ولم تكن تلك غلطتهم : لقد كانوا دائماً شجعاناً ، وأحياناً بطوليين . ولكن المجلس الوطني لم يكن مذنباً تجاههم : فقد حصلوا على الاعتمادات والأسلحة . ولم يكن مصدر التأخير والأخطاء الا ّبعد المسافة. والحقيقة أنهم خسروا هذه الحرب لانه كان يجب ان نخسرها : فما الذي تستطيعه بعثة ٌ في وجه ثورة بلدٍ اذا كانت قواعدها « الطبيعية » على بعد ألوف الأميال ؟

على انهم عاشوا هذا البُعد كأنه خيانة ؛ ولقد احتقروا السكان المدنيين لأنهم لم يكونوا يريدون ان يحمرّوا خجلاً أمامهم . ولم يفكر أحدٌ بأن يوجّه اليهم أيّ مأخذ ، ولكنهم كانوا يفسّرون نظراتنا وكلماتنا وألوان صمتنا . وهذا الطلاق بين أبطالٍ أشقياء والجماعة الوطنية هو مصدر مصاعبنا الحالية . إن الجيش جريح .

وهو يجد نفسه محشوراً بين نموذجين من النزاعات — نزاعات عصرنا — من غير ان يكون مسلّحاً حقّاً لا ضدّ هذا النموذج ، ولا ضدّ ذاك . فما الذي يستطيعه ضد الحروب « الشعبية » بالرغم من الجهد العظيم المبذول في هذه السنوات الأخيرة ؟ أيقرأ ما كتبه ماوتسي تونغ ؟ إنه سيعرف منه ان الجيش الثوري يعيش في اتحاد مع السكان : فما السبيل الى مواجهة ذلك ؟ إن بالامكان خلق مراكز بسيكولوجية ، ومدارس ضد حرب العصابات ؛ وبالامكان تليين الآلة العسكرية الثقيلة الى ابعد الحدود ، واستعمال الجنود — على غرار ما فعل جنرالية الجيش الخامس — في الفلاحة وبذر الحبوب ومساعدة الفلاحين . وبعد ذلك ؟ هل يُظنّ بان القلوب يمكن تغييرها ؟ إنه من الممكن ، بغير مساعدة سكان المدن ، ألاّ نخسر الحرب ، ولكن ما هو مؤكّد أننا لن نربحها .

ولكن اذا انفجر نزاع عالمي ، من جهة أخرى ، فان فقر مواردنا لا يتيح

لعسكريينا أي حظوظ . إنّ القذائف والصواريخ عابرة القارات والقنابل الموجهة ، وبكلمة واحدة ، الحرب القائمة على ضغط الازرار تُبهت قوة الجيش الكلاسيكية كما أبهتت الآلات نصف الأوتوماتيكية قوة العمال المحترفين . والتكنيكي هو الذي سينتصر على العسكري ، والموت الذري سيقرّب الجندي من المدنيّ اذ يضربهما معاً ودون ما تمييز .

والجيش الفرنسي الذي هو أغنى مما ينبغي لربح حروب الفقراء ، وأفقر مما ينبغي ليفرض نفسه في حرب للأغنياء ، عبثاً ما يجعل نفسه عصرياً ، لأن السياسة والتكنيك يضربانه في الصميم . فهو يبقى ، بالرغم منه ، وبالرغم من شباب ضبّاطه وشجاعتهم ، نوعاً من الحدث الذي يأتي خطأً في غير أوانه . إنه يتساءل عن معنى وجوده : إن النزعات الاستعمارية تنفّره ، وهو قد خاضها في غير شرف ؛ ومع ذلك فهي الوحيدة التي ما يزال يستطيع فيها ان يحمي نفسه ، وان يهاجم ، وأن يتأقلم ، الى حدٍّ ما ، مع تكتيك الخصم . وبكلمة واحدة ، ان عليه ، بعد حرب الهند الصينية ، ان يختار بين الشكنة وبين الجزائر . وقد تم اختياره : فالتقى هناك المدني الذي لا يعثر عليه ، اوروبي مدينة الجزائر ، « مدنيّه » هو . واتحاد جندي جيش التحرير مع السكان المسلمين ، قابله اتحاد الجيش الفرنسي مع السكان الاوروبيين . والجيش الذي هو سياسي بالضرورة – لأن هذه الحرب هي في الوقت نفسه عسكرية وسياسية – انتهى به الأمر ، بمعونة المستعمِرين ، الى ان يتخذ لنفسه نظرية : لقد كان ، في هذا الصراع الثوري ، مضاداً للثورة بدافع الواجب . وكما يحدث غالباً ، غضب في اثناء اللعبة . ولكي يحارب الخصم بسلاح متكافىء ، وصف هجومه المضاد للثورة بأنه ثورة . وهو لا يهمّه كثيراً ان يستولي بنفسه على السلطة ، بل يقبل بأن يحكم بواسطة فريق آخر . إن ما يريده هو أن تترك له عظَمَتهُ : الجزائر الفرنسية .

ذلك أنه يضرى مرةً أخرى في حرب يُحس بأنها بلا أمل ، لكي يثأر لهزائمه التي لا يستحقّها وليؤخر في الوقت نفسه اللحظة التي يعتقد انها ستكون

فناءه . لا لأنه يتمنّى ان يخوض الحرب الى مــا لا نهاية . لقد اعتقد بامكانية الدمج . وهو يستطيع ان يتصوّر دوراً جديداً للجندي : رائــد الامبراطورية الذي يحارب تارةً ويقدّم تارة أخرى المعونة للفلاّح لخزن الغــلال في الأهراء ، وتارة ثالثة — مــن يدري ؟ — يَعظ القرويين ليعملوا لصالح القضية . ولكن سواء أحافظ الجيش في الجزائر على السلام حــين يعود ، أو ظلّ يخوض فيها الحرب ، فانه لن يترك أبــداً الجزائر ، التي هي تبريره الأعظم ومصلحته الكبرى .

والجيش منــذ خمسة اعوام يثقل بشكل هائــل على حكومة المتروبول ، ويزداد كل يوم تهديداً . وهو متكاتف مــع المستعمِرين — الذين تبدو مصالحهم ووسائل ضغطهم اشدّ وضوحاً مــن ان اذكرها هنا — والعمل المشترك بينــه وبينهم يضفي عليهم قدرة كبيرة. ومع ذلك فان « سادة الحرب » الجدد يبقون مغتمّين : فانّ أي نجاح سياسي ، في نظر الضابط ، لا يعادل أبــداً نصراً عسكرياً . ومنذ عام ١٩٣٩ ، لم يأت النصر مرة واحدة في موعد ، الاّ حين كانت فرقة «لوكلير» متجهة من إفريقيا إلى باريس. وفي صميم هؤلاء الكولونيلية تكمن هذه الانهزامية ، ودوار الفشل ذاك الذي نجده في أصل كل الوان الفاشية.

فأنتم ترون ، أنه ليس ثمة ما هو أكذب من قصص النظام هــذه ، من مثل المجلس الوطني الذي لا يُحكم الخ ... فالواقع أن السلطة التنفيذية قائمة في مدينة الجزائر ، وهي مكوّنة من مدنيين وعسكريين ، وهــي تقرر لفرنسا بالنسبة للجزائر . ولأسباب متروبوليتية محضة كان يُترك لنــا ، حتى ١٣ ايار الماضي ، شكل من الاستغلال الذاتي . أمــا اليوم ، فإنهم ينكرون علينا حق هذا الاستقلال. ولا شك في أن الجيش — الذي تستغرقه الحرب كلياً تقريباً ، والذي هو منقسم مــن جهة أخرى — لا يستطيع أن يفعــل شيئاً كثيراً . ولكنه على الأقل ، بالرغم من أن وسائله محدودة ، يبقى القوة الوحيدة المنسجمة والمنظمة.

وكان الوضع يحتاج الى يسار منظم : لا أكثر من ذلك . ولكن من يطلب هــذا كان يطلب أكثر مما ينبغي . فالسبب نفسه الذي ألقانا بجنون في المغامرة

الاستعمارية - الكتل والحرب الباردة – كان إذ يفصل بـين الأحزاب العمالية بحاجز من الحقد والنار ، ينزع منا وسيلة الخروج من هذه المغامرة .

الاتحاد السوفياتي ، الولايات المتحدة الاميركية ، دول باندونغ : لقد هبّت في كل مكان، وفي وقت واحد، الريح التي تُطلِق منذ اثني عشر عاماً العاصفة على فرنسا . وفي الوقت الذي كانت فيه الشعوب المستعمَرة تطالب بحريتها ، كانت الحرب الباردة تفتت الأكثرية الوحيدة التي كانت تستطيع ان تمنحها هـذه الحريـة .

تلك هي القصة كلها : وضع يتدهور بلا انقطاع – سواء في الهند الصينية او في الجزائر – واكثرية عاجزة مذعورة بالمستعمِرين والشيوعيين والعسكريين ، تسوّف بلا انقطاع وتؤجل يوماً فيوماً قراراتها الى ان تفرضها عليهـا الظروف نفسها فرضاً .

بلد مُذَلّ ، مرهَق ، تفتته المنازعات ، وهو يغرق بفعل النكبة والغضب في حروب لا أمل فيها ، ويزداد كل يوم انحطاطاً، وهو يبيع سيادته ويضع باقة حرياته بين أحذية العسكريين .

بلد مشلول يغرق في الحلم والحقد . بلد مُراوِح ، ذو اقتصـاد متخلف ، وقد وجب عليه أن ينتظر حتى عام ١٩٤٩ ليجدّد جهازه ، وقـد فعل ذلك – اخيراً – من غير ان يهتم كثيراً بالأسواق التي ستمتص الفائض من نتـاجه . بـلد مقسّم الى طبقات ، يرتجف من الحذر والشراسة ، ويردد بلا انقطاع وبغطرسة : ( انني على موعـد مع التاريخ ! ) وقد تبين ان التاريخ خدَعه في الموعد .

المجلس الوطني ؟ كفى ! إنـه على صورته . فاذا أردت أن تغيّره ، فيجب أن تغيّر البلاد اولاً . ونستطيع ( نحن ) بالتأكيد أن نغيرها ؛ نحن جميعـاً ، مستأصلين أمراضه من جذورها : لأن البلاد هي نحن .

يجب أن نفهم ان عظمة أمـة لا تُقاس بكمية الدم التي تريقها، بل بعدد المشكلات الانسانية التي تحلـّها؛ ويجب أن نوقف الحرب على الفور، وان نفاوض،

وان نعيد النظر بقضية البلاد المتشاركة مع ممثليها ؛ وان نسترد سيادتنا الضائعة ونعمل على تفجير الكتل ، أي من أجل السلام ؛ وان نقرّب بين جميع رجال اليسار ونصالحهم على منهج موضوع بصورة مشتركة ؛ وان نوقف نزيف القطع باعطاء فرنسا اقتصاداً يكمل اقتصاد الدول الاوروبية الاخرى ، وان نحثّ الصناعة الكبيرة على زيادة طاقتها الانتاجية ، وان نكافح بجميع الوسائل لكي يستفيد من زيادة هذا الانتاج العمال اولاً وخصوصاً ، وان نحطم بالحركة الاحصائية البشرية التي ستخلقها إعادة تنظيم الاقتصاد - الطبقات التي تفصل بين الجماعات وتجعلها تصطدم بعداوات جامدة ؛ وان نقلب مساوىء العمل التي يمكن ان يخلقها ارتفاع الانتاج بنظام من إعادة التقييم ، وان ننقص او نلغي منازعات المصالح التي تقسم الطبقة العمالية بعملية من التصنيف وإعادة التصنيف ؛ وان ننمّي الثقافة العلمية والأدبية والفنية و «السياسية» في الطبقات الاجتماعية التي هي اقل الطبقات حظوة وأكثرها فقراً الخ ... وان نخلق تعليماً زراعياً ، ولا سيا في وسط فرنسا وجنوبها ، وان نضاعف الطاقة الانتاجية الزراعية في هذه المناطق نفسها بحثّ المجتمعات الزراعية ، في كل مكان تسمح به التربة ، على ان تحصل بصورة جماعية على الآلات الآلية الخ . وبعد عشر سنوات ، لن يبقى شكل فرنسا كما هو ؛ فالقطاع الثالث ، المضخم اليوم ، سيزول انتفاخه ، والقطاع الأول سينقص بمقدار الثلث ، والقطاع الثاني سيكون أكثر انسجاماً ومستوى حياته أعلى . واذا كنا نفعل هذا ، بأنفسنا ، واذا كنا نفعله في عشر سنوات ، فربما سيتاح لنا أن نقول من غير غرور كثير إن فرنسا بلد عظيم .

ولكني ان كنت ارسم الخطوط الكبرى لبرنامج ، فليس ذلك لكي اقترحها اليوم . بل لكي أسأل الجمهوريين الذين سيصوّتون يوم الأحد القادم لديغول : أمن أجل هذا تصوّتون له ؟ أتراكم تطلبون منه مساكن وتراكتورات ومدارس ، واعادة تنظيم الاقتصاد ، وميثاق تحالف مع شعوب ما وراء البحار؟ انني أعرف منذ الآن ان الجواب سيكون لا .

فلماذا اذن تنتظرون منه ما لم يَعِد به قط ؟ ولماذا تدّعون انكم تصوّتون

لبرنامج حين تتوجه ورقتكم مباشرة الى الرجل ؟

سوف تجيبونني إن هذا الرجل قادر في ثلاثة أعوام على ان يحقق مشاريع اكثر وأبعد طموحاً مما حققته الجمهورية الرابعة في ثلاث عشرة سنة . وقد كان من الممكن أن أصدقكم لو كنت أملك بدء دليل . ولكن مرشحكم هو أعظمُ بما يتميَّز به ألوان رفضه من عناد ، منه بسعة انجازاته الاقتصادية والاجتماعية.

الحقيقة هي أنكم تختارون العمل المحض، اي الفرد منتزعاً من جميع الرقابات اشمئزازاً من المستنقع الآسن الذي نمشي في وحله منذ « التحرير » . ولكني حاولت أن أُظهر ان الأسباب كانت موضوعية وعميقة ، وأن العلاجات كان يجب ان تكون كذلك . إننا لن نغيّر فرنسا بتغيير الفئة الحاكمة بلا انقطاع . فما دامت البُنيات التحتية تظل كما هي ، فسيظل النظام كما هو . وانني لأقول لنفسي دفعةً واحدة إن هذا العجز الذي يرعبكم، تعزونه بسرعة الى المجلس الوطني ، ولكن يمكن قبل كل شيء أن يكون عجزكم أنتم ، وأنكم ترمونه على سواكم لتتحرروا منه .

لقد سألت كثيراً من الناس في هذه الايام . وسوف يصوّت بعضكم للجنرال ديغول ، وسيمتنع آخرون . وقد أردت ان أعرف ما الذي كانوا ينتظرونه منه – انصاره طبعاً ، ولكن كذلك المستنكفون الذين كانوا يكنّون له رأياً مسبقاً في صالحه .

حرب الجزائر ، مثلاً ؟ ما الذي كانوا يؤمّلونه ؟ ما الذي كانوا يطلبونه؟ أكان ينبغي إقامة السلام ؟ كانت كلمة « السلام » هذه تثير حيرتهم وبلبلتهم : كانوا يجدونها قاسية . السلام ؟ إن في هذا التزاماً يتجاوز حدوده .

كانوا يقولون : « نهاية الحرب » . وكانوا يضعون أيديهم على آذانهم ويصيحون : « لينتهِ هذا ! لينتهِ هذا ! ولنكف عن سماعه ! » .

وكنت أدعوهم الى أن يلاحظوا أنه ليس ثمة إلا حلاّن : سحق جبهة التحرير الوطنية ( شرط أن يكون هذا ممكناً ) أو المفاوضات .

ولم يكن الحل الأول ليخلّف لديهم الاستياء : شريطة أن يتم تنفيذه

بسرعة .

وكنت أقول : « يجب بذل جهد هائل : وسيكون العسكريون بحاجة الى المال والسلاح والرجال » .

فكانوا سرعان ما يقولون : « لا . لا . لا . ليس ثمة بعد من رجل واحد ، ولا درهم واحد . هؤلاء الفتية المساكين الذين يذهبون جميعاً ؛ والأسعار ! والضرائب ! »

فكنت أقول : إن ذلك إذن يمكن أن يستمر طويلا .

ويأخذهم الغضب من جديد : « إن هذا مستمر منذ ثلاثة اعوام ونصف . لا . لا . بل يجب أن ينتهي بسرعة . »

إذن ، يجب أن تقوم المفاوضة . ولكنهم كانوا جميعاً يجيبون ، في عبارات أخرى ، بما قاله ديغول في « رين » : « استقلال ، لا . إننا لن نترك مليون مواطن لنا ، هذا لن يحدث . دمج : مستحيل ؛ فسندفع نفقات الحرب وسندفع الضمانات الاجتماعية والمنح . ثم إنهم ، الخنازير ، لا يريدون ذلك ! »

وكانوا قد قالوا : « الخنازير » من غير تفكير سيء ، ومن غير كراهية . والحق انه قد صعب عليّ ان أوضّح لهم عواطفهم تجاه الافريقيين الشماليين . كانوا يصفونهم بأنهم : « كلاب مسعورة ، وهم يطلقون النار على أي إنسان ، فليُعادوا الى بلادهم ، فليس لهم هنا ما يفعلون » وبعد ذلك بلحظة : « اننا نفهم لماذا يعاندون . إن لي اختاً لزوجتي تعيش هناك ؛ وقالت لي إنهم كانوا في ... حالة من البؤس !.. »

ويتحدثون عن الاغتيالات : « كان هذا مقدوراً . انها غلطتنا . لقد أردنا اي نقضي عليهم ، يوم ١٣ ايار ؛ فقالوا حسناً ! » الخ .

ولقد تنوّرت من مجموع هذه الأجوبة : إن التناقض لا يقوم اليوم ، في فرنسا ، بين أنصار الحرب وأنصار المفاوضة ، بين أعداء العرب الألداء والذين يحاولون أن يفهموهم . بل هو في قلب الأفراد الذين يريدون كل شيء في وقت واحد .

والحق انه قد بدا لي انهم كانوا يتمنّون – لو جرؤوا على ذلك فقط – ان يُمنح الجزائريون الاستقلال، لا لشيء إلاّ لنكفّ عن سماع ذلك. ولكنهم في الواقع لم يكونوا يجرؤون. كانوا خائفين. من جيرانهم، من الجواسيس، لست ادري. ولكنهم كانوا خائفين خصوصاً من أنفسهم. وكانوا قد سمعوا من يتحدث عن اليهود الذين يبيعون الامبراطوريات، ولم يكونوا يريدون ان يُشبهوا هؤلاء الخونة. من ذلك، ما كان يقوله أحد الشبّان، ذات يوم، في القطار: «ان الجزائر لا تهمّني أنا، ثم انني لا أحب الاستعمار. ولكنها تركة أجدادنا. ويجب ان يحتفظ المرء بالتركة، حتى ولو لم تكن تعود عليه بشيء.»

وهكذا فان هؤلاء الناس سيصوّتون «للرجل الفعّال»، للرجل الذي يجب ويستطيع ان يحلّ مشكلاتنا. ولكنهم لا يعرفون حتى ما الذي يريدون ان يفعله.

إن بوسعنا ان نقرّ ان يتمنّوا الحلّ الأكثر جذرية. الاستقلال مثلاً. وسوف يدهشهم قليلاً، في أعماقهم، أن يدفعهم الى ذلك دفعاً، ولكنهم سيكونون مفتونين: «ما دام كل شيء يصدر عنه مقدّساً، فان الاستقلال الذي كان مجرد التفكير به يبدو لي خرقاً للقدسيات، هو الحلّ الأعدل والاكثر فرنسية». أتراهم لا يشبهون ملمحاً ملمحاً افراد النظام: فقد كانوا جميعهم، تقريباً، النواب، يتمنّون السلام ويصوّتون للحرب.

وانا أبدأ في التساؤل عما اذا لم يكن هؤلاء الجمهوريون الديغوليون مسؤولين عن هذا المجلس الساقط الذي يحتقرونه.

كنا في الشوارع نسمع فتية «لوبان» يتحدثون عالياً ويصيحون «الجزائر فرنسية!» ولكن كم كان عددنا نحن الذين نصيح: «السلام في الجزائر»؟ إن النواب مبهورون بالعدد: وهذا مرض المنتخَبين.

وانتم الذين تأخذون عليهم اليوم أنهم لم يعرفوا ان يصنعوا السلم ولا ان يربحوا الحرب، لماذا لم تذهبوا لتصيحوا تحت نوافذهم: «فاوضوا!» ولماذا لم تحتجوا على التعذيب، وعلى المحاكمات بالجملة، والبعثات الانتقامية، والاختفاءات،

والمعسكرات ؟ إن الذين سيصوتون لديغول انما يريـدون ان يهربوا من جبنهم الخاص الذي يثير لديهم الاشمئزاز. والحق انه كان في المجلس رجال كانوا يريدون السلام وكانوا يصرّحون بذلك عالياً . فليتنا دعمناهم ، نحن جميعاً ، بدلاً من أن نغطس في تناقضاتنا ...

وألاحظ من جهـة أخرى ان الذين لا يهتمون بالسياسة سيصوّتون لديغول : وربما كان هؤلاء هم أنفسهم الذين استنكفوا ، في الانتخابات الأخيرة، ونحن نجد بين هؤلاء لا مبالين ، ولا متحمسين ، وكل ما يبغونه الهـــدوء . ولكن هناك آخرين لا يمكن ان نفكر فيهم بلا خجل .

وقد كتبت لي احدى القارئات ، تعليقاً على مقال كنت أشرح فيه لمـــاذا سأصوّت بـ « لا » ، تشرح لي لمـــاذا ستصوّت بـ « نعم » ، بالرغم من انها تبدو متفقة معي بالاجمال : إن « نعم » تعني أنّـه سيكون هنـــاك ذرىً وسفوح ، ولكن الحياة تستمرّ . أما الـ « لا » فهي المغامرة » .

وهنا تكمن الجريمة – لا جريمة الجمهورية الرابعة، ولكن جريمة بورجوازيتنا، منذ مئة وخمسين عاماً : إن هناك مواطنين من الدرجة الثانية، بـلا أمل ، وهم منذ زمن طويل جداً يعتبرون أنفسهم كذلك . إن لهم حقوقاً قليلة جـــداً ، وتأثيراً ضعيفاً جـداً ، ووزنهم في العـــالم خفيف جداً الى حدّ أن الانقلابات السياسية لا تؤثّر فيهم .

إن مراسلتي تعتقد أن ليس لهـا ما تربحـــه من انهيار الجمهورية ، ولكن ليس لها كذلك ما تخسره . سوف تُنتزع منها حرّياتها المدنية ، وربما قُلّمت حقوقها النقابية ، ولن يُترك لها الاّحق ان تصمت . ماذا يهمّ : انهـا تصوّت للديكتاتورية . وهذا يثبت انها بدأت تصمت، وانها قد صمتت دائماً ، او انها لم يكن يُصغى اليها . لم يكن يصغي اليها أحد قط .

واذا كان ملايين النـــاس اليوم لامبالين بالاستفتاء، واذا كانوا لا يكترثون لسلطات الرئيس والهيئة التشريعية، فتلك غلطتنا، ذلك اننا لم نعرف قطّ أن نُفهمهم انهم يؤثّرون على الآخرين بمجرّد الورقـة التي كانوا يضعونها في صندوق

الاقتراع ، وان النشاط السياسي للمواطن هو التوكيد الكامل لحريته . وذلك أيضاً انهم لا يُحسب لهم حساب ، وأنهم اعتُبروا دائماً بلا شأن ولا قيمة ، وانهم تدبّروا امرهم بشكل حسن او سيء مع هذه الحياة التي ارادوها لهم . انهم سيصوّتون « نعم » يوم ٢٨ ايلول : فاذا قبضوا في كانون الثاني ١٩٥٩ ، كما قبضوا في كانون الثاني ١٩٥٨ ، راتبهم الضئيل ، فسيفكرون بأنه لم يؤخذ منهم شيء .

ولكن تواضعهم نفسه يخدعهم : فهم سيُصابون حتى في راتبهم ؛ إن الحرب ستستمر ، وسترتفع الأسعار . وهم ليسوا اليوم شيئاً آخر غير هذه الآلاف القليلة من الفرنكات ، حقيقتهم الموضوعية ؛ وحين يهبط الفرنك غداً ، سيكونون أقل من ذلك ايضاً .

إن جميع هؤلاء الذين لا يهتمون بالسياسة ، سواء أكان ذلك بدافع اللامبالاة أو العجز ، يصوّتون لعدم الاهتمام بالسياسة كما لو أن ذلك كان برنامجاً يريدون فرضه . وهم اذ يقولون « نعم » يدفعون موقفهم حتى التطرّف الى حد ان يتنازلوا عن جميع حقوقهم المدنية . إنهم يضعون العناية بالقضية العامة بين يدي رجل سيفعل كل شيء من أجلهم . وها هم اولاء مبسّطون : انهم يبقون ازواجاً ، وابناءً ، ومستخدمين ، وابطال بليار – ولكنهم لن يُصبحوا بعدُ مواطنين. لقد كانوا يصمتون ، حتى اذا أروهم كمّامة ، صوّتوا لكي تُوضع لهم بسرعة : والمكسب هو انهم « لن يستطيعوا بعدُ ان يتكلموا . »

واذا التمستُ دوافع مسلك متناقض كهذا المسلك ، اكتشفت واحداً منها على التو : إن العجز الموضوعي للمجموع الفرنسي قد حُفِر حفراً عميقاً في كل منا كأنما هو عجزه الشخصي عن تغيير قدر بلاده .

ويستحسن أن نذكّر هنا بالتحقيق الذي أجري عن « الموجة الجديدة » وبتلك الأجوبة التي لفتت نظر قراء « الاكسبريس » : « انني لا أؤثر على نيكيتا ، وليس لي نفوذ على « أيك » ولست أنا الذي يمنح جائزة نوبل » .

والواقع انه كان بوسعنا نحن ايضاً ان نجيب : « انني لا أمنح جائزة نوبل ،

وليس لي تأثير على ستالين » . ولكننا كنا نعتقد ان لنا اقداراً على الصعيد الانساني . اننا لم نكن نؤثر على ستالين ، ولكننا لم نكن نتصور آنذاك ان بإمكان ستالين ان يؤثر علينا . لقد كانت ثمة القضية الكبرى : المانيا ، التي كانت الخشية من ان تعود الى التسلح قد بدأت ، ولكن ذلك لم يُرعبنا . بل كان يبدو لنا ان علينا « نحن » ان نمنع نشوب الحرب الالمانية — الفرنسية القادمة وان نربحها . ولم يكن لدينا شعور بأننا كنا متوقفين على الكون كله .

إن سياسة الكتل والحرب الباردة ، وكذلك النمو الهائل لوسائل الاتصال ، كل ذلك جدير بأن يتيح لشاب فرنسا ان يكون اولاً كونياً ؛ انه ينتمي الى هذا « العالم الواحد » الذي يتحدث عنه الاميركيون . ولكن من أجل هذا بالذات تصغُر فرنسا ، وتنكشف رخاصتها ، ثم إن « التاريخ » ، كما يبدو ، يُصنع في مكان آخر .

فما جدوى ان يحاول المرء في فرنسا ممارسة حقوقه كمواطن ، وما جدوى ان يصوّت ، اذا لم تكن فرنسا بعد إلا شيئاً جامداً مشروط الحركات والوضع بقوى خارجية ؟ ان الحياء والرصانة والاجتهاد لدى هؤلاء الشباب ليست إلا وعيهم لعجزهم الاجتماعي . انهم يستغرقون في العمل ، وفي هموم المهنة ، وفي العائلية . ويتحمسون كذلك للتكنيك : فهو سلطتهم الوحيدة على العالم . أما السياسة ، فيسخرون بها : ربما لو كان احدهم روسياً ، او صينياً ...

وخلف هذه الحكمة المبكرة التي ليست هي حتى استسلاماً ، يجد المرء نوعاً من القلق : صحيح انهم يعيشون في حرية ، ولكن بلا سلطة ، في عالم جليّاني يكفي مخزون القنابل الاميركية لنسفه كله ، تحت سماء يشقها السبوتنيك . إن الصحف تتنبأ كل ثلاثة أشهر بالحرب العالمية القادمة والأخيرة معددة النتائج التي تعرفون .

وهذا الخوف يظهر بوضوح في جواب مستخدم شاب : « سعيد؟ اين تكون هذه السعادة ؟ آه ! في الأسرة . اجل ، ليس لي ان اشكو ، فهناك الزوجة والبنات الصغيرات . اي انه لا يحق لي ان اشكو ، لأني ارى آخرين كثيرين

أشدّ مني شقاء . آه ! حين افكر مثلاً بالمستقبل ، مع كل مـــا يُهيأ لنا ، فاني افضّل ان أقول لكم اني لست سعيداً . ان زوجتي في كل مساء ، تنظر الى السماء قبل ان تنام ، فربما مر السبوتنيك .. وحين ترى أن موعده ليس ذلك المساء ، تهدأ ، وتستطيع ان تنام » .

انهم منذ هيروشيما يهاجموننا ويغيظوننا ويقلقوننا بلا انقطاع . وأتصور أن في كل مخ عطباً ، زرقةً ليست شيئاً آخر غير الرعب في حالة الراحة . وبوسع كثيرين اليوم أن يردّدوا هذه الكلمة لـ «هوبز» التي يرجع عهدها الى ثلاثة قرون : « إن هوس حياتي الوحيد كان الخوف » .

خوف وعجز ، خوف من جرّاء العجز ، عجز من جراء الخوف — إن كل شيء يردّنا في هذا الاستفتاء الى ان ننحاز لجانب العجز والخوف . ولولا العطب النخاعي الصغير الذي أحدثه مئة جُرح مختلف ، لما أصاب هذا النجاحَ الكبير التخويفُ من المظليّين — وهي الحجّة الأساسية للدعاية الديغولية ، بـــل هي الحجـــة الوحيدة على الأصح . وحين كنت من الثلاثين من عمري ، كنا سنشعر بالخجل لو خضعنا لتهديدات العرابيد هذه . إفهموني جيداً : إننا لم نكن أكثر شجاعة ، ولكننا كنا أكثر نضارة . وأقلّ عطـلاً . كنا « أبكار » خوفٍ على نحوٍ مـــا .

لقد سبق ان وّجهوا لشبّان اليوم ضربـة الجيش الأحمر ، وضربة القنبلة ، وضربة الصحون الطائرة والصواريخ المرّيخية ، وهـــا هي ذي أخـيراً ضربة المظليّين. لا يهمّ ، إن للتواضع حسنات : والذين سيصوّتون « نعم » يوم الأحد سيعلنون هلعهم بلا حيـــاء ، مقدّمين ( للسيد اللطيف ) حبّهم وإيمانهم مقابل مساعدته وحمايتـــه . وفي الوقت نفسه الذي يعترفون فيه بعجزهم ، يدفعـون قُدراته الى المطلق . إنه « الفعّال الأكبر » . فلا ندهشنّ بعد لهذه الـ « نعم » على الجدران ، ولا لتلك الاغمـــاءات التي لا تخلو من رياء : فإن القبول بالدستور الذي يقدّمه لنا « الأمير » ، حبـــاً به وإكرامـــاً لعينيه ، الدستور الذي يكمّ أفواهنا ، هو التنازل مرة واحدة وأخيرة عن مراقبة السلطة التنفيذية من قِبَل

السلطة التشريعية ، وعن مراقبة العمل من قبل العقل ، وهذا هو الأفدح .

إن مكافحي العجز هؤلاء يعتمدون على « الأمير » ليحل المشكلات التي لا يريدون حتى أن يصوغوها لأنفسهم ، وليتخذ بدلاً منهم قرارات يتجبنّبونها، وليتخطّى التناقضات التي تشلّهم . إنهم يعطونه هذا الشك الأبيض « لأنه هو » . وحين يُؤخذ عمل ( الأمير ) على هذا الأساس يُصبح مرة ثانية الأوحد واللاعقلاني والذي لا يُعبر عنه . بل لنذهب الى أبعد من هذا : إنه غير القابل للانتقال بسبب القطع المتبادل للاتصالات .

وإن الذي يعلن اليوم : « إن ديغول هو الوحيد الذي ... » لا يقول شيئاً يدخل في حدود العقل : فالقضية ليست هي بعدُ قضية علاقة « محسوسة » ، من مثل الشعبية التي هي ، على نحوها ، قابلة للتقدير ، بل قضية مزية فريدة وغير قابلة للمقارنة تعزل ديغول عن عالمنا . وجمهوريّونا اللامبالون بالسياسة ، والمشمئزون مما ليس هو فعّالاً ، يقولون « نعم » لما هو غير عقلاني، ولما هو مقدّس وفي الوقت نفسه يقولون « لا » للمساواة .

ولو كان يوجد في الجنس البشري رجلٌ يملك أنواراً لا يملكها سواه ، واذا كانت هذه الأنوار تمنحه حق العمل ، حتى ولو بصفة أبٍ طيّب ، على اقدارنا ، واذا كانت هذه الأعمال دائماً صالحة وطيبة لمجرد أنها تعبّر عن جوهره ، فان الجنس البشري في هذه الحالة ينحلّ سلاسل : فليس بعدُ من انسان . بل هنا انسان أعلى وحيوانات .

إن ديغول هو حامي الانسان الكوكبي – اقصد الفرنسي – وهو يمثّل في نظره التجسيد الحيّ لحدودنا ؛ إنه يحيطه ويحميه ، ويخفي عنه العالم ، ويهدهده بهذه الكلمات المطمئنة : « فرنسا ، فرنسا وحدها ... » ولكن الناخب « والمنتَخبَ الأكبر » يضمّان جهودهما في الوقت نفسه ليحطّما انسانيتنا الى ألف قطعة .

تحكّمي ، فعّال ، نقيّ ، عنيف ، فائق الوصف ، معارف حدسية هي نصيب رجل أوحد – انني أجد هنا جميع الملامح لما كان عالم اجتماعي الماني ،

هو « ديبر » يسمّيه « قـدرة شاريسماتية »[1] — وهي عبارة دانت بشهرتها ، بين ١٩٣٣ و١٩٤٥ ، للاحداث .

أينبغي ان نعود الى مثل ذلك ؟ إنّ في التصويت لِنعَم الله خفضاً للنفس ، وفيه اعتراف للآخر لا بتفوّق المواهب أو الوسائل أو الفضائل ، مما هو مقبول تماماً ، بل بتفوّق ( النوع ) . فاذا كان يوجد بين البشر ( نوع ) يفوق البشر ، فهو إذن النوع البشري ، والذين ليسوا جزءاً منه هم كلاب .

أيكون ضرورياً الى هذا الحد أن تنحطـّوا، ايها الجمهوريون الديغوليون،الى مستوى الحيوان ؟ ان هذا قد يكون مقبولاً لو تمّ في الحماس . ولكن لامباليـنا الكوكبي يريد السلام في بيته . إنه يصدّق شانتاج المظليين ، ويخشى أن يُحطـّم زجاجه أو أن تلقى في شارعه مفرقعات . وهو الذي يقول في وقت واحد « ان ديغول هو الوحيد الذي يستطيع ... » و « إن ديغول هو اقل الشرّ » وهـذا الذل الكئيب يُذعرني . ان « ماسو » هو الذي يُحسب حسابه اولاً في آخر المطاف : وهو غـير مرغوب فيه . وكلمة « نعم » هي في الحقيقة مجرد « لا » للجنرال المظليّ . ولكن ديغول يبدو هنا ضد ماسو ، كمـا في كل شانتاج منظم جيداً ، والمقدّس يبدو معه على سبيل الواسطة فقط . اما الجمهوري الديغولي ، سياسيٌّ يوم واحد والمناهض للسياسة ، فانـه سيعود يوم ٢٩ أيلول الى صمته الأمين ، والى حريته المرتجفة ، والى الاضطرابات العاقلة في حياته الخاصة .

انه مخطىء . فاقتراع الثقة هذا لا يمنح ديغول سلطة ، بل يمنحه عجزاً . ان الزعيم السياسي يكسب القوة حين يدعمه أنداد وثقوا بـه بناءً على برنامج ، وهم يحثونه لتحقيقه . اما الذي يختاره العجز ، ويريد أن يكون عاجزاً ، فيجب ان يرفض الانتخاب، او ان يصبح عاجزاً . انه يريد ان يكون مختار الجميع: وبين الذين سيحملون اليـــه أصواتهم ، من يملكون نيّة صريحة في ان يتخذوه حجّة لتغطية فاشيتهم ، وآخرون ، هم ديغوليو اليسار، يطلبون منه ان يتبنى سياسةً

---

(١) صفة تطلق على مواهب روحيـــة عجائبية ( تنبؤات ، رؤى ، عجائب ) يمنحها الروح القدس لجماعات أو افراد يعملون للصالح العام للكنيسة (هـ.م) .

ان لم تكن يسارية ، فعلى الأقل متحرّرة واشتراكية .

فمن الذي سينتصر ؟ سأجيب على هـــذا . ولكن اذا أقررنا لحظة انهم الفاشيون ، واذا افترضنا – وهذا ما أعتبره محتملاً – ان ديغول يرفض هـــذا الشكل الوحشي والمبتذل من اشكال التسلط ، فهل يُرجى ان يجد تأييداً لدى ناخبيه ذوي النزعة الحيـادية ، بين أصحاب كلمة ( نعم ) لأقـــلّ الشر ؟ على الاطلاق : لقد أقسمَ هؤلاء ان يجدوا مقدّماً كل ما يباشره صالحاً . ثم استسلموا للنوم . فاشية ؟ أو مناهضة الفاشية ؟ ليس لهم من رأي ، ولم يطلب اليهم أحد ان يكون لهم رأي . وهم سيجيبون برخاوة : « اوه ! إن الفاشية مع ديغول ، هي أقل الشرّ » وسيمضي المرء بعيداً في هذا الاتجاه : فأياً كانت المجزرة التي ينظمها هؤلاء « الكوماندس »، فبالامكان التأكيد دائماً بان الأمور كانت تكون أسوأ لو أن ديغول كان قد انسحب .

لقد ماتت « الجمهورية الرابعة » لأن الفرنسيين لم يحاولوا ان يتّحدوا ، ولا ان يحقـّقوا مظاهرات كثيفة ، ولا أن ينتزعوا وعوداً من مختاريهم ويساعدوهم على الوفاء بها . ولو انتـُخب ديغول ، لظلّ في الهواء ، بسبب انه لا يكون قد انتخب وفق برنامج عمل كان ناخبوه سيجبرونه على التقيّد به بدقـّة . وسيعوم هذا الجسم الكبير في الفراغ ، فوقنا ، ولكن بدون قاعدة . ولمـا كان أنصاره يصـّبون عليه تناقضاتهم ، فانه هو الذي يَرِثهم .

اما فيما يخص حرب الجزائر ، فواضح الآن أنه يتردّد ويسوّف – لا أقـلّ ولا اكثر من معظم الفرنسيين . لقد كان رجال النظام خبثاء : فانهم كانوا قـد رأوا بوضوح انه لا بدّ ، عاجلا او آجلا ، من اتخاذ قرار جذري – اما سياسة اشاعة السلام الى النهاية ، او التفاوض . فتصرفوا بعـــد ديان – بيان – فو : فاذا بهم يسلـّمون مفاتيحهم وسلطاتهم الى رجل عمـــل ، ويتمنـّون له حظـّاً سعيداً ، ويذهبون على رؤوس أصابعهم . لقد مات النظام، عاش النظام ! ذلك ان النظام الآن هو ديغول . هو وحده .

وكيف كان يمكن ان يكون الأمر غير ذلك ؟ إنه لا يروقه قط ان يكون

رجل حرب النهاية ، ولكن ربما كان لا يروق له اكثر من ذلك ايضاً ان يوصف بأنه بائع تصفية . فاذا فاز في الاستفتاء ، فسيكون كالمجلس ممثلاً للشعب الفرنسي . ولكنه في الوقت نفسه يستمدّ قوّته الحقيقية من الجيش . ولولا شانتاج المظليّين لكان قد ظلّ في « كولومبي » ، وهذا الإجماع الأخرس — على فرض انه يتمّ حول اسمه — هو بحد ذاته لغز .

والواقع ان حكومة ديغول تتميز بجميع الملامح التي بدت لنا محدّدة للنظام . إنها تؤجل الى الغد ، اي الى ٢٨ . فاذا انتُخب يوم ٢٩ ، فسينتظر انتخابات المجلس الجديد ، ثم انتخابه الشخصي . وهذا التأجيل يترجم حقاً عجزه : إنه يتجنب ، ويتهرب ، ولكن حرب مدينة الجزائر تأتي لتلقاه في باريس . إن « الاستجواب » مع التعذيب يُطبّق الآن على الافريقيين الشماليين في عدة مدن من المتروبول ذاته .

انني مقتنع اقتناعاً عميقاً بأن الجنرال ديغول يستفظع التعذيب ، وانه يحكم بأنه ينتهك شرف الجيش ، وانه ذكّر بعض الضباط في الجزائر بأن أجهزة التلفون في الريف إنما جُعلت للمخابرة . ومع ذلك ، فماذا يفعل ؟ ما الذي يستطيع أن يفعل ؟ إنه يصمت . فهو إذن « يغطّي » . شأنه في ذلك شأن غايار .

والحق اننا نعيش اليوم كما عشنا اول امس في قلب اللاحقيقة ؛ إن العجز والتجريد يقودان مرة أخرى الى الثرثرة الفارغة . لقد كان النظام السابق يلتمس الكلمة التي تشعوذ وهي تزعم انها تحدد . اما المظهر الجديد للنظام ، فيلتمس الالتباس ، والعبارة التي تؤدّي معنيين ، والعبارة التي يبدو انها تقدّم معنيين والتي ليس لها اي معنى ، او سلسلة العبارات التي تبدو كلّ منها على حدة مفهومة ، ولكن مجموعها يساوي صفراً .

أو انهم يواجهوننا بالكلمة التي لا يلفظونها . إنها موجودة في جميع الحلوق، حين نستمع الى الجنرال ، وننتظره ، ونأمله ، ونخشاه ؛ وكل عبارة مصنوعة بشكل جيد جداً حتى لتبدو أرملة به : فلا بد انه قد أفلت منها . وأخيراً

تشعّ في العيون ، وترتعش في الرؤوس ، وينطفىء الصوت ، فيقول البعض ( خراء ) ويقول الآخرون ( سبحان الله ) . ويذهب الجنرال، لتعلّق صحافة اليوم التالي قائلة إنه لم يتلفّظ مرة واحدة بكلمة ( دمج ) . وماذا أكثر من ذلك ؟ ليس ثمة بالطبع وزارةٌ دائرة . ولكن هناك تسويات في كل مكان وفي كل لحظة : سوستيل ومولليه وزيران ، تماماً كما كان رئيس الوزارة القادم سيشكل وزارته ليرضي الجميع ، بالدقة المرهفة التي تستعملها ربة البيت في ترتيب شؤونها .

ولسوف يقال : لقد نجح النظام ! ولا يهمّ أن يكون ديغول قديدَ الجمهورية : إن له مشية عظيمة ، وهو لن يكون أخبث من نوابنا ؛ فلنصوّت له . والحقيقة أنه من أجل ذلك يجب ألاّ نصوّت له .

فأولاً ، لا نريد بعدُ نظاماً الآن ، سواءً أكان مكثّفاً أم موسّعاً . لقد كان ينبغي حمايته من الانقلابات، لأنه كان ينهض على مؤسسات حقيقية ومقامة بحرية . ولكن ( الانقلاب ) وقع في داخل النظام بالمساعي الحميدة التي قام بها السادة فليملان ومولليه وبيناي وكوتي . حسناً : إن المرء لا يعود الى الوراء . وما نحتاجه الآن، انما هم رجالٌ آخرون ، وتجمعات أخرى ، وأكثرية أخرى، وبرنامج . ثم خصوصاً ، تذكّروا جيداً أن الجمهورية الرابعة انما ماتت بعجزها .

ولنتذكّر أن هذا العجز كان يأتيها من أن جنرالاً كان يقوم برحلة ، فقفز الى السلطة التنفيذية وحملها الى مدينة الجزائر . لقد كان النظام هو المظهر. فمنذ ثلاثة أعوام كان الكولونيلية والمستعمِرون هم الحقيقة . وقد وُلد النظام بمظهره الجديد من اضطراب جزائري وشانتاج من المظليّين. وكشف ( موك ) حديثاً أن قسماً كبيراً من جيش المتروبول كان قد انحاز بصراحة الى ديغول . فالجيش إذن هو الذي فرضه علينا .

وأنا لا اردّد ذلك بدافع اللوم: فالمرء يحكم على الأشياء من الطريقة التي تجري بها . ولكن الحقيقة انها جرت بشكل سيء جداً : فمنذ شهر حزيران الماضي ،

والجنرال ديغول ينتقل من تنازل الى تنازل . وفي الساعة الراهنة ، تعيش الحكومة الفرنسية كلياً بين يدي الجيش ؛ ولم تمض ايام قليلة على تصريح رئيس الوزارة بهذه العبارة ذات المغزى : ( يجب ألاّ نخفي عن أنفسنا ان حرب الجزائر ستدوم وقتاً طويلاً ) .

ايكون هذا خيراً من التذكير بـ ( بربع الساعة الأخيرة ) ؟ حسناً ، ولكن ذلك يعلمنا ايضاً ان ديغول قد اختار الحرب الى نهايتها . وهو بالطبع لم يخترها على جذل في قلبه ، ولكن لأنه لم يكن يستطيع ان يستغني عنها . ولعلّه يُقال إن هذا سبب آخر يدفع الى التصويت بـ ( نعم ) : ( إنه سينعم بتأييد الجموع الفرنسية ) . ولكن هذا التأييد الأبكم أو شبه الأبكم ، وهذه الافواه التي تنفتح لتُخرج كلمة واحدة لا تقل التباساً عن احاديث الجنرال ديغول نفسه ، إن ذلك كلّه لا يجدي نفعاً . إن الالتباس يرتدّ على الذي أنجبه .

إن هذا يقول ( نعم ) لأنه يريد أن يقول ( لا ) ( لا للكولونيلية ) ؟ وذلك يقول هذه الـ ( نعم ) الأخرى ، ويقصد بها هذه الـ ( لا ) الأخرى ( لا لديغول وللنظام ، وعما قريب لسوستيل ) فمن الذي يقول ( نعم ) ويعني بها ( نعم ) ؟ وما معنى هذا ؟ إن هذه الكومة من الأوراق غير قابلة للاستعمال ، بسبب عدم وجود تعليمات ؛ إنها تخفي أحقاداً كثيرة ، وقد ( بدأت ) تنبعث منها رائحة الاختصام . والوحيدون الذين يستطيعون الإفادة من الـ ( نعم ) ، إذا كانت كثيفة ، هم الفاشست . إنهم لا يتساءلون عن معنى التصويت ، ولكنهم يفكرون في بساطة بأن النصر يمنحهم مزيداً من الوقت ، سواءً لإلزام ديغول حتى العنق في الحرب ، او لتهيئة تنظيمات وأجهزة ستسمح يوماً ما بقلبه .

أيها الجمهوريون الديغوليون ، إنكم تصوّتون ضد النظام — وأنتم تجرون الاستفتاء على النظام الذي بُعث من جديد . أنتم تقترعون لديغول ضد ماسو — وتمنحون المستعمِرين الوقت لتنظيم انقلاب ضد مرشحكم .

لا تنسوا هذا ؛ فالالتباس كله صادر عن ذلك : إن ديغول ليس فاشستياً ، إنه أميرٌ دستوري ؛ ولكن ليس ثمة بعد من يستطيع ان يصوّت اليوم لديغول

فـ ( نعمكم ) لا يمكن ان توّجه إلا الى الفاشية .

ولنفهم أخيراً اننا لا يمكن أن ننقذ بلداً من عجزه بأن نمنح رجلاً واحداً القدرة الكلّية . والطريقة الوحيدة لتجنّب هذه الامارات الناعمة التي تدور في الفراغ وضربة ( كوماندوس ) مدينة الجزائر في وقت واحد ، هي أن ننسحب نحن أنفسنا من عجزنا ، وان نتبنى برنامجاً ، وتحالفاً بين الأحزاب ، وتكتيكاً دفاعياً وهجومياً ضد أولئك الذين يريدون مهاجمة الفرنسيين . إن ( نعم ) هو الحلم ؛ و ( لا ) هي اليقظة . وقد آن لنا ان نعرف هل نريد ان نستيقظ او ننام [1] .

---

١ — الاكسبريس العدد ٣٨٠ ، ٢٥ ايلول ١٩٥٨ .

# تحليل «الاستفتاء»

« الاكسبريس » – أعلن الجنرال ديغول في خطابه الأخير أنه اذا كان ثمة اكثرية من « لا » في الاستفتاء ، او حتى اكثرية من « نعم » غير كافية في نظره ، فانه سينسحب . وهذا تهديد لا شكّ في ان الرأي العام يتأثر بـه . فما رأيكم في ذلـك ؟

جان بول سارتر – إن في هذا الشانتاج مـا يُدهش كثيراً ، لأنه لا يعبر إلا عمـا سيكون ، في حكم ديموقراطي سليم ، بديهةً بسيطة . فمن تحصيل الحاصل أنه اذا كانت نسبة من الاصوات المستنكفة والأصوات التي تقول ( لا ) تضيف الى سياسة صعبة التطبيق صعوبةً اضافية في انها غير شعبية ، فان رئيس حكومة ديموقراطية يمكن أن يكون مدعواً للانسحاب . ولكن ما لن يفعله في اي حالة هو أن يعلن ذلك مقدّماً ويتخذ منه تهديداً ، كما لو أنه سلوك خارق للطبيعة . ديغول ، هنـــا ، يُدخل في الحساب المظهر الكاريسماتي ، المظهر المقدّس من شخصيته .

ونحن نجد هنامرة ثانية تهديداً مماثلاً للتهديد الذي أطلقه عن تقرير المصير إذ أعلن في الوقت نفسه ان الجزائر ستُشطر الى شطرين اذا اختار سكانهـــا الاستقلال . لقـــد كانت القضية هي تقديم اختيار حر ، ولكن باسقاط الحرية منه ، منذ البدء ، بألوان من الضغط الخارجي .

والأمر هو نفسه فيما يخصّ الاستفتاء ، مـا دام الموضوع المطروح لا معنى له

على الاطلاق. فتقديم تقرير المصير والاقتراع على إقامة القوانين الموقتة في الجزائر يشبه تساؤلنا : (هل أنتم مؤيدو شيء ومؤيدو ضدّه ؟) ان هذا تضليل محض ، لأن من الواضح أن القوانين التي يريد ديغول اقامتها في الجزائر لا يمكن ان تصلح إلا لفبركة تقرير المصير فبركةً مسبّقة .

– ولكن هـل يمكن ان نطلب الى رئيس دولة مصمّم بشكل سري على اجراء المفاوضة ان يكشف أوراقه قبل المفاوضة ؟ اليس من الطبيعي ان يجمع اكبر عدد ممكن من الاوراق الرابحة قبل ان يباشر المرحلة النهائية ؟ إن جميع الوزراء يؤكدون اليوم: «ان الجميع يعرفون اليوم ان استقلال الجزائر مكسوب وديغول يعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر. فالذي يفرض عليه هذه الخطة، انما هي اعتبارات تكتيكية .

– ان في ذلك فقداناً لمعنى الاستشارة الانتخابية . ان الرجـل السياسي مدعو ، بطبيعته ، الى اعمال ملتبسة مبهمة . فهو يواجـه اليمين واليسار ، وهو في الوسط ويحاول ان يراعي هـذا وذاك . واذا كان الوضع وضع ديكتاتورية ، حتى ولو كانت فوضوية كدكتاتوريتنا ، فانهـا تقدّم تنازلات دائرية ، أي انهـا تارةً تعطي هذا وتارةً تعطي ذاك – وهذا من شأنه ان يغضب الجميع .

ولكن الناخب ليس رجلاً سياسياً . والتصويت ليس هو تعاطي السياسة ، وانما هو اقرار او رفض سياسة ما بما تتميز بها حقاً من عدم التباس . فينبغي ألا يقال لناخب من الناخبين : « انـك ستصوّت لرجل يصطدم بهـذه العقبات او بتلك ، ويجب أن يراعي هـذا الفريق او ذاك ولكنه سيكون مدعواً الى ان يفعل شيئاً آخر غير ما يطلب منكم ان تقرّوه » بـل يجب ان نقدّم له اختياراً واضحاً .

يُقال لنا اليوم : « اذا صوّتم للقوانين الموقتة ، صوّتم للمفاوضة وحق تقرير المصير » فماذا يعني هذا ؟ فإما أن نصوّت للقوانين ، وفي هذه الحالة يكون حق تقرير المصير مفبركاً سلفاً ؛ وإمـا ان نصوت لنمنح ديغول السلطة الضرورية للمفاوضة . وفي هذه الحالة ، يكون السؤال سيء الطرح . كان ينبغي ان نسأل:

« هل تريدون سلاماً بالمفاوضة ؟ » فان نقول « نعم » للقوانين ، لا يعني قط أننا نعزّز مركز ديغول تجاه اليمين والجيش . إن هذين سيقولان : « صحيح أن الفرنسيين صوّتوا للقوانين ، ولكنهم لن يصوّتوا للمفاوضة » وهنا ترتدّ المكيافيلية على الـ « ماكيافيل » . وحتى لو حصل ديغول على ٩٠٪ من الأصوات ، فستكون أصواتاً يمكن تفسير الانتداب والوكالة فيها بأي تفسير ، ما دام جواب واحد يكون قد أُعطي لسؤالين متناقضين .

— والواقع أن القضية هي منح ديغول امكانية متابعة سياسته بان نترك له اختيار الوسائل .

— ما هي هذه السياسة ؟ إنها تتلخص بسنّ قوانين موقتة في الجزائر ، باعتبار أن بعض السلطات معطاة لأفراد مختارين من المسلمين والاوروبيين . ولن تكون لهذه القوانين أية سلطة على السكان ، كما أثبتت ذلك حوادث مدينتي الجزائر ووهران . والرجال الذين سيقبلون ان يُعيّنوا فيها سيُعتبرون من قبل الاكثرية المسلمة ، ومن قبل الاوروبيين على الأرجح ، كأنهم « كويسلنغ » . وعلى هذا فان سلطتهم لا يمكن ان تعتمد إلا على القوة . ولهذا فان جنود الاحتياط المحليين لن يكونوا كافين . بل لا بدّ من مساعدة الجيش الفرنسي .

فالتصويت للقوانين ، إجمالاً ، يعني منح الجيش الفرنسي امكانية البقاء في الجزائر ، لا « لينشر السلام » كما كان يفعل حتى الآن ، بل ليحفظ سلاماً يعتبر مكسوباً . فلن يتغير شيء في حقيقة الأمر . على ان العمل سيكون مختلفاً بعض الشيء . ان الجيش ، بدلاً من ان يطلق النار على رجال يناضلون من أجل استقلالهم ، ولكنهم بعد كل حساب مقاتلون ، وبدلاً من أن يقوم بعمليات بوليسية تحطه معنوياً ولكن يمكن ان تعتبر بحثاً عن الإرهابيين — بدلاً من هذا ، فان على الجيش ان يطلق النار هذه المرة على جموع عزلاء من السلاح . وهذا ما حدث خلال التظاهرات الأخيرة .

لقد طال الحديث عن الثلاثين قتيلاً الذين اثبت التشريح ان قاتليهم كانوا مدنيين . ولكن لما كانت الأرقام الرسمية مزوّرة ، وكان الاوروبيون انفسهم

يتحدثون عن ٥٠٠ قتيل بدلاً من ١٥٠ ، فيجب ان نستنتج أن المظليّين هم الذين قتلوا معظم هؤلاء . وهكذا سنكون امام جيش سيكون مضطراً طوال الوقت تقريباً ، بحجة ان السلام قد قام ، او هو على وشك ان يقوم ، الى اطلاق النار على المتظاهرين العزّل .

وإذن فان بالامكان ان نتساءل عما اذا كان الاستفتاء غير كافٍ ، بالفعل ، لتبرير إبقاء الجيش في الجزائر ، فيما هو يجعل طابع عمله أخطر . وربما كان ديغول غير ملاحظٍ ذلك . على ان المؤكد ان الجيش يميّز تمييزاً كبيراً بين الاستفتاء والمفاوضات . وبعد اعلان المفاوضات لم يكن موقفه هو الموقف المؤيد في آخر الأمر للاستفتاء . ولما كان همّه ان يبقى في الجزائر ، فهذا يعني انه يعتبر الاستفتاء عملية لاغية . وفي اسوأ الأحوال ، ما دامت جبهة التحرير الوطنية الجزائرية ترفض الدخول في لعبة الجنرال ديغول ، فان الحرب ستستمرّ كما في السابق . وفي أحسن الأحوال ، سيبقى الجيش حيث هو ، مستعدّاً عند اللزوم لاطلاق النار على الجماهير .

هذه هي المنظورات التي يوحي بها النصّ الذي يُطلب الينا ان نقرّه. وإذن، على الناخب ان يتساءل ببساطة : « هل اريد ذلك ، أم لا اريده ؟ »

– لقد قلت ان السؤال المطروح كان تضليلاً . وكثيرون يفكرون ، في هذه الحال ، بأن الاستنكاف او الورقة البيضاء هما أفضل الوسائل للتعبير عن رفضهم الدخول في اللعبة الحكومية والمشاركة في عملية مزيّفة منذ البدء .

– إنني هذه المرة اعطي الحكومة الحق ضد المستنكفين . إن الاستنكاف هو علامة الصفر : فالذي يكون مكسور الساق يستنكف مثل الذي لا يحب الحكومة او لا يكترث بالقضية كلّها . والورقة البيضاء تبقى أيضاً علامة ملتبسة . والواقع ان الاشخاص الذين يتجشّمون مشقّة الانتقال لكي يضعوا ورقة بيضاء في صندوق الاقتراع ، يثبتون انهم « ضد » ما يطلب منهم ان يُقرّوه . فليعبرّوا عن ذلك بوضوح بأن يصوّتوا بـ « لا » !

ولقد ادرك ديغول جيداً ان الاستنكاف يمكن ان يعبِّر عن عدم اليقين

واللامبالاة كالـ « لا » تماماً . فهو من أجل هذا يدعو الناخبين في خطابه الى عدم الاستنكاف ، حتى يتميّزوا عن الذين يستنكفون ليقولوا « لا » . ويمكن قلب الحجّة : إن جميع الذين يفكرون بالاستنكاف ليعبّروا عن معارضتهم لسياسة ديغول يجب ان يصوّتوا بـ « لا » لكي تظهر هذه المعارضة حقاً .

وان افضل طريقة لرفض اللعبة المزوّرة التي يريدون اشراكنا فيها ، ليست هي ان نقول « انني لا ألعب » – لأننا اذا لم نلعب لعب الآخرون باسمنا – بل ان نقول « لا » ، « لا » لهذا الرجل و « لا » للمكيافيلية ، و « لا » للمشروع الذي يقترحونه علينا .

أمّا همّ « ألاّ نمزج أصواتنا باصوات المتطرّفين» فيبدو لي ضد الديموقراطية كليّاً . فلعبة الديموقراطية نفسُها تريد ان تسقط الحكومات في المجالس النيابية بجمع أصوات المعارضتين . فهذا التحالف قد قام دائماً ، فلماذا نرفضه اليوم ؟

بل انا اذهب الى ابعد من هذا : إن « لا » المتطرفين هي « لا » صالحة . وهي صالحة لانها تعني : « إن سياسة ديغول لا تساوي شيئاً . وهي لا تساوي شيئاً لأنه يجب الاختيار بين بيع التصفية والحرب الى النهاية » . ونحن لا نقول شيئاً آخر ، إلاّ اننا نختار ، نحن ، ما يسمّونه « بيع التصفية » وليس هو كذلك لأنهم هم الذين يبيعون فرنسا إذ يهدمون في وقت واحد حظوتها الداخلية ومركزها العالمي . ولكنّ هناك ما هو صحيح في تحالف المعارضتين : انه يعني أن الحكومات تطبّق سياسة ملتبسة ومرائية لا ترضي احداً . وهذه هي الحالة اليوم .

ثم اننا نعرف، من جهة أخرى، أن كلمة « لا » اذا جاءت كثيفة وعديدة، فسيكون اليسار ، لا المتطرفون ، هو الذي أعطاها ، لأن تنظيمات اليسار قد طلبت الـ « لا » صراحةً من أعضائها ، وان اليمين المتطرف هو ضعيف جداً ، عددياً ، في فرنسا . وهل نتصور مجلساً يرفض الشيوعيون فيه ان يقبلوا حكومة لأنّ أقصى اليمين يتهيأ ليصوّت مثلهم ؟ إن هذا غير جدير حق

بالتفكير . وهو ذلك الوضع الحالي .

ولئن ذهب ديغول بسبب نسبة قوية أكثر مما ينبغي من الاستنكافات ، فهو سيترك وضعاً سياسياً غير واضح . اما اذا ذهب بسبب أكثرية صوّتت بـ «لا» ، فسيكون الوضع على غاية الوضوح: إنه سيذهب لأن فرنسا لا توافق على سياسته. من أجل ذلك ، كان الجواب الوحيد الممكن في نظري هو « لا » . إن المرء لا يستطيع ان يمشي في استعراض وهو يقول : « انا غير مشارك في اللعبة » فهو في صميمها . ولما كان الشَرك منصوباً ، فالطريقة الوحيدة التي تجنّب المرء من السقوط فيه ، هي ان يقول « لا » .

– يتّهم خصوم الـ « لا » اليسار بأنه يتبع سياسة الاسوأ إذ يقبل مواجهة خطر الفوضى التي سيكون المتطرفون المستفيدين المباشرين منها .

– يجب ان ننظر الى الامور كما هي : فنحن منذ عامين نحلم . وهو حلمٌ قد بدأ وردياً بالنسبة للبعض ولكنه يتحول رويداً رويداً الى كابوس بمقدار مـا يكتشفون أن حركة عسكرية تستطيع وحدها ان تصفّي قضية حرب الجزائر ومصير فرنسا السياسي . وقد تأجّلت هذه الحركة العسكرية مدة عامين بسبب التحكيم المزعوم لديغول . ولكنها ستقع حتماً .

والمصيبة أن هذا التحكيم لم يكن في صالح اليسار ، بل في صـالح اليمين . لماذا ؟ لأنّ عمل المتطرفين هو في جوهره سريّ – تشكيل فرق القتال ، تأمين مخزن السلاح ، تكوين نواة الادارات الخ – ولأن حياد البوليس العطوف قـد أتاح له ان ينمو .

اما سلاح اليسار ، فهو على العكس عمل الجماهير التي تقوم بالاضرابات والتي تتظاهر وتنزل الى الشارع . ولم تعرف احزاب اليسار ، او لم تُرد ، ان تشنّ هذا العمل – الذي كانت نتيجته منذ عامين غير مأمونة ولا شك ، ولكنهـا ربما ستكون أفضل اليوم – في حين ان شبكات المتطرفين لم تكن تكفّ عن تلقّي الامدادات وعن تعزيز قوتها .

وينبغي ألاّ نظنّ ان عامين او ثلاثة اخرى من العهـد الديغولي ستحسّن

الأوضاع، فليس من شأنها إلاّ أن تؤخر الاستحقاق وتجعله أكثر خطراً بالنسبة لليسار . واذا ظلّ ديغول في الحكم ، فستُتاح له سياستان : إمـــا المماطلة اللامحدودة – وهذا مـــا قام به حتى الآن – او الانتقال الى التفاوض . وهذا التفاوض ، اذا تمّ ، سيسجل القطيعة ، أي أنه سيؤدي الى قيـام تجربة القوة التي أُجّلت طوال هـذه المدة . إن بوسع الجيش ان يتحمل الاستفتاء والقوانين الموقتة لأنه يجد فيها ، على نحوٍ مـــا ، مصلحته . ولكنه لا يمكن ان يقبل المفاوضات .

وتجربة القوة هذه ، لا يعزّز الزمن حظوظنا في ربحها . فهناك أولاً هـــذا النوع من السلطة الكاريسماتية لديغول ، وهذه الشخصية شبه المقدسة التي كوّنها لنفسه، وهذا التمييز الكيفي الذي يقيمه، من جهة بين نموذج معيّن من الانسانية يمثله بعض الأفراد فقط في قرنٍ او حتى في التاريخ كله ، وبين الجماهير . وهـذا كله يساعد في تهميد الجماهير بتغذية حلم ديغولٍ « حالمٍ » ؛ وليس ثمة مـا يشير الى انه اذا ُقلب ، بعد سنتين او ثلاث ، بواسطة انقلاب عسكري ، فاننـــا سنملك امكانية معارضة ذلك على الفور .

انظروا الى ما حدث منذ شهرين : فحين بدأ اليسار حركةً – كان يبـدو انهـــا لا بدّ ان تتفتح – لصالح المفاوضة ، زرع ديغول الاضطراب في صفوفه باطلاق ِصيغٍ جديدة وباعلان الاستفتاء . اما هذا الاستفتاء فلا يجعلنا نتقدّم خطوة واحدة نحو حل المشكلة ، بل هو ُيغرق الناس من جديـد في اللايقين ، ويخلق في قلب اليسار انقساماً بـــين مؤيدي الـ « نعم » ومؤيدي الـ « لا » . فالخطر الذي يهدّدنا ليس إذن في ان يذهب ديغول ، بل في ان يبقى .

إن تجربة للقوة لا تعني بالضرورة سفكاً للدم . وإنمـا ذلك يعني فقط ان الناس في لحظة مـا يعدّون أنفسهم وينظرون ماذا يمكن ان يفعلوا . ان الجيش مقسّم . ولا شك في ان أحداث مدينتي الجزائر ووهران قد زعزعت عدداً من الضباط والنقبـاء والمقدّمين الذين كانوا يعتقدون حتى ذلك التاريخ انهم يقاتلون عصابةً من المتمرّدين . وحين رأوا الجماهير المسلمة في الشوارع ، قـالوا : « إن

كل شيء ينبغي ان يبدأ من جديد ، وهـــذا لا يسلـّيهم كثيراً . وهم يشعرون كذلك انها ليست بعدُ الحرب نفسها ، وأن شيئاً مــا قد ُفقد ، وان القضية ليست هي بعدُ استعمال عمليات عسكرية لتنظيف بلاد يسودها الاضطراب .

– كثيرون ينسبون لديغول فضل انتشار هـــذا الوعي في الجيش . وهم يظلـّون على اعتقادهم انـه هو الوحيد القادر على ان يحدّ تدريجياً صمود الجيش بتجنب تجربة القوة التي تعلنونها .

– أهو ديغول الذي فتـــح أعين العسكريين ، أم هم الخمسمئة قتيل الذين سقطوا في مدينــــة الجزائر ؟ انهم ليسوا هم الضباط ، كما ادّعى البعض ، الذين دعوا المسلمين ان ينزلوا الى شوارع حي القصبة . لقد نزلوا من تلقاء أنفسهم . وما حدث ، لم يكن يتوقعه أحد . وكان ديغول يعتقد ان بالأمـــكان احتجاز عدد من السكان الاوروبيين المهتاجين في المدن الكبيرة ، وانه سيكون باستطاعته هو ان يقوم في هدوء برحلته . وليس هذا ما حدث إطلاقاً .

والدليل انه كان هو اول المندهشين ، لأنه لم يومىء اية ايمـاءة الى الحادث ، ولم يستخرج منه أي درس . ومع ذلك فقد كان من اليسير ان يقول للفرنسيين: « ترون ان الجزائريين بحاجة الى ان يعـبّروا عن آرائهم . فبدلاً من ان ندعهم ينزلون الى الشارع ، لنعطهم امكانية ان يختاروا بانفسهم مصيرهم . » ولكنه لم يفعل ذلك . لماذا ؟ لأن هذا يزعجه . لأن تظاهرات مدينــة الجزائر تثبت ان ليس ثمة قوة ثالثة ، وأن نظامه كله ينبغي ان يستند بعد الآن على الجيش .

واذن ، فليست سياسة ديغول هي التي تتعب الجيش . وانما هو الواقع . ان ديغول يكتفي بأن يقدّم ، بين الفينة والفينة ، قليلاً من الكلوروفورم . وهذا ما يعود بالخير على المهتاجين في الجيش لأن ذلك يتيح لهم ، حين يقبلون التسويات ، ان يبقوا في الجزائر . ولكن ذلك لا يريهم الحقيقة . إن الحقيقة تظهر ، وستظل تظهر ، بالرغم من ديغول .

ولئن كانت تجربة القوة تبدو لي لا مفرّ منها ، فذلك لأننا لسنا أمام اطفال او مجانين . انهم يتحدثون عن « المهتاجين » وعن « الاضطراب »... وليس هذا

هو الحقيقة اطلاقاً . انها قضية أشخاص لهم مصالح واضحة يريدون ان يحموها. ومصلحة الجيش هي الجزائر . فما عساه ان يصبح ، بدون الجزائر ؟ انه سيصبح جيشاً لعام ١٩٣٩ سيعود الى ثكناته لينتظر ان يُذبح فيها على قدم المساواة مع السكان المدنيين يوم تنشب حرب ذرية .

وماذا تريدونه أن يفعل غير ذلك ؟ انهم ليسوا عسكريين إلا في الجزائر . أما في فرنسا ، فهم مدنيون مثلنا ، باستثناء ان لهم الحق بأن يحملوا رشيشاً كما كان يحق للنبلاء تقريباً ان يحملوا سيفاً. وليس لهم أي وزن في القرارات العالمية. ولا تغير القنابل الثلاث التي فجّرناها اي شيء في الأمر . وهم ليسوا حريصين الى حدّ بعيد على جعل جيشهم عصرياً ، لأن ذلك سيؤدّي الى تقاعد عددٍ من الفئات التي تنجح في جعل الجنود يقومون بنصف دورة ولكنهم سيكونون عاجزين عن خوض حرب تكنيكية . وعلى هذا ، فان مغادرة الجزائر في جميع الاحوال ستؤدي الى موت جيشنا .

– إلا اذا جاء يستولي على السلطة في فرنسا ، للحيلولة دون هذا التطور بالذات ...

– تماماً ! فحين يدرك الجيش انه لم يبق له من عمل في الجزائر ، فان من الممكن – ولا أقول من المرّجح – ان يحاول الاستيلاء على السلطة في المتروبول. والقضية هي معرفة العناصر التي يمكن ان تقاومه . أهي الحكومة ، التي خضعت له طوال الوقت ؟ بالطبع لا ! الاتحاد الوطني للمقاومة ؟ إن الاتحاد الوطني للمقاومة ليس شيئاً. انه تجمُّع أشخاص يقولون «نعم» . والقوة الوحيدة التي يمكن ان تقاوم ، هي الجموع . وليس ثمة سواها .

وليس من المؤكد ان يحدث هذا الانقلاب العسكري ، لأن الجيش يميل الى الانقسام ، لا بين ديغوليين ومناهضين للديغولية ، ولكن بين أشخاص يصرّون على ان يروا حرب الجزائر حرب حركات عسكرية ، واولئك الذين يرون فيها اكثر فأكثر ما هي حقاً ، اي الاضطهاد المنظم لشعب برّمته . وليست هذه ظروفاً مناسبة لمحاولة القيام بانقلاب .

ثم إن هناك ضباط الاحتياط الذين هم أشخاص مثلك ومثلي والجنود الذين تغيروا منذ حين . والفضل في تغيُّرهم لديغول ، لا لأنه كان يريد وقف الحرب ، بل متابعتها . ولقد رأوا السنة الخامسة للحرب تصل ، ثم السنة السادسة .

ولهذه الشبيبة قصة : فقد تخلينا عنها ، في البدء . ومنذ خمسة أعوام ، لم يكن المجنّدون يريدون الذهاب . وقد ثاروا ، كما حدث في ثكنة « روان » ، وساعدهم العمال . ولكن أوامر جاءت فانتهى كل شيء . وقد ذهبوا يداخلهم الشعور بأنهم كانوا ضحية خيانة ، وبأن جميع الناس ، من أقصى اليسار الى اليمين ، كانوا مجمعين على خوض هذه الحرب . وحين رأوا انهم بحاجة الى قدر كبير من الشجاعة للقيام في وجه جيش يمكن ان يصفهم بأنهم «خونة» ويعدمهم رمياً بالرصاص ، استسلموا .

ولقد حقدوا علينا . وقد رأيت كثيرين ، في تلك الأعوام ، كانوا قد حضروا – أو ربما شاركوا قسراً – في أشياء غير جميلة ، ولكنهم كانوا يرفضون ان يحكوها ، قائلين : « ما الذي تشكونه بعد كل حساب ؟ لقد تركتمونا نفعل » وكان ذلك اشبه بحقد ولدٍ على أبيه .

أما أفتاهم ، الذين رأوا أنفسهم مهيّأين لهذه الحرب منذ كانوا في الرابعة عشرة ، والذين رأوا افراد الجيل الذي يكبرهم سنّاً يعودون ويروون لهم قصصاً أكمل من التي رووها لذويهم ، فإن لهؤلاء عقليةً مختلفة جداً . وليس ذلك لأن الحرب هي على وشك ان تقف . بل لأنها تستمرّ . وهم قد وعوا أنفسهم ضد ديغول .

فاذا ذهب ديغول غداً ، فما الذي سيحدث ؟ إن اليسار ، طبعاً ، غير منظّم . ولكنّ هذا هو تاريخه كلّه ، فقد كان دائماً غير منظّم . وهو دائماً مفاجأ بالأحداث . وقد قيل دائماً : اذا لم يتفاهم رجال اليسار امام جدران السجن ، فهم يتفاهمون حين يكونون خلف السجن ، اذا وقع حادث قاسٍ ، فوجيء اليسار مفاجأة كلية ، فاذا به يستسلم في الاوقات الأولى . ولكن هذا لن يدوم . أولاً لأن الشانتاج الذي يمارسه ديغول لا يمكن ان يعاوده أي شخص

آخر . فهل ثمة من يتصوّر ان بامكان السيد موريس أو السيد سوستيل أو السيد بيدو أو الجنرال سالان أو حتى الجنرال ماسو ان يصبحوا أشخاصاً شعبيين ؟ إن هذا لا معنى له . إنهم لن يكونوا مؤيَّدين حتى من القوى الرأسمالية التي تهمّها الجزائر كثيراً والتي تتمنّى ان ترى الحرب منتهية . ثم إن اليمين ، هو أيضاً ، غير مهيّأ . إن عليه ان يتغلب على انقسامات داخلية كثيرة .

لقد كانت جميع الفاشستيات شعبية ، في أول امرها ، لأنها كانت تحمل ، ولو بصورة وهمية ، شيئاً جديداً للناس . ففي المانيا ، كان المطلوب محو الهزيمة ومحاربة البطالة . ولكنهم لن يجنّدوا الشعب الفرنسي ليقولوا له : « ان هزيمتنا في الجزائر محتملة. فلننته منها ! لنقتل جميع الجزائريين ! إننا سنضاعف الضرائب ونواصل الحرب . » إن هذا غير معقول ؟ إن مشاركة الجموع ، في العهد الفاشي ، امرٌ على غاية الأهمية . مشاركة قصيرة المدة ولكنها تتيح بواسطة الاحزاب الفاشية ، كالفرع العسكري في الحزب الوطني الاشتراكي الماني ، اقامة صلة دائمة بين القاعدة والديكتاتور . إن هناك مشاغبين ومحرّكين يرهبون الجموع ولكنهم يستطيعون ان يحملوا الى القمَّة معلومات ثمينة : « حذار ! يجب الاّ تذهبوا بعيداً في هذا الاتجاه ، بل ان تندفعوا في تلك الجبهة ... »

وليس في فرنسا حزب فاشي قادر على ان يمثّل هذا الدور . وليس صبية الدائرة السادسة عشرة هم الذين سيقومون بذلك . ولا بدّ لهذا من أشخاص نابعين من الشعب، عمال عاطلين عن العمل، كعمّال برلين ، الذين كانوا ينحازون الى جانب النازيين لأنهم كانوا يقدمون حساء شعبياً افضل من ذلك الذي يقدّمه الشيوعيون . وحين كنت في برلين عام ١٩٣٤ ، كان ثمة كثير من العمّال الذين أصبحوا نازيين يحتفظون ، من غير ان يدركوا ذلك ، بالمفردات الماركسية ، وكانوا يقدّمون لي تعليلاً ماركسياً لتفوّق هتلر . وليس شيء من ذلك موجوداً في فرنسا .

ومن جهة أخرى ، فان فاشيةً فرنسية ، اذا قامت ، تشكل خطراً عالمياً هائلاً لا يمكنها معه ان تتمتع بحظّ البقاء . وأول شيء يفكّر به الاميركيون

هو ان ردّ الفعل الشعبي الذي لا مفرّ منه سيؤدي الى « الجبهة الشعبية » والى انتصار الشيوعيين . وهم لذلك سيسعون للتخلّص من الحكومة الفاشية بأسرع وقت ممكن ، قبل ان تُقلب بعمل شعبي . بل إن هناك مجالاً للتمنّي بألاّ يختطفوا منا حظوظ ديموقراطية حقيقية تقوم عندنا .

وعلى أي حال ، فان تجربة القوة ضرورية لأنها مرسومة في وضع الأمر الواقع . إن البشر يحلّون اوضاع الأمر الواقع بوقائع ، لا باللجوء الى النفوذ والتأثير . فيجب ان نخشى ما قد يحدث اذا ذهب ديغول ، ولكن نخشاه مع الأمل . ويجب ان نخشى أكثر من ذلك بقليل ما سيحدث اذا بقي ، ولا سيما مع اكثرية من اصوات « نعم » لا تجبره على شي ولا تزيد حق سلطته على الأشخاص الذين يشكّون في هذه السلطة .

إن التصويت بـ « نعم » رفض لليقظة ، ومحافظة على الحلم . اما التصويت بـ « لا » فهو يقظة . وهذا يعني : حسبُنا ما أصبناه من خداع ، طوال عامين، على يد هذا الرجل[1] .

---

(١) جريدة « الاكسبريس » العدد ٤٩٩ ، كانون الثاني ١٩٦١ .

# المروّضون ..

مساء أمس ، كان الناس يتجمّعون حول باعة الصحف ؛ وكان البرد يفرّقهم بسرعة ، ولكنهم كانوا يملكون وقتاً ليلقوا نظرة على العنوان الرئيسي ، وكان ذلك يكفيهم. وكان ثمة رجل يقول بصوت مرتفع: « انتهى الامر، مع الجزائر. فلمن الدور ، الآن ؟ إن فرنسا يا سيدي تحارب منذ مئة وخمسين عاما . » وكان الناس يصغون اليه من غير ان يجيبوا ، ولكن من غير عداوة : لقد كان في جميع الرؤوس افكارٌ غريبة ، لمّاعة وملتاثة . وكان قــد قال خصوصاً : « انتهى الأمر » لم يكونوا يريدون ان يحتفظوا إلاّ بهذا : انتهى الأمر . انتهى الأمر ، مع الجزائر . وفي مطاعم الحيّ ، كان الراديو يخرج من خرسه المعتاد ، راعداً : وكانوا يصغون اليــه دون ان يصغوا . وكان يدخل أشخاص ، فيعتذرون عن تأخـّرهم ، ويصافحون الأيدي ؛ وكان يُقال لهم : « لقد اتـُفق على وقف النار » فكانوا يجلسون وهم يقولون : « نعم ، نعم ، اعرف ذلك » ثم يتحـدّثون عن أشياء أخرى . وكان للجدران في باريس كلـّها آذان . آذان من منظمة الجيش السرية . ثم انهم لم يكونوا يريدون أن يصدموا أحـداً : فهل يعرفون ، بعـد سبع سنوات من الحذر ، ما عسى يفكـّر به الجيران ؟ كان الوحيـدون الذين يستطيعون ان يتحدّثوا بصوت عالٍ : هم المتطرفين . وقـد سمعت اثنين منهم يضحكون من فرط الغضب في مكان عـام . امـا الآخرون ، فكانوا برغم لامبالاتهم المصطنعة ، ورغم صمتهم ، يسمحون لأنفسهم أحياناً ببسمة عزاء مبهمة.

عزاء ، ليس غير : هذا ما كان يلفت النظر ، أمس ، في شوارع باريس .

ويجب القول إن الفرح غير مقبول : فان فرنسا منـــذ سبعة أعوام كلبٌ مجنون يجرّ آنية في ذنبه ويزداد كل يوم ذعراً من ضجيجهـا . وليس من يجهل اليوم اننا هدمنا وجوّعنا وذبحنا شعباً من الفقراء ليركع على ركبتيه. وقد ظلّ واقفاً . ولكن بأيّ ثمن ! وفي اللحظة التي ينهي فيها الوفدان المفاوضات ، كان باقياً مليونان وأربعمئة الف جزائري في معسكرات الموت البطيء ؛ وقد قتلنا من الجزائريين أكثر من مليون . وأما الأرض فمهجورة ، والدوارات مهدّمـة بالغارات ؛ وأما المواشي ، وهي ثروة الفلاّحين الهزيلة ، فقـد اختفت . بعـد سبعة أعوام ، يجب على الجزائر ان تنطلق من الصفر : أن تكسب أولاً السلام ، وأن تتشبّث ، بأقصى الجهد، بهذا البؤس الذي سيكون هديتنا بمناسبة الفصل. إننا لا نجهل بعدُ شيئاً ، ونحن نعرف ما الذي فعلنــاه : وقـد كان الباريسيون عـــام ١٩٥٥ يصرخون فرحـاً لأنهم كانوا يُحرّرون من آلامهم ؛ وهم اليوم يستشعرون هـذا العزاء الصامت لأنهم يُحررّون من جرائمهم. لا من جرائمهم — فالجرائم التي ارتكبناها ، نعلم جيداً أنها لن تمحى بمثل هذه السرعة — وانما من وجوب اقتراف غيرها . ولقد آن الاوان : لنا أيضاً. إن الماشية عندنا لم تنقص ، وبوسعنا ان نتأكد من ذلك ، وارتفع مستوى الحياة ارتفاعـاً خفيفاً. ولكن لكي نتجنّب بيع التصفية العظيم لامبراطوريتنا ، بعنـا فرنسا : ولكي نصنع أسلحة ، قذفنا بقوانيننا ومؤسساتنا في النار ؛ وقد احترق كل شيء: حرياتنا ، وضماناتنا ، والديمقراطية والعدالة . ولم يبق منها شيء . ولا يكفي ان نقف القتال لنستردّ خيراتنا المهدورة : فأنا أخشى ان يكون علينا ، نحن أيضاً ، على صعيد آخر ، ان ننطلق من الصفر . امـا الجزائريون ، فقـد احتفظوا بقوتهم الثورية . فأين هي قوتنا ؟

لقد نزل إعلان « وقف النار » على الاذهان كما ينزل خبرٌ « من الخارج » : خروتشوف سيجتمع بكندي ، وسيتفاهمان حول برلين ، وستوقف التجارب الذرية . وقـد اهتاجت فرنسا حين طاف « غلين » بالعـالم . ويبدو أنـه كان

« نصرنا » نحن . كان الناس في السينما يصفّقون . إن هذه الهدنة الرخصة ليست هي « نصرنا » . ذلك ان الشعب الفرنسي لم يعرف أن يفرضه . لقد صوّت الناخبون ، عام ١٩٥٥ ، لصالح السلام ؛ فكشّف النوّاب الحرب ، ولم نقل شيئاً ؛ وثارت ثكنات ، ولم يكن الجنود يريدون ان يقتلوا ، ولا ان يُقتلوا . فلم نقل شيئاً : فكان أن حُطّمت مقاومتهم . ومن غير ان نقول شيئاً ، تركنا النظام الديموقراطي يفقد شرفه تحت ضغط الجيش . وحين استبدل به العسكريون نظام السلطة الشخصية ، ظللنا على صمتنا . واليوم ، نجد حكومة انقلاب مجبرةً على ان تعطينا ما كنّا نطالب به ، في استحياء ، منذ سبعة أعوام ، ونصمت : وهذا طبيعي ، ما دامت هذه ليست قضيتنا . إن واحداً في فرنسا يفيد من وقف اطلاق النار : هو ديغول . ومع ذلك ، فيكفي ان نعيد قراءة خطبه لنقيس الطريق التي اجتيزت من « مستغانم » الى مفاوضات « افيان » . لقد عمل كل شيء ، حتى قلب رمال الصحراء ، ليكتشف « قوته الثالثة » . وليس الذنب ذنبه اذا كانت البورجوازية المسلمة ، أثيرة قلبه ، غير موجودة في الجزائر . لقد تقرر كلُّ شيء ، وُقلبت سياسته حين انفتحت المدن المسلمة ، ورأينا جموعاً بلا سلاح تتقدّم نحو جنودنا وهي حاملة أعلامها . والحقيقة أن « وقف اطلاق النار » هذا الذي يسرعون في إعلانه « بلا غالب ولا مغلوب » انما فرضه الشعب الجزائري . فرضه وحده بمقاومته الفائقة وتنظيمه . ولهذا السبب بالذات تصبح هذه « التسوية » نصراً جزائرياً . على أن الأحداث قد اثبتت اننا ، نحن الفرنسيين ، كنا متضامنين مع هؤلاء الرجال الذين كانوا يناضلون ضد الاستعمار . ضد الاستعمار هناك ، وضد الفاشية هنا : وهما شيء واحد . ولا تستطيع « منظمة الجيش السرية » ان تجعل من المغرب مستعمَرة إلاّ اذا بدأت باستعمار فرنسا . الاعداء أنفسهم ، والمصالح نفسها ، وضرورة التعاون بالمساواة : فماذا تريدون أكثر من ذلك ؟ لو أننا نفضنا حياءنا الكسول ، ولو أن اليسار كان قد تغلب على انقساماته ... صحيح ان اليسار الذي ما يزال متفككاً وأشدّ صخباً منه اقتناعاً ، يصرخ بالنصر ملء فمه : إنه

نشاز فظيع . لا جدوى منه : ان الجزائريين يطالبون بالاستقلال منذ عـــام ١٩٥٤. ولكن أي حزب أخذ هذا المطلب على عاتقه، من جميع هذه الاحزاب المتنافسة ، قبل عام ١٩٦٠ ؟ أي حزب قد حاول باخلاص ان يجعل منه المطلب العميق لجميع الفرنسيين ؟ كان البعض يطالبون بـ « الحق بالاستقلال » — وكانوا يضيفون وهم يغمزون بأعينهم : « إن الحق بالطلاق لا يعني إجبار الزوجين على الانفصال » وكان الآخرون مشلولين : « الاستقلال ، انني اذهب الى أبعـد من هـذا . » والنتيجة هي « وقف اطلاق النار » : هزيمتنا . ونحن لسنا مهزومين لأننا اعترفنا بحق شعب في ان يتصرف بنفسه ، بـل لأننا شاهدنا أعظم مغامرة واشدها ظلاماً من غير ان نحاول قط ان نشارك فيها . وكم حياةً كانت قـــد وُفـّرت لو أظهرت الجموع الفرنسية قوتها ! اجـــل ، إن هزيمتنا ليست هي الاستقلال . وانما هي هذا المليون من الجزائريين الذين تركناهم يُقتلون . كنا ضعيفي الارادة ، ثم مترددين ، ثم تخلينا نهائياً حين سلمنا سلطاتنا الى ديكتاتور لكي يقرّر ، من غير ان يستشيرنا ، الوسيلة الفضلى لتصفية القضية : كنا نغسل ايدينا من الاستئصال ، والتجميع والتوزيع ، والدمج ، والاستقلال ؛ فقد كان هذا يخصّه وحده . وتجاوزت النتيجة آمالنا : لقد ربح الجزائريون حريتهم ، وفقد الفرنسيون حريتهم . وامام اولئك عمـل كبير ؛ وهم لم يوقعوا بروتوكول الاتفاق بـــلا ضيق وقلق ؛ انهم يعرفون ان وقف اطلاق النار منطلق ثوري ، بدء البداءة . اما بالنسبة لنا ، فهي النهاية : وهذا تخلص طيّب ؛ ونحن نردّد : « انتهى الأمر » بعزاء خفيّ .

ان الأمر لم ينته ، فالتعبئة ليست الحرب، وليس وقف اطلاق النار السلام. ان في الجزائر أشخاصاً مسلحين يحيطون بالسكان الاوروبيين ، وتكتيكهم وهدفهم معروفان : انهم سيقذفون الفريقين وجهاً لوجه باستفزازات لا تنقطع ، وستجبر المذابح الجيش الفرنسي على ان يطلق ناره على المسلمين، وستشتعل الحرب من جديد ، ولا يكون « وقف الاطلاق النار » بعد ذلك الا قصاصة ورق . الا اذا فضلوا ان يخربوا حق تقرير المصير . صحيح أن شيئاً من هذا كله لن يحدث

اذا ظل الجيش موالياً . ولكن اتراه يظل كذلك ؟ لنفرض ان اوروبيين بادروا الى احداث مذبحة ، وان ليس ثمة الا وسيلة واحدة لايقافهم ، فهل يعمد الجيش الى هذه الوسيلة ، فيطلق النار على المشاغبين الاوروبيين ؟ ان الفرنسيين - حين يتنازلون فيهتمون بالسياسة - لا يكفـّون عن ادارة هذه الاسئلة في رؤوسهم من غير ان يجدوا لها جواباً ، ولهم في ذلك سبب ، فليس ثمة ما يدل اوضح من هذا على تخليهم . انهم يتساءلون عن الموقف الممكن للضباط ، وعن ولائهم ، وعن العلاقات التي تربطهم بالفاشية ، وبالسكان الاوروبيين ، وبالانقلابيين القدامى ، كما لو أن الجيش وحده ، المستقل السيد ، هو وحده الذي يقرر مصيرنا . وهذا خطأ : ان على الجيش ان يطيع الشعب . وحين لا يطيعه، فالذنب في ذلك ذنب الامة نفسها . ولكل أمـة ، في آخر المطـاف ، الجيش الذي تستحق . وأنا اعترف بأن الاخطار لم تكن يوماً أكبر مما هي الآن : فما كاد هذا الأمل الضعيف يولد حتى بدأنا نخشى المجازر المقبلة ، على كلا الجانبين . وبهـذا السبب نفسه ، بهذا الخطر المشترك ، يحتفظ الفرنسيون بحظ ان يصبحوا من جديد « شعباً » . إنهم لم يعرفوا ان يعجلوا وقف اطلاق النار . وقد مرّ تاريخ حقبتنا كـله فوق رؤوسهم ، فهم ذاهبون الى مصيرهم كالمروبصين : فليكن . ولكنهم قد وصلوا، وعيونهم مغلقة ،الى مفترق الطرق، فلينظروا: سوف تنتصر اللامبالاة القطيعية، وتبعث الحرب من جديد ، ويستولي سالان على الحكم . او وحـدة العمل بلا تحفظات ، والنضال من أجل السلام ، وسالان الى المشنقة . إن من العبثي اللامعقول اليوم ان ندعي اننـا نناضل « هنا » ضد « منظمة الجيش السرية » - وهو خطر ضئيل بما فيه الكفاية في فرنسا - من غير ان نجبر الحكومة على ان تناضل ضدها هناك ، حيث لا شك في قوتهـا . ومن العبث والاجرام ان ندعي ان بالامكان فصل النضال ضد الفاشية والقتال من أجل السلام . يجب ان نفهم اننا نملك اليوم هذا الحظ ، الوحيد ، بان نوجد من جديد : وهو ان نبقي الجيش في الولاء بأن نتحد جميعاً لكي «نضمن تنفيذ» الاتفاقات الموقعة . وبهذا الشرط، يصبح « وقف اطلاق النار » بالنسبة الينا ايضاً ، بدء البدء .[1]

(١) « التان مودرن » العدد ١٩١ ، نيسان ١٩٦٢ .

# «معذّبو الأرض»

كانت الأرض ، منذ عهد غير بعيد ، تعدّ مليارين من السكان، منهم خمسمئة مليون من البشر ، ومليار وخمسمئة مليون من السكان المحليين، وقد كان الأولون يمتلكون الكلمة ، بينما كان الآخرون يستعيرونها . وبين أولئك وهؤلاء ، كان ملوك صغار مباعون ، واقطاعيون ، وبورجوازية مزيفة ملفقة كلها ، يتولون دور الوسطاء . وفي المستعمرات ، كانت الحقيقة تبدو عارية ، ولكن « المتروبولات » كانت تفضلها كاسية ، وكان على ابن البلد ان يحب المتروبول ، كما يحب امه ، على نحو ما . وباشرت النخبة الأوروبية صنع نخبة من السكان المحليين، فكانت تختار مراهقين وتطبع على جباههم ، بالحديد الحامي ، مبادىء الثقافة الغربية ، وتكم افواههم بكلمات ذات إرنان ، كلمات كبيرة دبقة كانت تلتصق باسنانهم ، وبعد اقامة قصيرة في المتروبول ، كانوا يعيدونهم الى بلدهم ، مزورين. ولم يكن ثمة ما يبقى لهؤلاء الأحياء الاكاذيب ليقولوه لاخوانهم ، كانوا يرسلون الصدى ، ومن باريس ، ومن لندن ، ومن امستردام ، كنا نطلق كلمات : « بارتينون ! اخاء ! » فتنفتح في مكان ما بافريقيا وآسيا شفاه تردد : « .. نون ! .. خاء ! » وكان ذلك هو العهد الذهبي .

وانتهى العهد الذهبي : ان الافواه تتفتح من تلقاء نفسها ، وكانت الاصوات الصفراء والسوداء ما تزال تتحدث عن نزعتنا الانسانية ، وانما كانت تفعل ذلك لتأخذ علينا لاانسانيتنا . وكنا نستمع في شيء من الاستياء الى خطب

المرارة هذه المتأدبة . وقد أخـذنا أولاً بدهشة مسحورة معتزة : كيف ؟ انهم يتكلمون من تلقاء أنفسهم ؟ انظروا مع ذلك مـا الذي صنعنا بهم ! ولم نكن نشك في انهم يقبلون مثلنا الأعلى ، ما داموا يتهموننا بأننا لم نكن امناء له،وعلى الاثر ، آمنت اوروبا برسالتها : فهي قد جعلت الاسيويين يونانيين، وخلقت هذا الجنس الجديد : الزنوج اليونانيين اللاتينيين . وكنـــا نضيف فيما بيننا ، بدافع من روح عملي : ثم لندعهم يزعقون ، فان ذلك يعزيهم ، ان الكلب الذي ينبح لا يعض .

وجاء جيل آخر ، نقل مكان المسألة . وقد حاول كتابه وشعراؤه ، بصبر لا يصدق ، ان يشرحوا لنـا ان قيمنـا لم تكن تنسجم مع حقيقـة حياتهم الا انسجاماً رديئـاً ، وانهم لم يكونوا يستطيعون ان يطرحوهـا تمامـاً ، ولا ان يتمثلوها تماماً . وكان هذا يعني بالاجمـال : انكم تجعلون منـا مسوخـاً ، فان نزعتـكم الانسانية تدعي اننا عالميون ، ولكن طرائقكم العنصرية تجعلنا خاصين كل الخصوصية . وكنا نستمع اليهم ،مرتاحين : ان حكام المستعمرات لا يؤجرون لكي يقرأوا هيغل ، وهم لهذا قلما يقرأونه ، ولكنهم ليسوا بحاجة الى هـــذا الفيلسوف ليعرفوا ان الضمائر الشقيـة كانت تتشوش بتنـاقضاتهم . وتكون النتيجة انعدام الفعالية . اذن ، فلنطل شقاءهم ، فلن ينتج من ذلك الا الريح . وكان الاخصائيون يقولون لنا:لو كان ثمة ظل مطلب واحد في أنينهم وشكواهم، فانه سيكون مطلب الاندماج. وبالطبع ، لم يكن أمر تحقيقه لهم وارداً:والا لهدمنا النظام الذي يقوم ، كما تعلمون ، على الاستغلال في أقصى حدوده . ولكن سيكفي ان نلوح امام أعينهم بهذا الاغراء الخادع، حتى يركضوا فرحين. وكنا مطمئنين كل الاطمئنان الى انهم لن يثوروا : فأي ابن بلد واع يبلغ به الأمر ان يذبح ابناء اوروبا الجميلين لغاية واحدةهي ان يصبح اوروبياً مثلهم؟وبالاختصار فقد كنا نشجع هذه الألوان من الحنين ، ولم نجد رديئاً ، ذات مرة ، ان نمنح زنجياً جائزة غونكور . كان ذلك قبل عام ٣٩ .

١٩٦١ . اسمعوا : « لا نضع الوقت في ترديدات عقيمة او تقليدات مغثية .

بل لندع هذه الاوروبا التي لاتني تتحدث عن الانسان فيما هي تقتله حيث وجدته، في كل منعطف من منعطفات شوارعه بالذات، وفي كل زوايا العالم . ها قد مرت قرون ... وهي تخنق ، باسم « مغامرة روحية » مزعومة ، بمجموع البشرية تقريباً » . ان هذا الصوت جديد ، فمن الذي يجرؤ على النطق به ؟ افريقي ، انسان من « العالم الثالث » ، استعمرناه من قبل . وهو يضيف: « لقد اكتسبت اوروبا سرعة جنونية فوضوية بلغ من أمرها انها تمضي نحو مهاوٍ يحسن بنا ان نبتعد عنها » انها بعبارة أخرى ، هالكة . تلك حقيقة ليس جميلاً ان تقال ، ولكننا جميعاً ، لحماً وجلداً ، مقتنعون بها ، أليس كذلك يا شركائي القارّيين الاعزاء ؟

على انه لا بد من تحفّظ هنا . فمثلاً حين يقول فرنسي لفرنسيين آخرين : « اننا هالكون ! » – وهذا ما يحدث ، كما أعلم ، كل يوم تقريباً منذ ١٩٣٠ – فان ذلك يكون خطاباً عاطفياً ، ملتهباً بالغضب والحب ، وفيه يضع الخطيب نفسه في مغطس واحد مع جميع مواطنيه . ثم يضيف عادة : « الا اذا ... » والمقصود من ذلك واضح : فليس بعد خطأ يرتكب ، فاذا لم تتبع توصياته حرفياً ، فعند ذلك ، وعند ذلك فقط ، تنهار البلاد . وبالاختصار، فهذا انذار تتبعه نصيحة ، وهذه الأحاديث اقل ايلاماً ، لا سيما وأنها صادرة عن ذاتية قومية متبادلة .

اما حين يقول « فانون » عن اوروبا بأنها تسعى الى حتفها ، فهو على العكس يقترح تشخيصاً للمرض ، ولا يرسل صرخة انذار . ولا يدعي هذا الطبيب ادانة أوروبا ، بلا استئناف – فقد حدثت هناك معجزات – ولا يقدم لها وسائل الشفاء. وانما هو يقرر انها تحتضر ، من الخارج، معتمداً على العوارض التي استطاع ان يسجلها . أما معالجتها ، فلا : ان في رأسه هموماً أخرى ، وسواء لديه ان تموت او تشفى . وكتابه من هذه الناحية ، مثير فاضح . واذا خطر لكم ان تتمتموا ، مازحين ومنزعجين : « ما أعجب ما يَصِمنا به ! » فمعنى ذلك ان طبيعة الفضيحة تفوتكم : ذلك ان فانون « لا يصمكم » بشيء على الاطلاق ، ان

كتابه -- الملتهب بالنسبة لآخرين الى أبعد حدود الالتهاب -- يظل بالنسبة لكم مثلوجاً. ان الحديث فيه هو غالباً عنكم ، ولكنه لا يتوجه اليكم قط. لقد انتهت جوائز الغونكور للزنوج ، وجوائز النوبل للصفر : فلن يأتي بعد أبداً زمن المرشحين المستعمرين. ان « ابن بلد » سابقاً ذا لغة فرنسية يطوع الآن هذه اللغة لمتطلبات جديدة ، فيستعملها ويتوجه بها الى المستعمرين وحدهم : « يا أهالي جميع البلاد المتخلفة ، اتحدوا ! » واي سقوط هذا : لقد كنا ، بالنسبة للآباء ، المحاورين الوحيدين ، اما الابناء ، فانهم لا يعتبروننا حتى محاورين صالحين : بل نحن موضوعات الخطب. ان فانون بكل تأكيد يشير في معرض حديثه الى جرائمنا العظيمة ، في سطيف ، وهانوي ومدغشقر ، ولكنه لا ينفق جهده في ادانتها : بل هو يفيد منها. وهو اذا كان يفضح طرائق الاستعمار ، واللعبة المعقدة للعلاقات التي توحد وتنصب المستعمِرين في وجه سكان المتروبول ، فانما يفعل ذلك من أجل اخوانه ، وغايته في ذلك ان يعلمهم كيف يفسدون علينا لعبتنا.

وبالاختصار ، فان « العالم الثالث » يكتشف نفسه ، ويتحدث الى نفسه بهذا الصوت. ومعلوم ان هذا العالم ليس متجانساً ، وانه لا تزال فيه شعوب مستعبدة ، وأخرى قد حصلت على استقلال مزيف ، وأخرى قد كسبت الحرية الكاملة ولكنها تعيش تحت تهديد مستمر لغزو استعماري. وقد ولدت هذه الفروق من التاريخ الاستعماري ، يعني من الظلم والطغيان. فهنا اكتفى المتروبول بشراء بعض الاقطاعيين ، وهناك فرّق ليسود ، ففبرك بورجوازية مستعمرين ، وهنالك ضرب ضربة مزدوجة : فجعل المستعمرة موضوع استغلال واسكان في وقت واحد. وهكذا ضاعفت اوروبا الانقسامات والتعارضات ، وصنعت طبقات وأحياناً عنصريات ، وحاولت بكل الوسائل والحيل ان تخلق طبقات متراكبة في المجتمعات المستعمرة وان تنميها. ولا يخفى فانون شيئاً : فان على المستعمرة القديمة ، لكي تقاومنا ، ان تقاوم نفسها بالذات. او ان الأمرين على الأصح ليسا إلا أمراً واحداً. فلا بد لجميع الحواجز الداخلية من ان تذوب في نار المعركة ، فبورجوازية التجار المضاربين العاجزة ، وبروليتاريا المدن المتمتعة بالامتيازات

دائماً ، والعاطلون في المدن التنكية ، عليهم جميعاً ان ينسجموا وأوضاع الجموع الريفية التي هي المستودع الحقيقي للجيش الوطني والثوري؟ ففي هذه المقاطعات التي أوقف فيها الاستعمار عمداً كل تنمية ، سريعاً ما تبدو طبقة الفلاحين حين تثور هي الطبقة « الجذرية » : فهي تعرف الطغيان العاري ، وتعاني منه اكثر مما يعاني عمال المدن ، وللحيلولة دون ان تموت جوعاً ، فهي بحاجة الى نسف جميع البنيات . فاذا انتصرت ، كانت « الثورة » الوطنية اشتراكية . اما اذا أوقف اندفاعها ، واستولت البورجوازية المستعمرة على الحكم ، فان « الدولة » الجديدة تظل في أيدي الاستعماريين ، بالرغم من سيادة شكلية ظاهرة . وهذا ما يشهد عليه شهادة كافية مثل كاتانغا . وهكذا فإن وحدة « العالم الثالث » لا تتم : انها مشروع للتحقق يمر ، في كل بلد بعد الاستقلال وقبله ، بتوحد جميع المستعمرين تحت قيادة طبقة الفلاحين .

وهذا ما يشرحه فانون لاخوته في افريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية : فاننا سنحقق جميعاً ، وفي كل مكان ، الاشتراكية الثورية ، او سنهزم واحداً بعد الآخر على أيدي طغاتنا الاقدمين . انه لا يخفي شيئاً ، لا جوانب الضعف ولا جوانب الخلاف ولا جوانب التضليل . وتأخذ الحركة هنا منطلقاً سيئاً ، وهناك تفوتها السرعة بعد انتصارات ساحقة ، وهنالك تقف تماماً : فاذا أريد ان تستعيد سيرها ، فيجب على الفلاحين ان يلقوا ببورجوازيتهم الى البحر . ويحذر فانون القارىء تحذيراً قاسياً من التخليات والتنازلات الخطرة : من مثل قيام الزعامات ، وعبادة الاشخاص ، والثقافة الغربية ، ولا يقل عن ذلك خطراً عودة الماضي البعيد للثقافة الافريقية : ان الثقافة الحقيقية هي « الثورة » ، وهذا يعني انها تصنع على الحار .

ان فانون يتحدث بصوت عال ، ونستطيع نحن الاوروبيين ان نسمعه : والدليل هو انكم تمسكون هذا الكتاب بأيديكم ، أتراه لا يخشى ان تفيد قوات الاستعمار من صراحته ؟

لا . انه لا يخشى شيئاً . ان طرقنا بالية : هي تستطيع أحياناً أن تؤخر

التحرر ، ولكنها لا توقفه. ولا نتخيل ان بوسعنا أن نقوّم طرقنا: ان الاستعمار الجديد ، هذا الحلم الكسول الذي تحلم بـه المتروبولات ، انما هو قبض ريح ، ان « القوى الثالثة » غير موجودة ، او انهـا البورجوازيات - التنكية التي سبق للاستعمار أن نصبها للحكم . ومكيافيليتنا ضعيفة التأثير على هذا العالم المستيقظ جداً الذي فضح أكاذيبنا واحداً بعد الآخر . وليس أمـام المستعمِر إلا طريق واحد : القوة ، حين يبقى له منها شيء ، وليس أمام ابن البلد إلا خيار واحد: العبودية او السيادة . فما عسى ان يهم فانون أن تقرأوا كتابـه أو لا تقرأوه ؟ فانمـا هو يفضح لاخوانه أساليب مكرنا القديمة ، وهو واثق من اننا لا نملك غيرها قطع غيار . وهو يقول لهم : لقـد وضعت اوروبا أقدامها على قاراتنا ، فيجب ان نجرحها حتى تسحبها ، واللحظة تناسبنا : فليس ثمـة ما يحدث في بنزرت أو البزابيتفيل او الريف الجزائري إلا وتعرفـه الارض كلها ، والكتل تقف متعارضة ، تشل كل منها الأخرى ، فلننفد من هـذا الشلل ، ولندخل التاريخ ، وليجعله دخولنا فيه عالمياً للمرة الأولى ، لنقاتل : فاذا لم نجد أسلحة أخرى ، فسيكفينا صبر المدية .

افتحوا ، أيها الاوروبيون ، هذا الكتاب، وادخلوا فيه ، فبعد بضع خطى تخطونها في الظلام ، سترون أجانب مجتمعين حول نار ، فاقتربوا منهم وأصغوا : انهم يناقشون المصير الذي يرصدونه لمواقعكم التجارية وللمرتزقة الذين يدافعون عنها . وقد يرونكم ، ولكنهم سيستمرون في التحدث فيما بينهم ، حتى من غـير أن يخفظوا الصوت . وهذه اللامبالاة تضرب القلب : ان الآباء الذين هم مخلوقات الظلام، مخلوقاتكم « أنتم » ، انما كانوا أرواحاً ميتة، كنتم تنشرون عليهم النور، ولم يكونوا يتوجهون الا اليكم ، ومع ذلك ، فانكم لم تتكلفوا الاجابة على هؤلاء الأشباح . اما الابناء ، فيجهلونكم : إن ناراً تضيئهم وتدفئهم، ليست هي ناركم. وسوف تشعرون، وأنتم على مسافة محترمة، بأنكم متخفون في الظلام، ترتعدون. ان لكل دوره . وفي هـذه الظلمات التي سينبثق منها فجر جديد ، ستكونون أنتم الأشباح .

قد تقولون : ما دام الأمر كذلك ، فلنلق هذا الكتاب من النافذة . مـــا جدوى ان نقرأه ما دام لم يُكتب لنا ؟ يجب أن تقرأوه لسببين :

الأول ان فانون يشرحكم لاخوانه ويفضح أمام أعينهم كيف أصبحنا تائهين: فأفيدوا من ذلك لتكشفوا أمام أنفسكم حقيقتكم الموضوعية. ان ضحايانا يعرفوننا من جراحهم ومن حديدهم : وهذا ما يجعل شهادتهم شهادة لا ترد . وحسبهم ان يطلعونا على ما فعلناه بهم حتى نعرف ما فعلناه بأنفسنا . أيكون هـذا مجدياً ؟ نعم ، ما دامت اوروبا تواجه خطر الموت الكبير . وقد تقولون ايضاً : ولكننا نعيش في المتروبول ونشجب الفظائع . وهـذا صحيح : فأنتم لستم مستعمِرين . ولكنكم لستم خيراً منهم . انهم روادكم ، لقد أرسلتموهم فـيما وراء البحار ، فأغنوكم ، وكنتم قـد حذرتموهم : اذا أراقوا من الدم اكثر ممـا ينبغي ، فانكم ستنكرونهم من أطراف شفاهكم ، وبالطريقة نفسها التي تغذي بهـا أيـة دولة عصبة من المشاغبين ومثيري الفـتن والجواسيس تكون قـد أرسلتهم الى الخارج ، لا تنكرهم حين يقبض عليهم . وأنتم ، المشهورين بنزعتكم الحرة ، والانسانية ، والذين تدفعون حب الثقافة الى حـد التصنع ، تتظاهرون بنسيان أن لكم مستعمرات وأن القتل فيها يجري باسمكم . وان فـانون يكشف لرفاقه – ولا سيما لمن ظلوا منهم غربيين أكثر مما ينبغي– تضامن سكان المتروبول مع عملائهم المعمرين . فلتكن لكم شجاعة قراءته : لهذا السبب الأول أنـه يثير شعوركم بالعـار ، وان الشعور بالعار ، كما يقول ماركس ، هو شعور ثوري . وترون اني أنا أيضاً لا أستطيع ان أتخلى عن الوهم الذاتي . فأنا أيضاً أقول لكم : « لقد فقدنا كل شيء ، إلا إذا ... » وأنا بوصفي أوروبياً ، أسرق كتاب عدو ، وأتخذ منه وسيلة لشفاء أوروبا . فأفيدوا من ذلك .

* * *

وهـذا هو السبب الثـاني : إذا استبعدتم ثرثرات « سوريل » الفاشية ، فستجدون ان « فانون » هو أول من يلقي النور مجدداً ، بعـد انجلز ، على مولد

التاريخ . ولا تحسبوا أن دماً أحر مما ينبغي أو تماسات طفولة قد جعلت له ذوقاً خاصاً نحو العنف : فقصارى ما يفعله أنه يجعل من نفسه ترجماناً للوضع . ولكن هذا يكفي لكي يؤلف ، مرحلة فمرحلة ، الديالكتيك الذي يخفيه عنكم النفاق الليبيرالي والذي أنتجنا كما أنتجه هو تماماً .

كانت البورجوازية في القرن الماضي تعتبر العمال حساداً أفسدتهم شهوات جشعة ، ولكنها اهتمت بإدخال هؤلاء المتوحشين الكبار في جنسنا : فكيف تراهم سيستطيعون أن يبيعوا بحرية قوتهم في العمل إلا إذا كانوا بشراً ، وكانوا أحراراً . فالنزعة الانسانية في فرنسا وانكلترا تدعي انها عالمية .

أما الوضع في العمل الاجباري ، فنقيض ذلك تماماً : فليس ثمة من عقد ، وبالاضافة الى ذلك ، فإن الاضطهاد يبدو هنا . ان جنودنا فيما وراء البحار ، يطرحون جانباً العالمية المتروبولية ، فيطبقون على الجنس البشري مبدأ « التمييز العنصري » : فما دام الانسان لا يستطيع إلا بالإجرام أن يجرد شبيهه من ممتلكاته ، أو يستعبده أو يقتله ، فهم يشرعون كمبدأ ، أن المستعمَر ليس شبيهاً بالانسان . وقد تلقت قوتنا الضاربة مهمة أن تحول هذا اليقين التجريدي الى حقيقة واقعية : فأعطى الأمر بخفض سكان المستعمرة الى مرتبة القرود العليا ليبرر للمستعمِر ان يعاملهم معاملة الحيوانات . والعنف الاستعماري لا يكتفي من أهدافه بشل هؤلاء البشر المستعبدين ، بل هو يعمل على تجريدهم من إنسانيتهم . فلن يوفر ثمة شيء لتصفية تقاليدهم ، ولاستبدال لغاتهم بلغاتنا ، ويهدم ثقافتهم من غير ان نعطيهم ثقافتنا ، وسوف يخبلون من فرط الانهاك . فإذا ظلوا على مقاومتهم ، بعد إساءة تغذيتهم وإمراضهم ، فإن هناك الخوف ينجز العمل : وهكذا تصوب البنادق على الفلاحين ، ويأتي مدنيون فيقيمون على أرضه ويقسرونه بالسوط على أن يحرثها لهم . فاذا قاوم ، أطلق الجنود النار ، فاذا هو انسان ميت ، واذا خضع انحط ، فليس هو انساناً ، وسوف يشقق الخجل والخوف طبعه ويهدمان شخصه . ويقود العملية ، بخشونة ، احصائيون . وليس تاريخ « الخدمات البسيكولوجية » حديثاً . وكذلك غسل المخ .

ومع ذلك ، وبالرغم من الجهود الكثيرة ، فان الهدف لم يبلغ في أي مكان . لا في الكونغو حيث كانت تقطع ايدي الزنوج ، ولا في انغولا حيث كانت شفاه المستائين تثقب، منذ عهد حديث، لتغلق بالاقفال. وانا لا ادعي ان من المستحيل تحويل الانسان الى حيوان : وانما اقول ان ذلك لا يتم من غير انهاكه الى أبعد حد ، فالضربات لا تكفي قط ، بل لا بد من دفع سوء التغذية الى غاية المدى . انه الضجر ، مع الاستعباد . فحين نستعبد فرداً من جنسنا ، نخفف من انتاجه، وينتهي الأمر بانسان القن ، مهما كان ما يقدم له ضئيلاً ، الى ان يكلف اكثر مما ينتج . ولهذا السبب، يضطر المستعمِرون الى وقف التربية في منتصفها : وتكون النتيجة ، لا انساناً ولا حيواناً ، وانما « ابن البلد » . وسواء كان اصفر او اسود او أبيض ، فهو ، في ذلك وسوء تغذيته ومرضه وخوفه ، ولكن الى حد ما فقط ، ذو خصائص واحدة : انه كسول ، منافق ، سارق، يعيش من لاشيء، ولا يعرف إلا القوة .

ويا للمستعمِر المسكين : هذا هو تناقضه ينكشف. ان عليه كما يفعل الجن، على ما يقولون ، ان يقتل اولئك الذين يسلبهم . وهذا في الواقع ليس ممكناً : الا ينبغي كذلك ان يستغلهم ؟ فهو اذا لم يدفع القتل حتى الابادة واذا لم يدفع العبودية حتى التوحش ، فانه يفقد القدرة على العمل ، وتنقلب العملية بحيث ان منطقاً لا يخطيء يقودها الى انهاء الاستعمار .

وليس ذلك على الفور. فان الاوروبي يسود بادىء ذي بدء : لقد سبق له ان خسر ، ولكنه لا يلاحظ ذلك، انه لا يعرف بعد أن الأهالي هم أهالٍ مزيفون، فهو اذا صدقناه انما يؤذيهم ليهدم او ليكبت الأذى الذي يكنونه في انفسهم ، بحيث ان غرائزهم الشريرة لن تولد من جديد بعد ثلاثة أجيال . اية غرائز ؟ الغرائز التي تدفع العبيد الى قتل السيد؟ فكيف تراه لا يعرف فيها قسوته الذاتيه مرتدة اليه؟ووحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين ، كيف تراه لا يجد فيها وحشية كمستعمِر ، هذه الوحشية التي امتصوها بكل مسامهم والتي لا يشفون منها ؟ ان السبب بسيط : فهذا الشخص الجبار، المجنون بقدرته العظيمة ، وبالخوف من ان

يفقدها ، لا يتذكر بعد جيداً انه كان انساناً : انه يظن نفسه سوطاً او بندقية، وقد انتهى الأمر به الى الاعتقاد ان استعباد « الأجناس الدنيا » يتم بتكييف ردود فعلها . انه يهمل الذاكرة البشرية ، والذكريات التي لا تمحى ، ثم ان هناك خصوصاً هذا الذي قد لا يكون عرفه قط : اننا لا نصبح ما نحن ، الا بانكار ما فعلوه بنا انكاراً صميمياً جذرياً . ثلاثة أجيال ؟ ان ابناء الجيل الثاني ما يكادون يفتحون عيونهم حتى يروا آباءهم يقتلون ، فاذا هم « مجرحون » على حد تعبير علم النفس التحليلي . ولمدى الحياة . ولكن هذه الاعتداءات المتجددة بلا انقطاع ، بدل ان تدفعهم الى الخضوع ، تقذفهم في تناقض غير محتمل لا بد للاوروبي عاجلاً او آجلاً ان يدفع ثمنه . وبعد ذلك،ليؤدبوا بدورهم ويروضوا ، وليعلموا العار والألم والجوع ، فان ذلك لن يخلف في اجسامهم الا غضباً بركانياً تساوي طاقته طاقة الضغط الذي يمارس عليهم . كنت تقول : انهم لا يعرفون إلا القوة ؟ بكل تأكيد ، انها أولاً لن تكون إلا قوة المستعمِر، ولن تلبث أن تصبح قوتهم ، وهذا يعني انها هي القوة نفسها مرتدة علينا ، على نحو ما تأتي صورتنا لتلقانا من أعماق مرآة . فلا يخدعنكم ذلك ، إنما هم بشر، بسبب هذا الغضب الجنوني ، وهذا الغيظ والحقد ، ورغبتهم الدائمة في قتلنا ، والتوتر الدائم في عضلاتهم القوية التي تخشى ان تنحل ، انهم بشر ، بسبب من المستعمِر الذي يريدهم بشراً للجهد ، وهم بشر في وجهه . ان حقدهم المجرد ، والذي ما يزال أعمى ، هو كنزهم الوحيد : ان « السيد » يخلقه لأنه يسعى الى تخبيلهم ، وهو يخفق في تحطيمه لأن مصالحه توقفه في منتصف الطريق ، وهكذا يظل الأهالي المزيفون انسانيين ، بسبب قدرة المضطهد وعجزه اللذين يتحولان — لديهم — الى رفض عنيد للوضع الحيواني . أما الباقي ، فمفهوم ، انهم كسالى بكل تأكيد. هذا نوع من السابوتاج (التخريب) وهم كذلك منافقون ولصوص. إن اختلاساتهم البارعة تسجل بدء مقاومة لا تزال غير منظمة. وهذا لا يكفي : ان هناك من يؤكدون أنفسهم بأن يرتموا ضد البنادق ، وأيديهم عارية ، اولئك هم أبطالهم، وهناك آخرون يجعلون أنفسهم بشراً باغتيال الاوروبيين، فيقتلون :

سواء أكانوا قطاع طرق أم شهداء ، فإن تعذيبهم يبعث الحماسة في نفوس الجموع المرهبة .

جموع مرهبة ، أجل : ففي هذه اللحظة الجديدة ، يتحول العدوان الاستعماري الى « ارهاب » لدى المستعمرين . وأنا لا أقصد بهذا فقط الخوف الذي يشلشعرونه أمام وسائلنا القمعية التي لا تنفد ، بل أقصد كذلك الخوف الذي يوحيه لهم غضبهم الهائل بالذات ، انهم محصورون بين أسلحتنا المصوبة إليهم ، وهذه الانفعالات المخيفة ، وتلك الرغبات في القتل التي تصعد من أعماق القلوب وقد لا يفهمونها دائماً : لأن هذا ليس أولاً عنفهم « هم » وإنما هو عنفنا نحن ، مرتداً ، ينمو ويمزقهم ، والحركة الأولى التي يأتيها هؤلاء المضطهدون هي أن يخفوا في أعماقهم الغضب الذي لا يُعتَرف به والذي تشجبه أخلاقيتهم وأخلاقيتنا ، والذي ليس هو مع ذلك إلا آخر ملجأ لانسانيتهم . اقرأوا فانون : فستعلمون أن جنون القتل هو لا شعور المستعمرين الجماعي ، في زمن عجزهم .

وهذا الغضب الهائل المكبوت ، يدور حول نفسه إذا لم ينفجر ، ويكتسح المضطهَدين أنفسهم . ولكي يتحرروا منه ، يبلغ بهم الأمر ان يقتتلوا فيما بينهم : ان القبائل تقاتل بعضها بعضاً لأنها لا تستطيع أن تجابه العدو الحقيقي — وتستطيعون أن تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لالهاب منافساتها ، إن الأخ حين يرفع المدية ضد أخيه ، يحسب انه يهدم مرة والى الأبد الصورة المحتقرة لذلهما المشترك . ولكن هذه الضحايا التفكيرية لا تهدىء عطشهم إلى الدم . وهم لن يمتنعوا عن التوجه الى الرشاشات إلا بأن يجعلوا أنفسهم ضالعين معنا : وهذا النزع للانسانية الذي يدافعونه ، يمضون طوعاً لتعجيل تقدمه ، فهم تحت نظر المستعمِر المرح ، سوف يتزودون ضد أنفسهم بحواجز تفوق الطبيعة ، فينعشون تارة أساطير قديمة مريعة ، ويتقيدون تارة أخرى بطقوس رقيقة : وهكذا يفر المأخوذ من تطلبه العميق بأن يكبد نفسه أهواء مهووسة تشغله كل لحظة . انهم يرقصون. وهذا يشغلهم ، هذا يرخي عضلاتهم المتوترة توتراً مؤلماً ، ثم ان الرقص

يتمتم سراً ، وبالخفية عنهم ، « اللا » التي لا يستطيعون التطور بها ، والقتل الذي لا يجرؤون على ارتكابه . وفي بعض المناطق يعمدون الى هذا الملجأ الأخير : التملك . إن مـا كان في الماضي عملاً دينياً في بساطته ، نوعاً من اتصال المؤمن بالمقدس ، يجعلون منـه سلاحاً ضد اليأس والذل : إن الزار والجن وأقـدس المقدسين يحلون فيهم ، فيحكمون عنفهم ويبذرونه في ارتعاشات حتى النفـاد . وفي الوقت نفسه ، فان هذه الشخصيات العليا تحميهم : وهذا يعني ان المستعمرين يحتمون من الاستحواذ الاستعماري بمضاعفة الاستحواذ الديني ، وتكون النتيجة الوحيدة ، في آخر المطاف ، انهم يجمعون الاستحواذين وان كـلا منهما يتعزز بالآخر . وهذا ما يحدث في بعض الأمراض النفسية لدى مهلوسين يتعبهم أن يهانوا كل يوم ، فيخيل إليهم انهم يسمعون ذات صباح صوت ملاك يهنئهم ، ولا يكون ذلك كافياً لوقف الشتائم . وإنما هي تتخلل صوت التهنئة . انه دفاع ، وهو نهاية مغامراتهم : ان الشخص ينقسم ويتحلل ، والمريض يسير نحو الجنون. وتستطيعون ان تضيفوا ، بالنسبة لبعث الأشخاص المختارين بدقة ، ذلك التملك الآخر الذي أشرت إليه آنفاً : الثقافة الغربية . وربما قلتم : لو كنا في مكانهم ، لفضلنا « الزار » على الاكروبول . حسناً : لقد فهمتم . ولكنكم لم تفهموا تماماً ، لأنكم لستم في مكانهم . لستم بعدُ في مـكانهم . وإلا لأدركتم أنهم لا يستطيعون أن يختاروا : ولذلك فهم يجمعون . إن العالمين يعنيـان تملكين : رقص طوال الليل ، وعند الفجر ، تزاحم في الكنائس لسماع القداس ، ويوماً بعد يوم يتسع الخرق . إن عدونا يخون اخوانه ، ويضلع معنا ، وكذلك يفعل اخوانه . وهكذا تكون « الاهلية » مرضاً نفسياً يدخله المستعمِر الى أرض المستعمَرين « وبموافقتهم » .

المطالبة بالوضع الانساني ، وإنـكاره في وقت واحد : ان التناقض هنا متفجر . وهـو ينفجر فعلاً ، وتعلمون ذلك عـلمي إياه . ونحن نعيش في زمن الانفجار : فحسب زيادة المواليد ان ينمي المجاعة ، وحسب القادمين الجـدد أن يخافوا أن يعيش أكثر قليلاً من ان يموتوا ، حتى يكتسح تيار العنف جميـع الحواجز . إن قتل الأوروبيين يتم في وضح النهار في الجزائر وفي أنغولا . انهـا

لحظة ارتداد الأذي على فاعله ، المرحلة الثالثة للعنف : انه يرتد علينا فيضربنا ، ونظل كالماضي غير مدركين أنه عنفنا نحن .

ويظل « التحريريون » مشدوهين : انهم يعترفون اننا لم نكن مؤدبين بما فيه الكفاية مع الأهلين ، وانه كان أعدل وأكثر حكمة ان نمنحهم بعض الحقوق في حدود الممكن ، انهم لم يكونوا يطلبون أكثر من أن نقبلهم جماعات متلاحقة في هذا النادي المغلق جداً ، والذي هو جنسنا : وهـا أن الانطلاق البربري المجنون لا يوفرهم أكثر مما يوفر المستعمِرين الارديا. وينزعج اليسار المتروبولي: انه يعرف المصير الحقيقي للأهالي ، والاضطهاد الذي يلحقهم بـلا هوادة ، فهو لا يدين تمردهم ، مدركاً اننا إنما فعلنا كل شيء لنخلقه . ولكنه يفكر مع ذلك بأن هناك حدوداً : فلا بد ان هؤلاء المحاربين حرب عصابات حريصون على أن يظهروا فروسيتهم ، فتلك هي خير وسيلة لاثبات انهم بشر . وأحياناً يلومهم ذلك اليسار بقوله : « انكم تبالغون ، ونحن لن نؤيدكم بعد » غير انهم لا يبالون بذلك : ان التأييد الذي يصيبونه لا غناء فيه . فمنذ ان بدأت حربهم ، أدركوا هذه الحقيقة الصارمة : إننا جميعاً نساوي ما نحن إياه ، ولقد أفدنا جميعاً منهم ، وليس لهم أن يثبتوا شيئاً ، وهم لن يعاملوا احداً معاملة خاصة . هناك واجب واحد ، وهدف واحد : طرد الاستعمار « بجميع » الوسائل . وسوف يكون أكثرنا تبصراً مستعدين في آخر المطاف لاقرار ذلك، فهم لا يستطيعون الامتناع عن ان يروا في « تجربة القوة » هذه اللاانسانية ، الا بشراً متخلفين قد لجأوا اليها ليحصلوا على ميثاق للانسانية : فليعطوه بأسرع وقت ممكن ، وليحاولوا آنذاك ، بمشاريع سلمية ، ان يستحقوه . ان ارواحنا اللطيفة هي عنصرية .

وستجد هذه الارواح فائدة في قراءة فانون ، فهو يثبت بكل قوة ان هذا العنف الذي لا يرد ليس هو عاصفة غير معقولة ، ولا بعثاً لغرائز متوحشة ، حتى ولا نتيجة للغيظ المنفعل : وانما هو الانسان نفسه يعيد بناء نفسه . واعتقد اننا قد عرفنا هذه الحقيقة ، ولكننا نسيناها : ان آثار العنف لن تمحوها اية رقة أو لطافة ، والعنف وحده هو الذي يستطيع ان يزيلها . وانمـا يشفى

المستعمر من مرض العقدة الاستعمارية بطرد المستعمِر بالسلاح. وحين ينفجر غضبه، يسترد شفافيته المفقودة، ويعرف نفسه بمقدار ما يضيعها، ومن بعيد نعتبر حربه كانتصار البربرية، ولكنها تعمل بنفسها على تحرير المقاتل تحريراً تدريجياً، وتصفي في نفسه وخارج نفسه الظلمات الاستعمارية، بصورة تدريجية. فهي ما أن تبدأ حتى تكون بلا هوادة. وعلى المرء أن يبقى مروّعاً أو يصبح مروّعاً، وهذا يعني ان يستسلم لتحللات حياة مزورة او يكتسب الوحدة التي ولد عليها. وحين يمس الفلاحون البنادق، تتقمع الاساطير القديمة وتنقلب المحرمات واحداً إثر واحد: ان سلاح المقاتل هو انسانيته. ذلك انه لا بد من القتل في الزمن الأول للتمرد، وقتل اوروبي هو ضرب لعصفورين بحجر، حذف لمضطهِد ولمضطهَد في وقت واحد: وانما يبقى رجل ميت ورجل حي. وللمرة الأولى يحس الذي بقي حياً، ارضاً «وطنية» تحت باطن قدميه. وفي هذه اللحظة لا تبتعد «الامة» عنه: فهي توجد حيث يذهب، حيث يكون — وليس ابعد من ذلك، انما تمتزج بحريته. ولكن جيش الاستعمار يتحرك، بعد المفاجأة الأولى: فعليه ان يتحد والا فسوف يقتل. وتخف المنازعات القبلية، وتميل الى الزوال: لأنها اولاً تضع «الثورة» موضع الخطر، ولأنها، بصورة أعمق لم يكن لها من مهمة الا ان تحرف العنف نحو اعداء مزيفين. اما اذا بقيت قائمة، كما هو الحال في الكونغو، فذلك لانما يغذيها عملاء الاستعمار. وتبدأ «الأمة» السير: فهي بالنسبة لكل أخ موجودة حيث يقاتل اخوان آخرون، ان الاخوي هو الوجه الآخر من الحقد الذي يكنونه لكم: انهم اخوة، في أن كلا منهم قد قتل، او يمكن بين لحظة واخرى ان يكون قد قتل.

وفانون يظهر لقرائه حدود «التلقائية» وضرورة «التنظيم» واخطاره. ولكن مهما كانت المهمة جسيمة، فان الوعي الثوري يتعمق لمدى كل مرحلة من مراحل نمو العمل. وتزول آخر العقد، فمنذا الذي يستطيع ان يحدثنا عن عقدة «التبعية» لدى جندي من جنود «جبهة التحرير»؟ وحين يتحرر الفلاح من غشاوته يعرف ما هي حاجاته: صحيح انها كانت تقتله، ولكنه كان يحاول

ان يتجاهلها ، وهو يكتشفها الآن كمتطلبات مطلقة . وفي هذا العنف الشعبي الذي قاوم خمسة اعوام ، وثمانية اعوام كما فعل الجزائريون ، لا يمكن للضرورات العسكرية والسياسية والاجتماعية ان تتميز فيما بينها . ان الحرب ، حتى ولو اقتصرت على طرح موضوع القيادة والتبعات ، تقيم بنيات جديدة ستكون أولى مؤسسات السلام . وهكذا ينبثق الانسان حتى في التقاليد الجديدة ، التي هي بنات مستقبل لحاضر فظيع ، هكذا يصبح مشروعاً بحق سوف يولد ، وهو يولد كل يوم معمداً بالنار ، فمع آخر مستعمِر يقتل أو يسفر أو يهضم ، يزول جنس الاقلية ، مخلياً المكان للاخوة الاشتراكية . وهذا لا يزال غير كاف : فان هذا المقاتل يحرق المراحل ، وانتم تدركون انه لا يجازف بحياته ليكتفي بأن يجد نفسه على مستوى الانسان « المتروبولي » العجوز . انظروا الى صبره : فربما حلم أحياناً بديان بيان فو جديدة ، ولكن يجب ان تعتقدوا بأنه لا يعوّل على ذلك حقاً : فهو فقير يكافح ، في بؤسه ضد اغنياء مسلحين تسليحاً قوياً ، وهو بانتظار الانتصارات الحاسمة ، وغالباً من غير ان ينتظر شيئاً ، يرهق خصومه حتى الأشمئزاز . وذلك لا يتم من غير خسائر مريعة ، فان جيش الاستعمار يصبح متوحشاً فيعمد الى اعمال التطهير والتجميع والحملات التأديبية وتقتيل النساء والاطفال . وهو يعرف ذلك : ان هذا الانسان الجديد يبدأ حياته كانسان من نهايتها ، وهو يعتبر نفسه ميتاً بالقوة ، وسوف يقتل : وليس الأمر قاصراً على انه يقبل التعرض للقتل ، بل هو من ذلك على يقين . وهذا الميت بالقوة قد فقد زوجته واولاده ، وقد رأى عدداً كبيراً من الناس يحتضرون حتى انه يفضل الانتصار على البقاء حياً ، سيفيد آخرون من النصر ، لا هو : فهو مجهد اكثر مما ينبغي . ولكن تعب القلب هذا هو مصدر شجاعة لا تصدق . فبينما نجد نحن انسانيتنا بعيداً عن الموت واليأس ، يجدها هو بعد التعذيب والموت . لقد كنا نحن زارعي الريح ، وهو الذي كان العاصفة . انه يستمد من العنف الذى هو ابنه ، انسانيته كل لحظة ، لقد كنا بشراً على حسابه ، وهو يجعل من نفسه انساناً على حسابنا . ولكنه انسان آخر : من نوع افضل .

* * *

وهنا يقف فانون : لقد ارشد الى الطريق : انه لسان حال المحاربين يطالب بالاتحاد ، وبوحدة القارة الافريقية ضد جميع المنازعات والتحيزات المحلية . وقد بلغ غايته . ولو كان يريد ان يصور تصويراً كاملاً الحدث التاريخي لتصفية الاستعمار ، لوجب عليه ان يتحدث عنا . وليس هذا هو قصده . ولكننا حين نغلق الكتاب ، فانه يستمر فينا ، بالرغم من مؤلفه : ذلك اننا نشعر بقوة الشعوب النائمة ، ونرد عليها بالقوة . واذن ، فان هناك لحظة جديدة للعنف ، وهذه المرة ، ينبغي ان نعود الى انفسنا نحن، لأن العنف بسبيل ان يغيرنا بمقدار ما يتغير ابن البلد المزيف عبره . ولكن ان يقود افكاره كما يشاء ، شريطة ان يفكر طبعاً : ففي اوروبة اليوم ، المترنحة تحت الضربات التي توجه اليها ، في فرنسا ، وبلجيكا ، وانكلترا ، يعتبر أي شرود عن الفكر ضلوعاً مجرماً مع الاستعمار .

إن هذا الكتاب لم يكن باية حاجة الى مقدمة ، لا سيما وانه لا يتوجه الينا . ومع ذلك فقد قدمت له ، لأدفع الديالكتيك الى نهايته : فان الاستعمار يصفى عنا ، نحن الاوروبيين ايضاً ، وهذا يعني ان المستعمِر الكامن في كل منا يُنتزع بعملية دامية ، فلننظر الى انفسنا ، ان كنا نملك الجرأة على ذلك ، ولنر ماذا يحدث لنا .

يجب ان نواجه أولاً هذا المشهد غير المنتظر : تعرية انسانيتنا . هذه هي انسانيتنا عارية تماماً ، غير جميلة . انها لم تكن الا ايديولوجية كاذبة ، الا التبرير اللذيذ للسلب ، وقد كانت رقتها وحذلقتها تغطيان اعتداءاتنا . واللاعنفيون يتمتعون بصحة جيدة : فليسوا هم ضحايا ولا جلادين ! كفى ! اذا لم تكونوا ضحايا، حين تكون الحكومة التي نصبتموها للحكم، والجيش الذي خدم فيه اخوتكم ، قد قاما بلا تردد ولا ندم « بعملية ابادة جماعية » ، فانتم بلا شك جلادون . واذا اخترتم ان تكونوا ضحايا ، وان تتعرضوا ليوم أو يومين من السجن ، فانما تختارون ببساطة ان تنسحبوا من اللعبة . ولكنكم لن تنسحبوا :

فيجب ان تبقوا فيها الى النهاية . لقد آن لكم أخيراً ان تفهموا هذا : اذا كان العنف قد بدأ هذا المساء ، اذا لم يوجد الاستغلال والاضطهاد فوق هـذه الارض فقط ، فربما كان باستطاعة اللاعنف المعلن ان يهدىء النزاع . اما اذا كان نظام الحكم كله، بما في ذلك أفكاركم اللاعنفية، مكيفاً باضطهاد يرجع عهده الى ألوف السنين ، فان سلبيتكم لن تفيد إلا في جعلكم منحازين الى جانب المضطهِدين .

انتم تعلمون جيداً اننا مستغلون ، وأنـتم تعلمون جيداً اننا أخذنا الذهب والمعادن ، ثم البترول ، من « القارات الجديدة » واننـا نقلناها الى المتروبولات القديمـة . وحصلنا على نتائج ممتازة : قصور وكاتدرائيات وعواصم صناعية . وحين كانت الأزمة تهددنا بعد ذلك ، فـان اسواق المستعمرات موجودة هناك لتخفيفها او تحويلها . واوروبا المتخمة بالثروات منحت حقوقياً صفة الانسانية لكل سكانها . فالانسان عندنا يعني المشارك في الذنب ، ما دمنا جميعاً قد أفدنا من استقلال المستعمرات. وقد انتهى الأمر بهذه القارة السمينة الممتعة ان غرقت بما يسميه فانون بحق « النرجسية » . لقد كان كوكتو ينزعج من باريس « هـذه المدينة التي تتحدث طوال الوقت عن نفسها . » واوروبا ، مـا الذي تفعله غير هذا ، وهـذا المسيح الفوق اوروبي ، اميركا الشمالية ؟ يا لها من ثرثرة : حرية ، مساواة ، أخوة ، حب ، شرف ، وطن ، الخ ... ؟ ان ذلك لم يكن يمنعنا من أن نتحدث في الوقت نفسه أحاديث عنصرية ، زنجي قـذر ، يهودي قـذر ، « جرذ » عربي قذر . وهناك أشخاص صالحون ، ليبراليون لطفاء – استعماريون جدد بالاجمال – كانوا يدعون ان هذا التناقض يصدمهم، وفي ذلك خطأ او نية سيئة : فليس ثمة ما هو أشد انسجاماً لدينا من هذه النزعة الانسانية والعنصرية في وقت واحد ، ما دام الاوروبي لم يستطع ان يجعل من نفسه انساناً الا بان صنع عبيداً ومسوخاً . وقد ظلت هذه الكذبة مقنعة ، مـا دامت « الاهلية » قائمـة ، لقد كانوا يجدون في الجنس البشري افتراضاً تجريدياً بالعالمية الشمولية كانوا يستخدمونها لتغطية تطبيقات اكثر واقعية . كان فـيما وراء البحار عرق من البشر المتخلفين ربمـا استطاع بفضلنا ، بعد الف عام ، ان يبلغ وضعنا .

وبالاختصار كانوا يخلطون بين النوع والنخبة . اما اليوم ، فان ابن البلد يكشف حقيقته ؛ فيكشف نادينا المغلق ضعفه فوراً : انه لم يكن لا أكثر ولا أقل من أقلية . وهناك ما هو أسوأ : فما دام الآخرون قد اكتسبوا انسانيتهم ضدنا ، فقد ظهر اننا اعداء الجنس البشري . ان النخبة تكشف طبيعتها الحقيقية : وهي انها عصابة . وهكذا تفقد قيمنا الغاليه اجنحتها ، واذا نظرنا اليها عن كثب ، لم نجد قيمة واحدة لم تلطخ بالدم . واذا كنتم بحاجة الى مثال ، فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة : ما اكرمها وأسمحها ، فرنسا ، نحن ، الكرماء السمحاء ؟ وسطيف ؟ وهذه الاعوام الثمانية من الحرب الوحشية التي مات فيها اكثر من مليون جزائري ؟ والتعذيب بالكهرباء ؟ ولكن افهموا جيداً انهم لا يلوموننا باننا خنّا لا أدري اية رسالة : لسبب بسيط ، هو اننا لم تكن لنا أية رسالة ، وانما الشرف نفسه هو الذي يوضع موضع التساؤل. ان هذه الكلمة الغنائية الجميلة ليس لها إلا معنى واحد : النظام الممنوح . فبالنسبة للناس الذين هم قبالتنا ، الناس الجدد المتحررين ، ليس ثمة شخص يستطيع او يملك امتياز اعطاء شيء لأحد . ان كل انسان يملك جميع الحقوق ، على الجميع ، وحين يتم صنع نوعنا الانساني ذات يوم ، فانه لن يتحدد كمجموع سكان الكرة ، بل كوحدة لانهائية للتبادل المشترك فيما بينهم . وأنا اقف هنا ، وسوف تنهون العمل بلا مشقة . حسبنا ان نواجه للمرة الأولى والأخيرة فضائلنا الارستوقراطية : انها تموت ، فكيف تراها ستبقى حية بعد ارستوقراطية البشر المتخلفين الذين أوجدوها ؟ لقد حدث منذ بضع سنوات ان معلقاً بورجوازياً — واستعمارياً — دافع عن الغرب فلم يجد إلا أن يقول : « نحن لسنا ملائكة . ولكننا نحن ، على الأقل ، نشعر بالندم . » فيا له من اعتراف : لقد كان لقارتنا في الماضي عوامات أخرى : البارتينون، شارتر ، حقوق الانسان، الصليب المعقوف. وقيمتها الآن معروفة : وليس ثمة من يدعي بعد النجاة من الغرق إلا بالشعور شعوراً مسيحياً جداً بالذنب ؛ وهذه هي النهاية كما ترون : ان اوروبا يجرفها الطوفان من كل جانب .

فما الذي قد حدث ؟ حدث هذا بكل بساطة : وهو اننا كنا صنّاع التاريخ ،

فأصبحنا الآن عبيده . لقد انقلب ميزان القوى ، وتصفية الاستعمار قائمةعلىقدم وساق ، وكل ما يستطيعه مرتزقتنا هو ان يحاولوا تأخير انجاز هذه التصفية .

وحتى هذه المحـــاولة لن تنجح إلا اذا القت المتروبولات بكل ثقلهـــا ، وجندت كل قواها لمعركة خاسرة سلفاً. هذه القسوة الاستعمارية القديمة التي جعلت أمثال « بوجو » يحرزون أمجاداً مشكوكاً فيها ، سوف نجدها في نهاية المغامرة قد تضاعفت عشرة أضعاف وظلت مع ذلك غير كافية. لقد أرسل جيش المجندين الى الجزائر ، فمكث فيها سبع سنوات بلا نتيجة . لقد تغير معنى العنف، كنا نمارسه ، ونحن منتصرون ، من غير ان يبدو انه يعكر علينا حياتنا . لقد كان يحلل الآخرين . أما نحن ، فقد كانت انسانيتنا تظل سليمة لم تمس ، وكان سكان المتروبول ، والنفع يوحدهم ، يعمِّدون بالأخوة والحب بمجتمعَ جرائمهم. اما اليوم، فان العنف نفسه، وقد حوصر من كل جانب، يرتد علينا عبر جنودنا ، ويمتلكنا. ان الآية تنعكس والتطور ينقلب : فيؤلف المستعمَر نفسه من جديـــد ، ونحن نتحلل ، غلاة وليبراليين، مستعمِرين ومتروبوليين. وكان الغضب والخوف قد بدأا يتعريان ، وظهرا مكشوفين في عمليـات صيد « الجرذان » في الجزائر . فأين هم المتوحشون الآن ؟ وأين هي البربرية ؟ ليس من شيء ناقص ، حتى ولا التـام — التام : فان صفارات السيارات توقع « الجزائر فرنسية » فيما يحرق الاوروبيون المسلمين أحياء . ويذكر فانون ان بعض علمـاء النفس التحليلي كانوا يعبرون عن حزنهم تجـاه اجرام الاهالي ، ويقولون : ان هؤلاء الاشخاص يقتتلون ، وليس هذا طبيعياً ، لأن مخ الجزائري لا بد ان يكون مخاً متخلفاً . وقرر آخرون في افريقيا الوسطى ان « الافريقي قلما يستعمل قواه العقلية » . ومن المفيـد لهؤلاء العلماء ان يواصلوا تحقيقهم اليوم في اوروبا ، ولا سيما في فرنسا . فلا بد اننا نحن ايضاً مصابون منذ بضعة اعوام بالكسل العقلي : أن الوطنيين يغتـــالون قليلاً مواطنيهم ، فاذا كان هؤلاء غائبين ، نسفوا بيتهم وحارسهم . وليس ذلـك الا بداءة : ان الحرب المدنية متوقعة في الخريف أو الربيـع القادم . ومع ذلك ، فان امخاخنا تبدو في حالة ممتازة : الا يكون سبب ذلك بالاحرى ان العنف ،

لعجزه عن سحق ابن البلد ، يرتد على نفسه ،ويتجمع في اعماقنا يلتمس له مخرجاً؟

ان وحـدة الشعب الجزائري تنتـج تمزق الشعب الفرنسي : ففوق أرض المتروبول السابق ، ترفض القبائل وتستعد للمعركة . لقد غادر الارهاب افريقيا ليقيم هنا : لان هناك غاضبين حقاً يريدون ان يجعلونا ندفع من دمنا ثمن العـار الذي اصابهم اذ هزمهم ابن البلد . ثم هناك الآخرون ، جميع الآخرين ، الذين لا يقلون اجراماً وان كانت نفوسهم قريرة — فمنذا الذي نزل الى الشارع بعـد بنزرت ، وبعد عمليات التقتيل ليقول : كفى ؟ — جميـع الليبراليين ومتصلبي اليسار المائع . ان الحمى ترتفـع في نفوسهم كذلك ، والغضب . ولكن كم هم مذعورون ! انهم يقنعون غضبهم بالاساطير ، وبالطقوس المعقدة . ولـكي يؤخروا تصفية الحساب النهائي ، وساعة الحقيقة ، نصبوا علينا «ساحراً كبيراً» مهمته ان يبقينا في الظلام بأي ثمن . ولكن شيئاً مـا لم يؤثر ، فان العنف الذي يطالب به البعض ، ويكظمه البعض الآخر ، يدور حول نفسه : فيفجر يوماً في «منز» ويوماً آخر في بوردو ، ويمر يوماً من هنا ، وسوف يمر من هنـاك . وهكذا نسلك بدورنا ، خطوة خطوة ، الدرب الذي يؤدي الى حالة «الاهلية». ولكن كان لا بد ، لكي نصبح ابناء بلد تماماً ، ان تكون ارضنا قد احتلهـا مستعمرون قدامى وان نموت جوعاً . وهذا ما لن يحدث : كلا ، فان الاستعمار المنهار هو الذي يتملكنا ، وهـو الذي لن يلبث ان يركبنا ، فارساً مدللاً ومزهواً : وهوذا «زارنا» ! وسوف تقنعون ، وانتم تقرأون آخر فصل لفانون ان من الأفضل ، في اسوأ لحظات البؤس ، ان يكون المرء ابن بلد على ان يكون هذا المستعمِر الآنف الذكر.فليس حسناً ان يكون موظف شرطة مضطراً لان يعذِّب عشر ساعات في اليوم . فان ذلك سيؤدي باعصابه الى الانفجار ، الا اذا مُنع الجلادون ، لمصلحتهم الخاصة ، من ان يعملوا ساعات اضافية ، فحين يراد حماية معنويات الأمة والجيش بصرامة القوانـين ، فليس حسناً ان يحطم الجيش معنويات الأمة ، ولا ان يضع بلد جمهوري التقاليد مئات الألوف من شبابه بـين ايدي ضباط انقلابيين مغامرين .

ليس حسناً ، يا مواطنيّ، انتم الذين تعرفون جميع الجرائم المرتكبة باسمنا ، ليس حسناً حقاً الا تنبسوا ببنت شفة ، حتى ولا تجاه ارواحكم ، خشية ان تحاكموا انفسكم فتدينوها . انني اريد ان اصدق انكم كنتم في البدء تجهلون وبعد ذلك شككتم . اما الآن ، فانتم تعرفون ، ومع ذلك تصمتون دائماً . ان ثمانية أعوام من الصمت تحط الانسان . وبلا فائدة : فان شمس العنف المعمية هي اليوم في كبد السماء ، وهي تضيء البلد كله ! وتحت هذا الضوء ، ليس ثمة بعد ضحكة تنطلق صادقة الجرس ، وليس ثمة وجه لا يضع المساحيق ليقنع بها الغضب أو الخوف ، وليس ثمة عمل لا يكشف اشمئزازنا ومشاركاتنا في الذنب . يكفي اليوم ان يلتقي فرنسيان حتى تكون بينهما جثة . وحين اقول جثة .. لقد كانت فرنسا في الماضي اسم بلد ، فلنحاذر الا تصبح هذا العام اسم مرض نفسي.

اترانا سنشفى ؟ نعم . ان العنف يستطيع ، كرمح أشيل ، ان يلأم الجراح التي احدثها . اننا اليوم مقيدون، مذلّون ، مرضى بالخوف ، في الدرك الأسفل. ومن حسن الحظ ان هذا لا يكفي للارستقراطية الاستعمارية : فهي لا تستطيع ان تنجز رسالتها التعويقية في الجزائر اذا لم تفرغ اولاً من استعمار الفرنسيين . اننا نتقهقر كل يوم أمام المعركة ، ولكن ثقوا اننا لن نتفاداها : فان القتلة بحاجة اليها ، سيقتحمون صفوفنا ويضربون خبط عشواء ، وهكذا سينتهي عهد السحرة والتعاويذ : فيجب عليكم ان تقاتلوا او تأسنوا في المعسكرات .

تلك هي آخر لحظات الديالكتيك : انكم تشجبون هذه الحرب ، ولكنكم لا تجرؤون بعد على ان تصرحوا بانكم متضامنون مع المحاربين الجزائريين ، فلا تخافوا ، اعتمدوا على المستعمِرين والمرتزقة : فسوف يساعدونكم على ان تقطعوا هذه الخطوة . واذ ذاك ، ربما تطلقون العنان ، وظهوركم الى الجدار ، لهذا العنف الجديد الذي يبعثه فيكم بعض الجرائم القديمة المعادة معكم. ولكن تلك ، كما يقال، قضية اخرى . قضية الأنسان . وانا على يقين من ان الزمن الذي سننضم فيه الى من يصنعون قصة الأنسان ، يقترب رويداً رويداً .[1]

---

(١) مقدمة « معذبو الارض » لفرانز فانون ، باريس منشورات ماسبرو ١٩٦١ .

# الفكر السياسي لباتريس لومومبا

## ١ ـــ المشروع

لومومبا ، فانون : هذان الكبيران الميتان يمثّلان افريقيا. ولا يمثلان امّتهما فحسب ، بل القارة كلها . وبوسع من يقرأ كتاباتهما ويتعمّق حياتهما أن يعتبرهما خصمين ضاريين . إن فانون المارتينيكي ، حفيد حفيدٍ لعبدٍ رقيق ، يغادر بلده الذي لم يعِ آنئذٍ شخصيته « الانتيه » ومتطلـّباتها ، ويتزوّج الثورة الجزائرية ويقاتل ، وهو الزنجيّ ، وسط المسلمين البيض : إنه يخوض معهم حرباً شرسة وضرورية ، ويتبنـّى جذرية اخوته الجدد. ويجعل نفسه نظريّ العنف الثوري، ويُبرز في كتبه رسالة افريقيا الاشتراكية : إن الاستقلال كلمة فارغة بلا إصلاح زراعي وتأميم للمشاريع الاستعمارية . أما لومومبا ، ضحية نزعة السيـــادة البلجيكية – لا نخبة ، لا إزعاج – فإنه لا يملك ، بالرغم من ذكائه الواسع ، ثقافة فانون ؛ على انه يبدو للنظرة الأولى أنه يتفوّق على فانون بمزية العمل فوق أرضه ذاتها على تحرير اخوته الملوّنـين ومسقط رأسه . وقد قال الف مرة إن الحركة التي ينظـّمها والتي أصبح رئيسها غير المنــازع ستكون « غير عنيفة » ؛ ولقد فرضت « الحركة الوطنية الكونغولية » نفسها باللاعنف ، بالرغم من التحدّيات أو بعض المبادرات المحلـّية التي شجبتها دائماً . أما فيما يتعلق بمشاكل البنية ، فقد حدّد لومومبا موقفه بوضوح ، في محاضراته في «بريزانس افريقين» :

« ليس لنـــا اختيار سياسي » وكان يقصد بهذا ان القضايا « السياسية » – الاستقلال والمركزية – تأتي أولاً ، وانه ينبغي إنجاح نزع الصفة الاستعمارية السياسية لخلق وسائل نزع الصفة الاستعمارية الاقتصادية والاجتماعية .

وقد كان هذان الرجلان متعارفين ومتحابّين. وقد حدّثني فانون كثيراً عن لومومبا ؛ وهو الذي كان سرعان ما يتيقـّظ حين كان حزبٌ افريقي يبدو مبهماً او كتوماً فيما يخصّ تعديلات البنية ، لم يأخـذ قط على صديقه الكونغولي أن يجعل من نفسه ، حتى بصورة غير إرادية ، الرجل المستعار للاستعمار الجديد. بل هو على العكس كان يرى فيـه الخصم الذي لا يلين لكل محاولات إعـــادة الاستعمار تحت أشكال مقنـّعة . ولم يأخذ عليه – بحظ كبير من الحنان – إلا تلك الثقة التي لا تتزعزع بالانسان ، تلك الثقة التي كانت سبب ضياعه وعظمته في آن واحد . وقد قال لي فانون : « كانت تُقدَّم له الحجج بأن أحد وزرائه كان يخونه . فكان يذهب للقائه ، ويطلعه على الوثائق والتقارير ويقول له : « هـل أنت خائن ؟ انظر في عينيّ وأجب ! » فإذا كان الآخر ينفي ذلك وهو يقـاوم نظره ، كان لومومبا يقرّر : « حسناً . انني اصدّقك » ولكنّ هـــذه الطيبة الهائلة التي سمّاها الاوروبيون سذاجـة ، كان فانون يحكم بأنها ضارة ومشؤومة «في تلك الظروف »: فإنها إذا أُخذت في ذاتها ، أصبحت موضع اعتزازه، وكان يرى فيها ملمحاً أساسياً من ملامح الافريقي . وقد قـــال لي رجل العنف عدة مرات : « اننا طيّبون ، نحن الزنوج ؛ والقسوة تُرعبنا وتثير فينا الاشمئزاز . وقد ظننت مدة طويلة أن رجال افريقيا لن يتقاتلوا فيما بينهم . ولكن الدم الأسود يسيل ، مع الأسف ، والذين يسفكونه هم سود ، وسيسيل مـدة طويلة بعـــد : إن « البيض » يذهبون ، ولكن شركاءهم في الجرم بيننا ، مسلـّحين بأيـديهم . وإن آخر معركة للمستعمَر ضد المستعمِر ، ستكون غـالباً معركة المستعمَرين ، فيما بينهم . » وانا أعرف ذلك : فإن الباحث النظريّ فيـه كان يرى في العنف القدر المحتوم لعالم يتحرّر ؛ ولكن الإنسان ، كان في أعماقـه ، يكره العنف . ونقاط الاختلاف والصداقة بين هذين الرجلين تسجـّل في وقت

واحد التناقضات التي تدمّر افريقيا والحاجة المشتركة لـ « تجاوُزها » في الوحدة الافريقية . وكان كلّ منهما يجد ثانية في نفسه هذه المشكلات الممزّقة ، وإرادة حلّها .

إن هناك بعدُ ، كثيراً مما يُقال عن فانون. أما لومومبا، الذي هو معروفٌ أكثر منه ، فهو رغم كل شيء يحتفظ بكثير من الأسرار . ولم يحاول أحدٌ حقاً أن يكشف أسباب إخفاقه (١) ، ولا لماذا استشرى رأس المـــال والبنك ضد حكومة كان رئيسها لا ينِي يردّد أنــه لن يمسّ رؤوس الأموال الموّظفة ، كما لن يطلب توظيف رؤوس أموال جديدة . وهذا هو هدف الخطب التي سنقرأها : انها تسمح لنا أن نفهم لماذا اعتبر فانون الثوري زعيم الحركةالوطنية الكونغولية، بالرغم من اعتدال برنامجه الاقتصادي أخاً للسلاح ، ولمـــاذا اعتبرته « الشركة العمومية » عدواً لدوداً .

لقد أُخذ عليه أنه يلعب لعبةً مزدوجة ، بــل مثلثة . فأمام جمهور مؤلف من الكونغوليين وحدهم ، كان ينطلق مهاجِمـاً ؛ وكان يعرف أن يهدّىء نفسه إذا كان يكتشف « بيضاً » بين الحضور ، فينفخ الحارّ والبارد في براعة . أما في بروكسل ، أمام المستمعين البلجيكيين، فكان يصبح حذراً ، ساحراً ، ويكون همّه الأول ان ينشر الثقة والاطمئنان . وهذا ليس خطأً على الاطلاق ، ولكن بوسعنا أن نقول مثل ذلك بالنسبة لجميع الخطباء الكبار : انهم يحكمون بسرعة على جمهورهم ، ويعرفون الى أين ينبغي أن يمضوا . والحق ان القارىء سيرى انه إذا كان الشكل يختلف بين خطاب وخطاب ، فإن المضمون لا يتغير . ولا شك في أن لومومبا قـــد تطوّر : فإن الفكر السياسي لكتاب « الكونغو ، أرض المستقبل ، هل هو مهدّد » – وقــد كتبه عام ١٩٥٦ – ليس هو فكر الرجل الناضج الذي أسّس « الحركة الوطنية الكونغولية » . وقد أمكنه أن يحلم لحظة – وسنعرف لماذا – بمجتمع بلجيكي – كونغولي ؛ وابتداء من ١٠ تشرين الأول

١ – ولكني أنوه مع ذلك بالكتاب الهام الذي صدر في دار نشر ماسبرو من تأليف « ميشال مبرلييه » بعنوان « الكونغو » .

١٩٥٨ ، أصبح رأيه ناجزاً ومعلناً ، وهو لن يغيره بعد : إن الاستقلال يصبح هدفه الوحيد .

واكثر الأمور تغيّراً – بالنسبة للجمهور – هو تقديره للاستعمار البلجيكي . إنه غالباً ما يلح على مظاهره الايجابية – وبلهجة ملاطفة احياناً ، بحيث يظن المرء انه يستمع الى مستعمِر : استثمار الأرض وما تحت الأرض ، عمل البعثات التربوي ، مساعدة صحية الخ . الم يذهب ذات مرة الى حد إسداء الشكر لجنود ليوبولد الثاني لأنهم حرروا الكونغوليين من « العرب المتوحشين » الذين كانوا يتجارون بالزنوج ؟ انه في تلك الأحوال ، يتطرق الى الاستغلال المتطرف ، والعمل الأجباري ، ومصادرة العقارات ، والزراعة القسرية ، والامية المدعومة في تصميم ، والوان القمع الدموي ، وعنصرية المستعمِرين : فيكتفي بالشكوى من تجاوزات بعض الحكام الاداريين او بعض فئات البيض . وفي أحيان اخرى ، تتغير اللهجة ، كما في الخطاب المسجّل يوم ٢٨ تشرين الأول ١٩٥٩ ، وجواب ٣٠ حزيران ١٩٦٠ خصوصاً الذي رد به على الملك بودوان : « إن جراحنا ما تزال اطرى وآلم من ان تطرد من ذاكرتنا صورة الوضع الذي عشناه طوال ثمانين عاماً من الحكم الاستعماري .. » الخ . اهو الرجل نفسه الذي يتكلم في الحالين ؟ نعم بكل تأكيد . هل يكذب ؟ لا بكل تأكيد . ولكن هاتين النظرتين المتناقضتين لعمل بلجيكا «التمديني» ، إن كان يكشف لنا تارة احداهما وطوراً الاخرى ، فلأنهما يتعايشان في نفسه ويعبّران عن التناقض العميق في ما يمكن ان نسميه « طبقته » . إن الاستغلال الاستعماري قد أعطى الكونغو ، بالرغم عنه ، بنيات جديدة . ولكي نستعمل الكلمات المتعارفة ، نذكر انه في اعوام ١٩٥٠ أحصي ٧٨ بالمئة من الفلاحين الخاضعين للمقاطعات ، وللنزعات القبلية ، مقابل ٢٢ بالمئة من المدنيين . وقد جهدت الادارة في إبقاء السكان في الجهالة ، ولكنها لم تستطع ان تمنع الهجرة القروية ، ولا التكاثر في المدن ، ولا قيام البروليتاريا ، ولا نوعاً من التمييز ، لدى السكان المدنيين ، نشأ من حاجات الاقتصاد الاستعماري: إن بورجوازية كونغولية صغيرة من المستخدمين والموظفين

والتجار هي بسبيل التشكل . وهذه « النخبة » الهزيلة — ١٥٠ الف شخص على اربعة عشر مليوناً — تقف في وجه سكان الارياف المتحجرين في خصوماتهم وتقاليدهم والذين يقودهم « رؤساء » مباعون للادارة ، وفي وجه العمال العنيفين احياناً ، ولكنهم لا يملكون بعد ، بلا تنظيم ثوري حقيقي ، الا وعياً طبقياً بدائياً . ان وضع « البورجوازية الصغيرة » السوداء ملتبسٌ جداً ، في البدء ، لأنها تحسب انها تستفيد من الاستعمار ، وأن هذه الاستفادة تمكنّها من ان تقيس ظلم النظام . والحق ان افرادها — ومعظمهم شبان ، ما دامت هي نفسها نتاجاً جديداً من التطور الاستعماري — « يُختارون » من قبل الشركات الكبيرة أو الادارة؛ولم يخلق فيهم بعد من يكونون ، وهم في الثلاثين ، بورجوازيين صغاراً بالمولد.

إن والد لومومبا فلاح كاثوليكي ؛ وهو منذ السادسة من عمره يصحبه الى الحقول ، و « الآباء اليسوعيون » هم الذين قرروا ان يذهب الولد الى المدرسة ، وفيما بعد حين بلغ الثالثة عشرة ، قرّرت له ذلك الارسالية البروتستانية . وفي هذا كله ، يبدو دور الأب والابن معدوماً . وقد انكر اميل لومومبا على ابنه ان ينتقل ، حين بلغ الثالثة عشرة ، الى البعثة السويدية ، ولكن ما عساه كان يستطيع ان يفعل ؟ لقد تقرر كل شيء خارج ارادتها ، كان « الآباء » يريدون ان يجعلوا منه استاذاً للتعليم المسيحي . اما السويديون ، وهم اكثر عملية ، فكانوا يريدون ان يعطوه مهنة تتيح له ان يترك الوضع الفلاّحي الى وضع ذوي الاجرة وان يعيش على ارضه ذاتها ، وفي واحد من التجمعات التي أسّسها البيض ، تابعة للمستعمِرين . وقد قضى باتريس طفولته في الأدغال : والبؤس المدقع للفلاحين الزنوج معروف ؛ ولولا المنظمات الدينية التي تعهدته لكان هذا البؤس نصيبه ، وافقه الوحيد . أتراه قد فهم على الفور ان الارساليات هي عملية الاستعمار؟لا ، بلا ريب . وهل رأى ان شروط الحياة الريفية ، هي بصورة مباشرة او غير مباشرة ، نتاج الاستغلال الاستعماري ؟ كذلك لا : كان الحكم الاداري ، حوالي موعد ولادته ، يدرس مساوىء العمل الاجباري التي كانت ظاهرة اكثر مما ينبغي . وقد حاول ان يجعل الفلاح يهتم بالانتاج ، وشجع الملكية الفردية .

وقد اعتبر باتريس الاستقلال البائس الذي كان يعيش فيه أبوه في عزلة المنظر الكونغولي وضعاً طبيعياً ، واعتقد ان « البيض » ليسوا المسؤولين عن ذلك ، بل انهم « سادة طيبون » يحاولون ان يُخرجوا اباه من هذا الوضع . ولا بد أنهم اعطوه ، في تلك الفترة ، توضيحات غريبة عن وضعه : إن الايمان المسيحي هو الاتاوة التي يدفعها الفتيان الكونغوليون للكنائس التي تعلّمهم القراءة . وكان « الآباء » يمنحونه طموحاً ضارياً الى ان يعرف بؤسه بأسبابه ، ومن ثم رغبته في ان يخضع له . وقد عبّر عن هذا التناقض فيما بعد ، في قصيدة له :

لكي يجعلوك تنسى انك انسان .
علّموك ان تتغنّى بمدح الرب .
وتلك الاناشيد المختلفة ، فيما هي توقّع محنتك ،
كانت تعطيك الأمل في عالم أفضل .
ولكن في قلبك ، قلب الكائن البشري ، لم تكن تطلب قط .
الا حقك في الحياة ونصيبك من السعادة .

إن الدين يُخفض بقدر ما يحرّر . ثم إنه يقدم الخلاص : والعالم الافضل ليس تعلّة ، ولكننا مجبرون على أن نعلم الناس أن المرء يدخله بالاستحقاق والكفاءة ، لا بالنسبة للون البشرة . وقد كانت نزعة المساواة الانجيلية ، مهما كان الجهد الذي بذله الكهنة لتقنيعها ، تحتفظ بقيمتها التذويبية في المستعمرات . إن هذه النزعة لا تؤثر أثرها فقط على الموعوظين ، بل على المبعوث نفسه أحياناً : فقد أقر مبعوثو « شوت » عام ١٩٥٦ ، بيان « ايليو » ، وهو رجل متطور في السابعة والثلاثين ، كان يطالب للكونغو باستقلال بعيد الاستحقاق ؛ وكان ذلك اما لرغبتهم في التمهيد لمؤتمر «للحزب الاشتراكي للمتروبول» او لاقتناعهم، او للأمرين معاً . وحين غادر باتريس ، وهو في الثامنة عشرة ، الادغال الى « كندو » حيث عينته شركة « سياف » بصفة كاتب جوال ، كان ذلك حدثاً عاماً من أحداث الهجرة الريفية ، كما كان مرحلة رئيسية من مراحل « اجتياز الوعي » . إنها قصة قروي شاب قرأ روسو وفكتور هوغو يلتقي فجأة

بالمدينة ؛ ويتغير مستواه تغيراً جذرياً : كان يذهب الى المدرسة بالتنورة ، فاذا به يذهب الى العمل بالسترة الكاملة ؛ وكان يعيش في كوخ ، فاذا به يعيش في بيت ، ويكسب قدراً من المال يكفيه ليستقدم خطيبته « بولين » التي أصبحت زوجته . واخذ يعمل في سُعر . ويزعم البيض انهم دهشوا لحماسته ، ويقولون إن الكنغوليين هم في العادة كسالى . ولكن هؤلاء المستعمِرين الغلاظ الذهن لا يدركون ان« كسل الساكن المحلي» وهي اسطورةمنتشرة في جميع المستعمرات، هو نوع من السابوتاج ، هو مقاومة الفلاح السلبية ، ومقاومة العامل المستغَل.اما سُعر باتريس فانه يصنفه ، على العكس ، لفترة من الزمن ، في زمرة من سيدعوهم فيما بعد بـ « المتعاونين » . ان ابن ذلك الفلاح هو الآن « متطور » ؛ وقد ألح في طلب «تذكرة تسجيل» فحصل عليها بعد مشقة — وعدد المسجلين في البلاد كلها هو مئة وخمسون — بفضل تدخل البيض : وهذا يعني انه « منحاز » اليهم . ووعى أهميته ، وأهمية « النخبة » الشابة التي تتكون في كل مكان . ويكوّن « المتطورون » طبقة اجتماعية تتكشف تدريجياً ، وهي المساعد الذي لا يستغنى عنه للشركة الكبرى وللحكم الاداري . وباتريس لومومبا ، الزنجي ، يستمد كبرياءه من عمله ، ومن الثقافة التي تلقاها ، ومن الكتب التي قرأها ، ومن الحذر المراعي الذي يحيط به البيض . وهو حين يعرض فيما بعد محاسن الاستعمار ، انما يفكر بهذا التحول العظيم المشترك .

ولكن احتيازه للوعي مزدوج ومتناقض : ففي الوقت نفسه الذي ينعم فيه بصعوده ، وباحترام رؤسائه ، يدرك انه قد بلغ سمته ، وهو في العشرين . وهو الذي يقف فوق جميع السود سيظلّ ابداً تحت جميع البيض . إنه يستطيع بكل تأكيد ان يزداد كسباً ، وان يصبح ، بعد فترة تدريب ، مستخدمَ بريد من الدرجة الثالثة في ستانليفيل. ولكن ماذا ؟ ان كاتباً بلجيكياً جوالاً ، في مثل قيمته ومثل عمله ، يتقاضى ضعف راتبه ، ثم ان لومومبا يعرف ، بعد هذه الرحلة الصاعقة ، أن الأرنب قد تحوّل فجأة الى سلحفاة : انه بحاجة الى أربعة وعشرين عاماً ليدرك الصف الأول ، وبعد ذلك ، يبقى فيه حتى التقاعد .

والواقع أن هذا الصف يشغله كله «الأوروبي» الذي يستطيع ان يأمل الارتفاع، من هناك، الى أرفع الوظائف. والأمر كذلك في «قوى الأمن». فإن «الزنجي» لا يمكن أن يرقى الى ما فوق رتبة رقيب. وكذلك الحال في القطاع الخاص. لقد رفعه «البيض» الى المستوى الذي تمنّوه، ثم إنهم يُبقونه فيه: فمصيره هو في أيدي الآخرين. إنه يعاني وضعه في الكبرياء وفي الاستلاب. وهو يلمح، فيما وراء وضعه الشخصي، صراع الطبقات عارياً؛ وهو سيكتب حين يبلغ الواحدة والثلاثين: «ان ثمة نزاعاً حقيقياً يقوم بين أرباب العمل وبين المستخدَمين في موضوع الرواتب» ولكن سالاريا المتطورين ليس هو البروليتاريا. إن مطالب لومومبا تقوم على وعي قيمته المهنية – كقيم النقابيين الفوضويين في أوروبا، في أواخر القرن الماضي – لا على الحاجة التي تؤسس في كل مكان مطالب العمال، وقد عرف تلك الأثناء تقريباً انهم قد ظلّلوه وخدعوه، ولا سيما في ليوبولدفيل: إن «شهادة تسجيله» التي حصل عليها بعد مشقّة كبيرة، تفصله عن السود، من غير ان تدمجه في البيض. إن المسجّل لا يملك الحق، أكثر من «اللامتطورين» في دخول المدينة الأوروبية، إلا إذا اشتغل فيها؛ ولم يكن يفلت، أكثر منهم، من منع التجول؛ لقد كان يلتقي بهم، حين يقوم بمشترواته، امام النافذة المخصّصة للسود؛ إنه مثلهم في كل مناسبة، وكل مكان، ضحية الاجراءات التمييزية. والواقع أن العنصرية والتمييز، هما بالنسبة إليه تجربة جديدة: ففي الأدغال والاحراج يمارس الانسان تجربة البؤس وسوء التغذية، ويمكن معرفة حقيقة المستعمرات التي هي الاستغلال الى أقصى حد؛ ولكن العنصرية لا تبدو قط، بسبب انعدام الاتصال بين السود والبيض: لقد تمكّن عطف البعثات الأبوي أن يخدعه؛ فإجراءات التمييز تُكتشف في المدن، وهي التي تشكل حياة المستعمَر اليومية. ويجب ان يكون واضحاً مع ذلك ان البروليتاريا المرهَقة، المغموطة الأجرة؛ تعاني من الاستغلال أكثر مما تعاني من التمييز العنصري الذي هو نتيجته. وحين فضح لومومبا الوضع، يوم ٣٠ حزيران ١٩٦٠ بقوله: «إن العمل الساحق المطلوب لقاء رواتب لم تكن

تتيح لنا ان نأكل حتى الشبع ولا أن نلبس ونسكن بصورة محتشمة ، ولا أن نربّي أولادنا ... » فانه يتحدث باسم الجميع . ولكنه حين يضيف : « لقد عرفنا ان في المدن بيوتاً رائعة للبيض وأكواخ قش متهدّمة للسود ، وان الزنجي لم يكن يُقبَل قط في دور السينما ولا في المطاعم ولا في الحوانيت الاوروبية ؛ وان الزنجي كان يسافر بلصق جراثيم المراكب ، عند قدمي الابيض في مقصورته الفارهة » ، فان طبقة المتطوّرين هي التي تتحدث بصوته . وحين يكتب ، عام ١٩٥٦ ، بان « التسجيل كان لا بد ان ُيعتبر كآخر مرحلة من مراحل الدمج » ، فانما يدافع عن مصالح قبضة من الرجال كان ُيسهم بهذا في فصلهم عن الجموع . والواقع ان مصالح هذه النخبة التي خلقها البلجيكيون خلقاً ، تتطلب تمثـلاً ُيدفع كل يوم الى امام : تساوي البيض والسود في سوق العمل ، انفتاح جميع الوظائف للافريقيين بمقدار ما يتمتعون بالكفاءات المطلوبة . ونحن نرى ان ما يطلبه ليس هو جعل الملاكات افريقية ، بل جعلها نصف افريقية . ألا ُيخشى في هذه الحالة ان يكون السود المقبولين في الوظائف العليا شركاء في الاضطهاد والاستعمار ، أو رهائن على الأقل ؟ ان لومومبا ليس واعياً بعدُ المشكلة . والواقع انه في العام الذي طلب فيه « ايليو » في بيانه الاستقلال بعد فترة معيّنة ، كان باتريس ما يزال يرسم تصميم « مجتمع بلجيكي – كونغولي » وفي داخل هذا المجتمع كان يطلب تساوي المواطنين . ولكن هذه المساواة لن تطبق ، الى امد بعيد ، الا لصالح المتطوّرين : « اننا نعتقد انه سيكون ممكناً منح النخبة الكونغولية وبلجيكيي الكونغو في مستقبل قريب نسبياً ، حقوقاً سياسية ، وفق بعض المقاييس التي ستضعها الحكومة . »

غير ان لومومبا يبدو ، منذ هذه الفترة ، عكسَ من سيسمّيهم فيما بعد « متعاونين » . ذلك انه يعاني حتى النهاية تناقض طبقته : وهذه الطبقة التي خلقتها ضرورات الاستعمار خلقاً ، كان يعرف ان مشاريع الرأسمالية البلجيكية قد قطعتها عن الجموع ، وان ليس ثمة من مستقبل لها إلا في النظام الاستعماري ، ولكنه في الوقت نفسه انتهى الى الاقتناع من تجربته في المدينة بأن هذا المستقبل

إنما يرفضه له المستعمِرون والادارة . فهـو لم يكن يؤمن بالمجتمع البلجيكي الكونغولي في الوقت نفسه الذي كان يقترحه فيه : لقد اكتشف اخيراً صلابة النظام الذي خلقه ليزداد استغلالاً له ؛ وليس ثمة من اصلاح معقول لسبب واحد هو ان الاستعمار انما يتماسك بالقسر والاجبار ، ويزول حين يوافق على القيام بالتنازلات . وسيكون الحل الوحيد حلاً ثورياً : الانفصال ، الاستقلال .

وقد رأينا ان « ايليو » سبقه في المطالبة بذلك . وكذلك « كازافوبو » ، رئيس حركة اباكو القوية . ان لومومبا لم « يخترع » الاستقلال ؛ وقد اكتشف آخرون ضرورته . ومع ذلك ، فلئن اصبح محرّكه وشهيده ، فلأنه كان يريده كاملاً غير منقوص ، من غير ان تمنحه الاحداث امكانية تحقيقه . والواقع ان معظم التنظيمات القومية تتشكل بالضرورة في إطار اقليمي: فالحزب الاشتراكي يقوم في « كوانغوكويلو » واللجنة الوطنية في « كوفو » : وصحيح انهم يبلغون بصعوبة – ان يوفقوا القوميات ، ولكنهم لهذا السبب نفسه يجدون مشقة في ان يتجاوزوا الارياف. والحق ان قوميتهم – اذا وجدت – هي اقرب الى النزعة الفدرالية : انهم يحلمون بسلطة مركزية محدودة جداً مهمتها الرئيسية ان توحّد مقاطعات مستقلة. وتذهب الامور في ليوبولدفيل الى ابعد من هذا : فالتفوق العددي لل « باكونغو » [1] يتيح لل « اباكو » ان يكون في وقت واحد حزباً اقليمياً وقومياً . واذا لم نتأمل الا هذه الحالة الاخيرة ، ينتج من هنا نتيجة مزدوجة : ان الاباكو حركة قوية ولكنها قديمة بالية؛ انها مجتمع سري وحزب جماهيري معاً ، وقادتها الرئيسيون هم متطورون ولكنهم غير مقطوعين عن الشعب ؛ لانهم اخذوا على عاتقهم مطلبه الأساسي : الاستقلال الفوري لمقاطعة الباكونغو . ورئيسهم الاول كازافوبو هو شخصية غامضة ، سرية ، ويمكن القول عنه انه عرف ان يظل على اتصال مباشر مع قاعدته القومية ، بالرغم من انه عُيّن بواسطة الادارة الحكومية ،ولكنه في الوقت نفسه لم يملك قط الوسائل ولا الفرصة ولا ارادة الارتفاع الى الوعي الواضح لطبقته الخاصة. لقد بدأ طالباً

---

(١) ضاحية برازافيل ، يسكنها الافريقيون وعدد سكانها زهاء ٢٧ الف نسمة ( هـ . م )

اكليريكياً بلا ايمـــان ، ثم كان مدرساً ، وتشده الى الباكونغو صلة غامضة ، مخلـّصيـّة؛ إنه قائدهم الديني وملكهم ، والحجة الحيـّة على انهم «الشعب المختار» . وحين انتخب رئيساً للكونغو المستقلة ، عاش فجأة في التناقض التـام : إن وظيفته تأمره بالمحافظة على الوحدة الوطنية — وخصوصاً في وجـــه الانفصال الكاتانغي الذي يوشك ان يهـدم الكونغو — ولكن شعبه يطلب منه ان يكون هو نفسه انفصالياً وان ينشىء من جديد مملكة الكونغو القديمـة باسترداد بعض الأراضي من الكونغو الفرنسية . ولكنه سيكون عاجزاً عـــن السيطرة على الموقف ، وسيتأرجح بـين نزعة فدرالية فوضوية ونزعة مركزية ديكتاتورية ، مستندة الى القوة العسكرية . وهو خصوصاً سيلعب لعبة الاستعمار ، بلا شعور اولاً ، وبشعور كامل ثانياً : وليست القضية هنا هي قضية نفسية ، بـل قضية عزم مجرّد ، فحركة الاباكو الانفصالية في جوهرها ، كان لا بد لهـــا ، بعد الاستقلال ، من ان تهدم عمل القوميين لصالح القوى الأجنبية. على أنه في الوقت الذي استيقظ فيه لومومبا للوعي القومي ، « قبل » الاستقلال ، عملت هـــذه الحركة المشوشة ، الظلامية والثورية في وقت واحـد ، اكثر من اي حزب في تحرير الكونغو. لقد كانت منذ عام ١٩٥٦ تستجيب لبيان « ايليو » ، ولأفكار لومومبا حول « المجتمع المشترك » مطالبة بالاستقلال الفوري وتـأميم المشاريع الكبرى . حتى يمكن للمرء ان يعتقد بأنها كانت ذات برنامج ثوري واشتراكي ، او على الاقل ، بان مطالب القاعدة كانت تصل حـــتى القمة : ولكن الاحداث التي تلت دلت على ان هذا لم يكن صحيحاً. إن القضية لم تكن الا قضية مزايدة: كانت الخطة ان يكون الاباكو اكثر الأحزاب جذرية . والحقيقة انـه كان كذلك : بمعنى انـ سكان الباكانغو يمثلون ٥٠ بالمئـــة من السكان السود ، في ليوبولدفيل ، ويزوّدون المدينة باليد العاملة غـير الكفؤ . لقد كانوا منظمين ، فكان من الممكن تعبئتهم في كل لحظة ، بكلمات السرّ : انهم هم الذين يقومون بالاضرابات ، وحمـــلات التمرّد ؛ فاذا منعهم قادتهم من التصويت ، لم يقترب أحدهم من صناديق الاقتراع . وهم الذين قاموا باضطرابات كانون الثاني ١٩٥٩ :

اما اذا كان ذلك قد تم بناء لأوامر واضحة، او بالرغم من قرارات المنع الدقيقة، فان هذه قضية تظل بلا جواب . ان المتطورين لم يكن لهم اية سلطة على الجماهير - الا في الكونغو - الواطئة ، وكان عـددهم وطريقة حياتهم يجعلانهم عاجزين عن الانتقال الى العمل المباشر . وينبغي الاعتراف بأنهم لم يكن لهم الا وزن ضئيل في احداث كانون الثاني ١٩٥٩ . والحقيقة ان الأزمة الاقتصادية والتقهقر الاستعماري الذي يمسّ المتروبول مسّاً قاسياً ، وهياج الجماهير التي تشبعت بالروح العمّالية والتي ينخفض مستوى حياتها بصورة محسوسة - إن هذا كله مضافاً الى اخطاء الادارة هو الذي أقنع حكومة المتروبول بمنح الكونغو بصورة مفاجئـة استقلالها، اي باستبدال النظام الاستعماري بالاستعمار الجديد - بموافقة الشركات الكبرى ...

إن لومومبا لم يصنع الثورة الكونغولية ؛ وقـد كان وضعه كمتطوّر مقطوع عن البروليتاريا المدنية وكذلك عن الارياف يمنعه من اللجوء الى العنف ؛ وقـد كان مصدر عزمه في ان يكون « لا عنفياً » - وقد ظلّ متشبثاً بذلـــك حتى موته - اعتراف واعٍ بسلطاته ، اكثر مما كان مبدأ او ملمح شخصية. وهو منذ عـام ١٩٥٦ معبود الجماهير في ستانليفيل . ولكن المعبود ليس هو الزعيم ، على غرار نكروما الذي هو معجب بـــه ، وليس هو كذلك الساحر ، على غرار كازافوبو هذا الذي يحيره . إنـــه يعرف هذا : يعرف ان باستطاعته ان يقنع جمهوراً من المستمعين ، بتلك الموهبة التي يملكها بان يتحدّث في كل مكان ، والى أي انسان ، وبتلك الثقافة التي تلقاها من البلجيكيين والتي ترتدُّ عليهم؛ ولكن لا بدّ من مواهب أخرى غـير موهبة الكلام للحصول على القدرة لدفع الرجال ضد الرشاشات ، عراة الأيدي . ومع ذلـك ، فهو الذي سيقبض على الثورة في مسيرتها ، ويطبعها بطابعه ، ويوجّهها . لماذا ؟ لأن وضعه كمندمج وطبيعة عمله يتيحان له أن يرتفع حتى العالمية . لقـــد عرف الادغال ، والتجمعات المدنية الصغيرة ، ومدن الريف الكبيرة والعاصمة : وقـد أفلت ، منذ الثامنة عشرة ، من النزعة الاقليمية . وقد منحته قراءاته والتعليم الديني صورة للانسان ، كانت

ما تزال مجرّدة ، ولكنها متحرّرة من العنصرية : ومما يثير الانتباه انه في خطبه يشرح وضع الكونغو بالعودة الدائمة الى مراجع « الثورة الفرنسية » ، وكفاح « البلاد الواطئة » ضد الاسبان . وإن في اشاراته طبعاً ما يشبه « الحجة ضد الانسان[1] » : كيف تستطيعون، أيها البيض ، ان تمنعوا السود من القيام بما قمتم به ؟ ولكنه ، فيما وراء هذه المعارك الكلامية ، كان يلجأ الى نزعة نسانيـة مبدئيـة لا يمكن ألا تكون ايديولوجية المتطورين : والحق ان هؤلاء ، باسم « الإنسان البـدائي الصانع » ، يطلبون مساواة الكونغوليين والبلجيكيين في سوق العمل . وهذا المفهوم العالمي يضع لومومبا دفعـة واحدة فوق القوميات والنزعة القبلية : إنه يتيح لهذا التائه الإفادة من رحلاته ودرس المشكلات المحلية نسبةً الى ما هو عالمي . ومن هذه الزاوية في وجهة النظر ، سيدرك وحـدة الحاجات والمصالح والآلام ، فيما وراء تنوّع العادات والمنازعات والمنافسات . ولقد وضعته « الادارة الحاكمة » فوق المستوى العام: وكان من شأن هـذا ان يعزله ، بلا شك ، ولكن كان من شأنه أيضاً ان يتيح له ان يفهم وضع الكونغولي في عموميته . وهو لن يني بعد الآن ، وأياً كان جمهور المستمعين ، يؤكد وحدة وطنه : إن ما يفرّق البشر انما هي آثار ماضٍ استعماري حافظت عليه الادارة محافظة شديدة ؛ اما ما يجمعهم ، سلبياً اليوم ، فمصيبة مشتركة أعمق من التقاليد والعادات ما دامت تصيبهم في موارد الحياة بالعمل المرهق والغـذاء الناقص ، وبالاختصار ، إنه الاستعمار البلجيكي الذي يخلق الامـة الكونغولية بهجومٍ مستمرّ قائم في كل مكان .

وهذا صحيح وغير صحيح في وقت واحد . إن الاستعمار يوحّد ، ولكنه يفرّق بالقدر نفسه على الاقل : ليس فقط بدافع المكيافيلية والحساب – فهذا أمر هيّن – بل بتقسيم العمل الذي يُدخله والطبقـات الاجتماعيـة التي تخلقه وتنضّده . إن العلاقات الاجتماعية – المهنية تميل الى الانتصار ، في المدن ، على

---

(١) وهي الحجة التي يخلق بها المرء اضطراب خصمه بالاستشهاد بكلماته او بأفعاله نفسها . ( هـ . م ) .

العلاقات القبلية ، ولكن اذا أمعن المرء النظر ، فان التقسيمات وفق الخدمة ومستوى الحياة والتعليم والتثقيف تنضاف الى التقسيمات القومية داخل الاحياء الزنجية . ويجب أن يضاف الى ذلك المنازعات التي تقوم بين الأوائل من الذين استقروا في المدن والأواخر . إن بروليتاريا الحقول ليست هي بروليتاريا المدن، وإن « المعتادين » الريفيين الذين توجههم المقاطعات المحافظة ، المباعة للاوروبيين غالباً ، لا يدخلون في أنظار سكان المدن المتطورين. ولكن البورجوازية الصغيرة الناشئة لا بد لها « بالضرورة » من ان ترتكب خطأ البورجوازية الفرنسية في عهد « الثورة » : انها اتجاه بروليتاريا غير منظمة ، ذات مطالب مضطربة، وتجاه طبقة الفلاحين التي نشأت منها والتي تظنّ انها تعرف امانيها، تعتبر نفسها « الطبقة العالمية » ؛ والفرق الوحيد الذي تريد ان تحسب حسابه لا يتصل بالاقتصاد : إن المتطوّرين يحدّدون أنفسهم ، وفق ارادة الادارة الاستعمارية ، بدرجة التعلم . إن الثقافة التي تلقوها هي اعتزازهم ومادّتهم الحميمة : فهي تفرض عليهم ، كما يعتقد أفضلهم ، واجب نقل اخوانهم الاميين من الحقول والأدغال الى السيادة والاستقلال . وأنا اقول إن هذا الوهم لا سبيل الى تجنبه : فكيف يستطيع لومومبا — الذي كان يذهب الى مدرسة « الآباء » « بالتنورة » والذي سيحتفظ حتى موته بالعادات الفلاحية — ان يعتبر نفسه حقاً ممثل طبقة جديدة؟ ولئن هو قد عاش بشكل أفضل ، فذلك معزوّ ببساطة الى كفاءته. إن كلمة « المتطور » الكريهة والتي اختيرت بحذق، تقنّع الحقيقة : طبقة صغيرة من ذوي الامتياز تعتبر نفسها الجناح المتقدّم للمستعمِرين . إن كل شيء يتآمر لتضليل لومومبا : ففي آب ١٩٥٦ ، وافقت « جمعية موظفي المستعمرة المحليين » ، باجماع أصوات المندوبين الذين حضروا الجمعية العمومية ، على مطالب المتطورين . وقد رأى باتريس في هذا الاتفاق الذي جمع الجماهير والنخبة علامةً على الوحدة العميقة للكونغوليين . ونحن ندرك اليوم ، على ضوء الأحداث ، أن القضية كانت قضية تفاهم مجرّد : إن الجماهير المحلية معتزة بـ « متطوّريها » الذين يقدّمون الدليل « للجميع » أن « الاسود » ، اذا أتيحت له الفرصة ، يستطيع أن يساوي او

يتفوّق على « الأبيض » ؛ إنهـــا تدعم مطالب النخبة ذات الامتياز – ولا سيما بالكلام والتصفيق – لأنهـا ترى فيها موقفاً جذرياً يتخذه المستغَلّ في وجـه المستخدِم : فهذا مثل ورمز؛ وانطلاقاً من هنا ، يستطيع المندوبون ان يواجهوا تجذيراً للمطالب العمالية . ولكن هذا التجذير ، حين تنتجه الظروف ، من شأنه أن يحطم تحالف الجموع مع البورجوازية الصغيرة .

ولقد أخطأ لومومبا في هذا ، ولكن هذا الخطأ الذي لم يكن ثمة سبيل الى تجنّبه ، كانت له نتائج ايجابية ؛ وبكلمة واحدة ، كان على حق ، تاريخياً ، في ارتكابه . فهو الذي أتاح له ان يؤكد تأكيـداً قوياً أن الوحدة وحدها ستسمح للكونغو بأن يحصل على استقلاله. والحق أن هذه الصيغة التي رُدّدت كثيراً هي صحيحة تماماً شريطة أن نضيف ان الحركة الوحدوية يجب ان تأتي من القـاعدة وتنتشر في المدينـة كالمدّ . ولكن من سوء حظ الكونغو أن هـــذا الانتشار مستحيل، بسبب الانقسامات الاجتماعية وحياء المطالب، وانعدام الجهاز الثوري المنبثق من الجموع والمراقب منها : وسيكون هذا تاريخ العقد القادم . لقـد كان يمكن للومومبا ، الذي يصغي اليه الجميع في كل مكان بحماس ، ان يعتقد بأن الجموع ستتبع المتطورين حتى النهـاية . وتلك الوحدة التي كان يعتبرها قد تمت ويجب ان تنجز في وقت واحـــد ، كانت في نظره « الامة » نفسها . الامة : الكونغو الذي يتحد بالنضال الذي يخوضه من اجل استقلاله. ولكن رئيس الوزارة المقبل لا يدفع السذاجة الى حد الاعتقاد بأن هذا التجمّع سيتحقق في التلقائية . إنه يطرح ببساطة هذا المبدأ السلبي : إن الحكم الاداري يفرّق ليسود، والوسيلة الوحيدة لإفقاده قوته هي القضاء في كل مكان على الانقسامات التي خلقها . لا بد من القضاء على القبلية ، والاقليمية ، والنزعات المصطنعة والحواجز الحـاسمة التي تحافظ عليها الديموقراطية، نعم. ولكن شريطة ألا نخلطها كما فعل « ايليو » مع نزعة فيدرالية معينة . فأياً كانت النيـــة ، ومهما كانت السيادة الاقليمية التي يطلبها حزبٌ صغيرةً ، فانها الدودة في الثمرة ، ستُفسد كل شيء ، وسيستغلها الاستعمار « على الفور » . ويدرك لومومبـا ان الاباكو ستكون لفترة من الزمن

آلة قوية لقلب الاستعمار، ولكنها توشك فيما بعد ان تكون أفضل آلة لإعادته. لقد دمجته وظيفته في مركز البريد بالادارة الاستعمارية وأتاحت له ان يكتشف سمتها الرئيسية : المركزية . وقد سهّل له هذا الاكتشاف أنّ المصادفة جعلت منه آلةً في نظام المواصلات المركزي. ان البريد يمدّ شبكته في جميع الأرياف، حتى الأدغال ؛ وهو الذي ينقل أوامر الحكومة الى مراكز الدرك المحلية والى قوى الأمن . واذا كان للامة الكونغولية ان توجد يوماً ، فستكون مدينةً بانسجامها لمركزية مماثلة : وهنا يحلم باتريس بسلطة تركيبية للتجميع ، تمارس أثرها في كل مكان ، وتفرض التوافق في كل مكان ، والعمل المشترك ، وتتلقى أنباء المناطق النائية ، وتستقطبها ، وتقيم عليها توجيه سياستها ، وتردّ عبر الطريق نفسها ، حتى الأكواخ ، الأنباء والأوامر لممثليها . إن « الحكومة » توحّد المستعمَرين « من الخارج » بصفتهم رعايا الملك .

ولن يكون الاستقلال إلا كلمة إذا لم يحلّ محل هذا « الانسجام من الخارج » تجميعٌ « من الداخل » . إن « الإدارة » البلجيكية لا يمكن ان تُستبدل إلا بحزب جماهيري ، قائم في كل مكان، كالإدارة ذاتها ، ديموقراطي — وهذا يعني: منبثق من الشعب ، ومراقَب من قبله . ولكن على ان يكون بالمقدار نفسه متسلّطاً الى حد ان يتعيّن عليه وحده أن يحمي « الأمة » من نتائج تفتيتٍ ظل قائماً طوال ثمانين عاماً — الى ان يستطيع الكونغو الحرّ ان يشرع لنفسه قوانينه . وقد وعى لومومبا الأخطار وعياً عميقاً حتى تمنّى ان يستبدل كثرة الحركات الوطنية بحزب واحد . ومعلوماتنا عن هذا المشروع قليلة . غير أننا نعرف أن القضية قضية حزب « على الطريقة الافريقية » : لا كالحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، وهو حزب محدود يعيّن أعضاءه الجدد ، بل يضمّ السكان كلهم ، نساء ورجالاً ، فيصبح كلٌّ منهم مواطناً ومناضلاً « في الوقت نفسه » . وكان يخشى ان تفضي المعارضة ، إذا بقيت خارج الحزب ، الى نزعة انفصالية ، أي الى موت الكونغو . أما في الداخل ، فإنه لا يرفض هذه المعارضة . وقد ردّد مراراً ان المناقشات ستكون في الحزب صريحة وحرّة . أما ما لم يقله ،

ولكنه أمرٌ طبيعي ، كجميع حالات الطوارىء ، فهو ان الأقليات ، بعد التصويت ، ستكون مجبرة على تبني وجهة نظر الأكثرية ، وان المعارضة التي تُحلُّ كل مرة لتتولد في مكان آخر ، في وجه مشكلات أخرى ، لن تمثّل بالاجمال إلا الممارسة الحرة لحكم كل انسان في الظرف الراهن ، وستكون محرومة من أن تشكّل لنفسها تاريخاً ، ومن أن تتكوّن كحزب داخل الحزب الأكبر.

وقد كان يعلّق – بأي حال في عهود الاستقلال الأولى -- أهمية أقل على تحقيق برنامج اقتصادي واجتماعي منها على مهمة « الحزب » الأولية : أن يمنع بأي ثمن تفتيت البلاد . ولكن هذا الهمّ نفسه كانت له دوافع اقتصادية : إنه لم يكن يجهل شيئاً من مناورات « الكوناكات » ولم يكن لديه أي شك في ما سينتج من الانفصال الكاتانغي . وهكذا كانت هذه « اليعقوبية »[1] السياسية تستلهم معرفة تطبيقية للحقائق الكونغولية . وان خطبه تثبت انه كان يتنبأ بكل ما حدث فيما بعد : وكان خطأه الوحيد اعتقاده انه كان بالامكان إبعاد الكارثة بخلق حزب كبير عصري يحلّ في الوقت المناسب محل قوة المحتلّ القسرية .

من المعروف أن المتروبول كان صالحاً ، بالرغم منه ، مكاناً لاجتماع كونغوليين ذوي قوميات مختلفة . وقد حدث ذلك بمناسبة « المعرض العالمي » . وقد اكتشف هؤلاء السود ، المعزولون في بروكسل ، اكتشفوا عبر وحدة مضطهديهم البيض ، وحدتهم كمضطهَدين التي كانوا يعتقدون أنها أقوى من انقساماتهم . والواقع أن الكونغوليين ، في بلجيكا ، لا يشعرون إلا بما يقرّبهم . وهم بالمقابل يحافظون على الأمل المجرّد بأن يلحموا المستعمَرين من حيثما أتوا في حزب يعلو على القوميات . وقد كان لومومبا هو الوحيد المرصود لتأسيس هذا الحزب . وهو سوف يكون « الحركة الوطنية الكونغولية » . ولكن تكوين الحزب سرعان ما كشف طبيعته : إنه « جامعي » ، فيما وراء القوميات والحدود ، لأن مناضليه هم « جامعيون » ، انها بكلمة واحدة حركة المتطورين ، ولسوف

---

١ – نظرية الرأي الديموقراطي الحر ( هـ.م ) .

يجدون له مناضلين في كل مكان ، وبلا مشقة كبيرة ، في المدن على الأقل ، لأن « الإدارة » والشركات الكبرى قد وزّعت في كل مكان الموظفين والمستخدَمين الذين صنعتهم . ولكن حلم تكوين حزب جماهيري ينهار : إنه على الأكثر حزب ملاكات ومشاغبين . وليس الذنب في ذلك ذنب أحد : فإنه لم يكن ثمة سبيل الى غير هـذا ؛ إن الحركة الوطنية الكونغولية هي البورجوازية الصغيرة الكونغولية التي تكتشف ايديولوجية طبقتها .

وإن لومومبا هو أكثرهم جذرية : فلئن لم يكن يرى ، هو المتبصّر والأعمى في وقت واحـد ، التكيُّف الاجتماعي والاستحالة الحاضرة لتحقُّق نزعته الوحدوية ، فقد كان يدرك جيداً بالمقابل أن مشكلات الكونغو هي مشكلات افريقيا كلها ؛ بـل أكثر من ذلك : إن بلده لن يجد القوة على أن يعيش بعد الاستقلال إلا في إطار افريقيا حرة . وقد حضر ، بصفته ممثلاً للحركة القومية الكونغولية ، مؤتمر « اكرا » . وخطب فيـه معبّراً بهذه الكلمات عن تلك الحاجة الوحدوية التي تولد في كل مكان على القارة والتي كان اجتماع اكرا نتيجتها المباشرة :

« إن هذا المؤتمر .. يكشف لنا شيئاً: فبالرغم من الحدود التي تفصل بيننا، وبالرغم من اختلافاتنا القومية ، فإن لنا الوعي نفسه ، والروح نفسها التي تعوم ليل نهار في القلق ، والهم نفسه بان نجعل من هذه القارة الافريقية قارة حرة ، سعيدة ، متطهرة من القلق والخوف وكل سيطرة استعمارية » .

فاستبدلوا بكلمة افريقيا كلمة كونغو ، وبكلمة قارة كلمة أمـة ، تجدوا العبارات التي يردّدها كل يوم ، في جميع ارياف بلاده: ذلك ان الكونغو يبدو له موجزاً مكثّفاً لجميع الفوارق التي تخلّد نزعات الانفصال الافريقية : فاننا نجد فيـه حدوداً اقليمية ، وصراعات قوميـة ودينية ، وتمييزات اقتصادية عمودية (طبقات اجتماعية) وأفقية ( تصنيف الموارد تصنيفاً جغرافياً ) فليس ثمة إذن ، في نظره ، الا مهمة واحدة : ان النضال من أجل الاستقلال هو نضال من أجل الوحدة القومية . ولكن ، في الوقت نفسه ، لافريقيا الحرة ؛ وسيوضح فيما بعد

ان كل ما يعجل في اندماج الدول المختلفة في اتحاد واحد، يقرّب بالمقابل الساعة التي يتحرر فيها آخر المستعمَرين من آخر مستعمِريهم. وقد دلّت الاحداث التي جرت فيما بعد أنه كان يملك في هذه النقطة نظرة عملية واضحة جداً: إن الدول التي ظفرت باستقلالها يجب ان تُساعِد، بجميع الوسائل، البلاد التي ما تزال مستعبدة في ان تطرح عنها كل انواع الوصاية. ونحن نعرف انه سيطلب، بعد عامين ونصف، حين يُحسّ بأن الجمهورية الكونغولية الهزيلة على وشك أن تنهار، مساعدة الجيوش الغانية. ولو ربح المعركة، لما كان ثمة شك في ان الكونغو كان سيساعد انغولا وجميع البلاد المجاورة: إن نزعة لومومبا نحو الوحدة الافريقية قد كلفته عداوة بعض خصومه الاشداء من بيض روديسيا وافريقيا الجنوبية، والمحافظين الانكليز. وقد كان من شأن الكونغو الداعي الى الوحدة الافريقية ان يكون مثلاً وخميرة في جميع القلوب التي كانت ما تزال مستعبدة. ولكن كان من شأنه خصوصاً ان يقدم بمثة طريقة المعونات الناجعة للتنظيمات الثورية في البلاد المجاورة. وليس ذلك فقط بدافع الاخوة، بل كذلك لأنها كانت السياسة الافريقية الوحيدة التي تستطيع ان تفرض نفسها: ان الكونغو حين تحرّر، ظل محاطاً بأعداء ألداء؛ وكان ينبغي للسود ان يحطموا أغلالهم في روديسيا وأنغولا، وأن يقبلوا حكومة الاستعمار – الجديد لـ « يولو » – او ان يسقطوا مرة اخرى في العبودية، في الكونغو. وما يوحي به لومومبا – ولكننا نعرف أنه قد ادركه على الفور – هو ان الاستقلال الكونغولي ليس نهاية، بل هو بداية نضال مميت للظفر بالسيادة القومية. وإن بالإمكان الحصول على ذهاب القوات البلجيكية بتنظيم « داخلي »؛ ولكن حين تكون قد ذهبت، فلن يبعد الخطر الا بسياسة « خارجية »، وستكون الدولة الجديدة، اذ تخسر سادتها من غير ان تكون قد عثرت على وسائل ممارسة حريتها، مجبرة على ان تعتمد على الدول الأقل فتوة والتي ظفرت بسيادتها، ويجب أن تدعم الحركات الوطنية في المستعمرات التي تحيط بها. ولهذا السبب، اكد لومومبا في خطابه بمؤتمر اكرا، على التكييف المتبادل للهدفين اللذين استخلصهما المؤتمر، واللذين ليسا

حقاً الا هدفاً واحداً في ذهنه : « الصراع ضد العوامل الداخلية والخارجية التي تشكل عقبة في وجه تحرير بلادنا وتوحيد افريقيا » غير انه كان اشدّ انخراطاً في الصراع السياسي للتحرّر من ان يلح على المظهر الاساسي للوحدة الافريقية : هذه الوحدة التي لا يمكن لافريقيا ان تحققهـا من غير ان تنشىء لنفسها سوقاً افريقية . وإن تنظيم سوق مشتركة على صعيد القارة السوداء يفترض مشكلات اخرى وصراعات اخرى : ولم يئن الأوان بعد « للحركة الوطنية الكونغولية » لكي تواجهها . كما انه لم يئن الأوان لكشف التضليل الذي تغطيه في عـدة بلدان — الكونغو الفرنسي مثلاً — كلمة الاستقلال السحرية : لا سيما وأن ديغول حين تلفظ بها في برازافيل ، في العام نفسه ، قد أثار في الجالية البلجيكية حماساً حقيقياً واكتسب دفعة واحدة اكثر المترددين في المطالبـة بالبلشفية . وأياً مـا كان ، فان ما ينقص لومومبا هو معرفة معمقة للأمم الجديدة وبنياتها التحتية : ولانعدام هذه المعرفـة ، علم بعـد فوات الأوان أن بعض الأمم السوداء هي في تكوينهـا عـدوة لدودة للاستقلال الكونغولي . ولمـا كان قـد اكتسب وعيـه خصوصاً من الاضطهاد القـاسي والانفصـال الكريه ، فانـه لم يستطع أن يتصور خصمـاً آخر غـير الاستعمار القـديم ، وهو الآلة الصلبـة التي ينبغي أن تُسحق أو ان تتحطـّم . وضد هـذا الاستعمار ، هيّـأ نفسه للنضال: وقد وكان في الواقع قائماً هنا ، تمثله الادارة الاستعمارية . ولكن الزعيم الزنجي لا يشكّ في أن هذا الغول، الذي كان لا ما يزال حيّاً وشرّيراً، قد مات حقاً ؛ وأن الحكومات الاستعمارية والشركات الكبرى قد قرّرت ، تجاه الأزمـة الاستعمارية ، ان تصفي الأشكال الكلاسيكية للاضطهاد والبُنيـات العظيمة الضارّة التي قامت خلال القرن الماضي . إنـه لا يعرف ان المتروبولات القديمة تريد ان تسلم السلطة الاسمية لسكان «محليين» يحكمون ، بصورة متفاوتة الوعي ، بناءً على مصالح استعمارية ؛ إنـه لا يعرف ان المشتركين في الذنب او رجال القشّ قـد عيّنوا مقدمـاً في اوروبا ، وانهم ينتمون جميعـاً للطبقة التي اختارتها « الادارة » وشكلتها ، للبورجوازية الصغيرة المؤلفـة من المستخدَمين

والموظفين ، لطبقته هو بالذات . وهـــذا الجهل سيكون سبب ضياعـــه . صحيح أنه من النخبة ، فهو إذن مقطوع عن الجماهير التي يُفرَض فيه ان يمثلها : ومناضلوه هم جميعاً من البورجوازيـــين الصغار؛ واذا ربح ، فمعهم هم سيشكل حكومته القادمة . ولكنّ ذكاءه واخلاصه العميق للقضية الافريقية سيجعلان منه « روبسبيراً » أسود . إن مشروعه هو في وقت واحـد محدود – سياسي أولاً ، على أن يأتي الباقي في أوانه – وشمولي . لقد انتزعه « الآباء » من عـــالم اللامتطورين العادي ؛ بل هو قد تمثل ، في البدء ، بمعرفته الفتيّة ، وجعل من نفسه لسان حال النخبة ، وطالب لها بالاندماج الكامل. ولكنّ الشمولية عنده انتهت الى حمل كلّ شيء . ولا شك في أن هذا المبدأ ايديولوجي من مبـــادىء طبقته. وهو كما رأينا وهمٌ في الرؤية. ولكن هذه الانسانية التي تقنـّع لدى الآخرين تفرُّد المصالح الطبقية ، جعلها هو هَوَسه الشخصي ، وقد أخلص لها كلياً . إنه يريـد ان يردّ للبشر – الدون الذي خلقهم الاستغلال الاستعماري انسانيتهم. وهذا بكل تأكيد لا يتم بدون تعديل لجميع البُنيات ، أي بالاختصار، بلا إصلاح زراعي ولا تأميم : إنّ تكوّنه كديموقراطي بورجوازي يحول بينه وبين أن يميز ضرورة هذا الخلق الجديد للبنيـة الأساسية . وليس الأمر ذا خطورة كبيرة : فأنـّى له أن يكتشف ذلك بغياب التنظيمات البروليتارية الـــتي تقنـّي المطالب السياسية وتوّضحها ؟ ولو انه احتفظ مدةً أطول بالسلطة ، لأحرجته الظروف والبشر : أإستعمار – جديد أم اشتراكية افريقية ؟ ولا يأخذننـــا أيّ شك في الذي سيختار . فانه مع الأسف ، حين أسّس « الحركة الوطنية الكنغولية » متصلاً بزعماء الأحزاب الأخرى – أي بمتطورّين آخرين – كان يستعمل من غـير ان يراوده أدنى ارتياب ، أكثر عناصر طبقته نشاطاً وحيوية ، أي رجـالاً كانت مصالحهم المشتركة والخاصة تهيّؤهم منذ وقت طويل لخيانته ، رجالاً اعتَبروا منذ الأيام الأولى من تموز ١٩٦٠ أنه قد خانهم. والواقع ان النزاع الذي قام بينه وبين وزرائه من جهة بينه وبين الأقلية البرلمانية من جهة أخرى، لم يكن له من مصدر آخر : لقد كان أولئك البورجوازيون الصغار يريدون أن ينصبوا البورجوازية

الصغيرة كطبقة حاكمة — وهذا ما يعادل « موضوعيـاً » التقارب من القوى الاستعمارية ؛ كان يريد نفسه قائداً ودليلاً ، ولا يعتقد انه ينتمي الى أية طبقة ، ويرفض في حماسته المركزية ان يحمل على محمل الجد التمييزات ذات الأصل الاقتصادي كما كان يرفض التقسيمات القبلية : إن « الحزب الواحد » سيحطم هذه الحواجز كما حطم الأخرى ، ويوفق بين جميع المصالح . ومن الممكن من جهة أخرى ان يكون قد فكر ، بوضوح كثير او قليل ، في مشروع إعادة تنظيم الاقتصاد على مراحل ، وأن يكون قد احتفظ بنوايا في السرّ ، بداعي الحيطة. ولقد كانوا يتهمونه بذلك على أي حال : وليست قضية الطائرات الروسية وحدها هي التي دمغته فجأة بالشيوعية. فان أكثر العارفين من البرلمانيين والوزراء كانوا يخشون بالتأكيد ان تتحول نزعته الديموقراطية الحرّة الى الاشتراكية بفضل نزعته الانسانية الوحدوية . والمهمّ على أي حال انه وضع طبقته في الحكم، وانه كان يتهيّأ للحكم ضدها . أفكان ممكناً ان تجري الامور على غير هذا النحو ؟ لا : إن البروليتاريا ، في السنوات الأخيرة من الاستعمار ، لم تقم بعملٍ كان من الممكن أن يفرضها على هؤلاء البورجوازيين الصغار كفريق صالحٍ للمحادثة .

## ٢ — أسباب الإخفاق

حين عاد زعيم « الحزب الواحد » المقبل من أكرا ، أصبح في الواقع رجل المصالحة : وقد حاولت « الحركة الوطنية الكونغولية » تحت تأثيره ان تتحالف مع اهمّ الحركات الوطنية . وستفوز « الجبهة المشتركة » التي أقامها في انتخابات ١٩٦٠ . ولكن الانتصار المشروعي لهذا الاتحاد ينبغي ألاّ يقنّع عنّا ضعفه : فما دامت القضية مجرد دعاية مشتركة ، واتفاق محدود بهذه الكلمة — الشعار ، **الاستقلال** ، فان الخلافات والتفرّدات توضع جانباً ؛ ولكن إذا حكم المنتصرون — ومَنْ غيرهم سيحكم ؟ — فإن الجبهة ستنفجر ، للسببين اللذين سبق ذكرهما ، وهما ان القاعدة الحقيقية للأحزاب المتحالفة هي ، بالنسبة لكل حزب، إقليمية — وحتى « الحركة الوطنية الكنغولية — لومومبا » هي قبل كل شيء مدعومة

بطبقة الموظفين الكبار في ستانليفيل – وان الشمولية الثقافية لا تنجح في ان تُخفي لدى الزعماء رغبتهم في ان يكوّنوا مع فِرَقهم الطبقة الجديدة الحاكمة . وانطلاقاً من هنا ، كانت نقاوة لومومبا تُدينه : صحيح ان « التاريخ » كان يُصنع على يديه ، ولكنه كان يُصنع ضده . لقد كان زعيماً للمركزية غير منازع ، وما ان اظهر براعته كخطيب ومهارته كمفاوض ، حتى كشف اعداؤه وجوههم . وكان على رأسهم اولاً تشومبي وأعضاء « الكوناكات » : ويدّعي هؤلاء الكاتانغيون ان مقاطعتهم وحدها تغذّي جميع الكونغوليين ؛ فإذا قُطعت الصلات التي تربطها بمناطق عاقّة وفقيرة ، فإنها ستنعم وحدها بثروتها . ثم حدث الانقسام الذي لم يكن سبيل الى تفاديه في الحزب المركزي ، فأسس كالونجي « الحركة الوطنية الكونغولية – كالونجي » التي ستتمركز في « كازاي » الجنوبية ؛ والمنافسات السياسية التي تقوم هنا ، على نقيض ما يحدث في التجمعات الأخرى ، هي التي تحدّد الانفصالية القومية . وأخيراً ، فإن (الاباكو) كانت تظل على تمرّدها : ويضاعف لومومبا العروض السخية لكازافوبو ، ولكن هذا لا يستجيب له ، وحين تم الاستقلال وكان لا بدّ من تأليف حكومة ، بقيت قوّتان كبيرتان وجهاً لوجه : حركة الاباكو ، وهي على حالها من الصلابة ، والكتلة الوطنية ( الحركة الوطنية الكونغولية والأحزاب المتحالفة ) التي كانت مَرِنة ، وعازمة على إيجاد تسوية قابلة للبقاء . وكانت « الكوناكات » التي تصف نفسها بأنها فدرالية ، أول من قبل الدخول ، بشروط ، في حكومة مركزية ، ولكن ذلك لم يكن إلا مناورة مفهومة الغاية . وتردّد الوزير البلجيكي « غانشوف » بين الحركتين : صحيح أن لومومبا قد ساعد ، في الاضطرابات الأخيرة ، على إعادة الأمن والنظام . وإن تصريحاته معتدلة ، وليس له برنامج اقتصادي ، وقد صرح مئة مرة انه كان يضمن أملاك المستعمرين . ثم إن فريقه ، وهذا اعتبار تفصيلي ، قد فاز في الانتخابات بأكثرية الأصوات . غير أن مركزيته تخيف . ولكن المستعمِرين « ضده » وربما كان كازافوبو أخطر فهو سيّد العنف ، غير انه كذلك سيّد زرع الخلاف ؛ وإن فدراليته تغطّي

الانفصالية المهووسة التي يؤمن بهـا قومه . وبدأ الوزير فكلّف لومومبا بـ « مهمة استطلاع من اجـل تشكيل حكومة كونغولية » . وهذه الصيغة بطولها وثقلها تكشف عن ارتباك صاحبها. وقد دلّل لومومبا على روح واقعية ممتازة حين بسّط الصيغة كما يلي : « انني مكلّف بتشكيل الحكومة » . ولكن غانشوف يصرّح يوم ١٧ بأنـه يسحب مهمة الاستطلاع منه ليعهد فيهـا الى كازافوبو . وقامت استشارات جديدة : ولكنهـا غير مجدية . وعيّن مجلس النواب يوم ٢١ مكتبه : وكانت الأكثرية للكتلة الوطنية . وعلى الفور عـاد غانشوف المسكين يسحب المهمة من كازافوبو ويردّها الى لومومبا . وتُستأنف المفاوضات ، من غير ان يكون كازافوبو قد فقد شيئاً من صلابته : وقد طلبت الأباكو يوم ٢٢ حزيران « تشكيل مقاطعة مستقلة بالكونغو ، سيّدة ، في اتحاد للكونغو » والجميع يعرفون التسوية النهائية : إن الأباكو سيقدّم رئيس الدولة مع بعض الوزراء ، وتقدّم الكتلة الوطنية رئيس الوزارة مع باقي أعضاء الحكومة ، باستثنـاء المقاعد المحفوظة للكوناكات . وهذا المخاض العسير يُلقي الضوء على أمرين على جانب كبير من الأهمية . أولهما أن المشاورات قد حدثت تحت تهديد ثورة باكونغولية . لقد كانت قوة لومومبا برلمانية ، أما قوة كازافوبو ، فواقعية وجماهيرية. وما دامت بلجيكا حاضرة في الكونغو ، فقد كان غانشوف مضطراً الى أن يأخذ بعين الاعتبـار الاكثرية المنتَخبة : ولم تكن بلجيـكا تستطيع ان تفعل أقـل من ان تقيم في مستعمرتها القديمة صورة كاريكاتورية للديموقراطية البورجوازية .

وبعد ذهاب البلجيكيين ، فقدت الانتخابات أهميتها : فأقيل لومومبـا واعتقل من غير ان يكون مؤيدوه قد اصبحوا إطلاقاً أقلية . وبعبارة اخرى ، لقد طُرحت الديموقراطية بكل بساطة : احتفظ بمظهرها ، ولكن « السلطة » اعتمدت على القوة. وليس ثمة ما هو أفضل من هذا للدلالة على أن مصير لومومبا كان مقرراً سلـفاً . لقد كان المفروض بصفته رئيساً للوزارة ان يقيم في عاصمة الدولة الجديدة . ولكن اتفق أن العاصمة كانت لسوء حظه ، انفصاليـة : ففي

ليوبولدفيل ، لم يكن للجماهير الا رئيس واحد هو كازافوبو . وبين رئيس دولة يحكم سيداً على الاباكو وسكان لا غاية لهم الا الانفصـــال ، لا يستطيع رئيس وزارة مركزي الا ان يلعب دوراً واحداً : هو ان يكون رهينة . صحيح ان له انصاراً في جميع المقاطعات ، ولكن عليه اذا اراد الاتصال بهم ان يتوسط الادارد البلجيكية التي كانت ما تزال موجودة وكانت توجهه بقوة جمودها ، او موظفي ليوبولدفيل السود الذين كانوا باغلبيتهم ضده . ومنذ الاول من تموز ١٩٦٠ ، اصبحت النزعة المركزية الحلم المجرد لسجين شرف فقد كل سلطة على البلاد . وقد لُمس ذلك في النصف الثاني من ايلول حين اقبل لومومبا ، فراح يعبر شوارع ليوبولدفيل في سيارة مزوّدة بمكبّرات الصوت : ولكن خطبه لن تقنع احداً . انها وجوه مغلقة لجمهور لا مبال او معادٍ : ان سكان ليوبولدفيل يهزأون بالمركزية . وعلى العكس كانت كلمة يهمس بها كازافوبو كافية لإطلاق مشاغبين مناهضين للومومبا بالآلاف في المدينة : ورويداً رويداً ، استولى القلق على النواب وأخذوا يهجرون « المجلس » ؛ وهكذا انحنت السلطة التشريعية من تلقاء نفسها للاشرعية . وقد كانت العاصمة الانفصالية ، بالنسبة للنواب ، وبالنسبة لرئيس السلطة التنفيذية ، سجنا . وكان هذا حقيقاً الى حدّ ان لومومبا حين أفلست كل جهوده ، واعترف بانه فقد المعركة في ليوبولدفيل ، هرب فيما بعد وأصبح انفصالياً بدوره وهو يجهد في الوصول الى ستانليفيل ، إقطاعه . وأنا أقصد ان القضية قضية انفصال موقت ، نفي للنفي ، كان يعوّل على تجميع قواه ، وعلى ان يباشر ، ابتداءً من «ستان» ، فتح الكونغو من جديد وإعادة توحيدها ، بالسلم أو بالعنف . ولكن حتى ولو التحق بمعظم انصاره ، أهناك من يظنّ ان بوسعه ان يستعيد العاصمة الباكونغولية ؟ بواسطة أية قوى ؟ إن ما هو أقرب الى الصحة ان لومومبا أقام في ستانليفيل من غير ان يربح او يخسر ، وان كازافوبو أُعطي القفازات ليعمّد عودة هذه المركزية إلى اصولها باسم الانفصال ؛ والواقع ان المشروع ، موضوعياً ، قد زاد انقسام الكونغوليين وتفتيت أرضهم ، بسبب انعدام الوسائل الكافية لإنجاحه . ولكن ينبغي

الاعتراف بأنه لم يكن أمام لومومبا في تلك الفترة إلا خيارٌ واحد : ان يقبل استقلال الباكونغو وأن يهرب الى ستانليفيل ليعدّ فيهـا الغزو الجديد ؛ وفي الحالتين ، كانت الفدرالية تربح المعركة . والحقيقة انها كانت مكسوبةً سلفاً . فالضووري في السياسة ليس هو دائماً الممكن . إن الوحدة ، الفكرة الرئيسية للحركة الوطنية الكونغولية ، وهو حزب عصري ومصمّم على صورة الحركات الاوروبية ، كانت ضوورية للكونغو . فبدونها كان الاستقلال حرفـاً ميتاً ؛ ولكن الصيغة الاوروبية كانت في تلك المرحلة من تاريخ البلاد لا تستجيب لحاجات الكونغوليين ؛ كانت ثمة علاقات أخشن وأصلب تشدهم الى مسقط رأسهم ، الى مجتمعهم . ولم تكن المركزية تمثل إلا وعي طبقة المركزيين ، اي المتطوّرين .

وهذه الملاحظات تفضي بنا الى السمة الثانية للاستقلال الكونغولي . وهو إنه أعطي إعطاءً . والواقع انه كان يكون غير معقول ، لو ان الكونغوليين انتزعوه انتزاعاً ، ان يختار البلجيكي غانشوف بسلطته الخاصـــة ، الكونغولي الأجدر بتشكيل حكومة . وكان لومومبا يعرف ذلك ، ويعاني منه : وقد طالب اكثر من مرة ، قبل ٣٠ حزيران ، برحيل الوزير المتروبولي . وقـــد صرّح في مؤتمر صحفي بقوله : « إن احداً لم ير في اي مكان من العالم القوة القديمة تنظم وتوجّه الانتخابات التي تكرّس استقلال بلد . وهذا ليس له من سابقة في افريقيا . وحين انتزع البلجيكيون استقلالهم عام ١٨٣٠ ، فالبلجيكيون أنفسهم هم الذين شكلوا أولاً حكومة موقتة ... » الخ .

انتزعوا : أنا الذي أخط الكلمة بالحرف السميك ، لأن كل شيء كامن هنا . وهذا ما يشرح اللهجة الأبوية لخطاب الملك بودوان الذي ألقاه يوم ٣٠ حزيران: إننا نقدّم لكم هدية جميلة ، فلا تحطموها . وكذلك لامبالاة كازافوبو الذي كان يعرف محتوى الخطاب ، فاكتفى بان يحذف من خطابه خاتمةً كانت أذلّ ممـــا ينبغي . من أجل هذا ، تناول لومومبا مكبر الصوت فجأة ، وهو مغتـــاظ ، ويعرف الجميع « العرض المرير » الرائع الذي عرضه جواباً على لهجة الملك الشاب الفخور . ولكن الجوهري ليس هنا ؛ إنني أجده في هذه السطور الذي تسبق مباشرة:

« إن استقلال الكونغو هذا ، اذا أعلن اليوم بالتفاهم مع بلجيكا ، البلد الصديق الذي نتعامل معه تعامل الندّ للندّ ، فليس من كنغولي جدير بهذا الاسم يستطيع ان ينسى يوماً اننا انما أخذناه بالنضال ، النضال اليومي ، نضال ملتهب ومثالي ، نضال لم نراع فيه قوانا ، ولا الوان حرماننا ولا آلامنا . »

إن التقرير عن هذا الخطاب يسجّل هنا كلمة «**تصفيق**» وهذا يدل بما فيه الكفاية على أن الخطيب كان يمسّ سلكاً حساساً . ان الكونغوليين الذين كانوا يشاركون في الاحتفال ، الى أي حزبٍ انتموا ، لم يكونوا يريدون هدية : إن الحرية لا تعطى ، بل تؤخذ . فاذا قلبنا العبارات ، يتبين لنا أن الاستقلال المعطى ليس إلاّ ترتيباً للعبودية . لقد تألم الكونغوليون طوال قرن تقريباً ، وقد قاتلوا غالباً ، وتضاعفت الاضرابات والاحداث في العهود الاخيرة ، بالرغم من قسوة أساليب القمع . وان لم تكن أحداث كانون الثاني ١٩٥٩ هي السبب فهي على الاقل الفرصة التي أتاحت تطبيق السياسة الاستعمارية الجديدة للحكومة البلجيكية . ولم يكن يوضع موضع الشك شجاعة البرليتاريا ولا شجاعة المحاربين الفلاحين ، ولا الرفض العميق الذي لا يُقهر والذي كان كل مستعمَر ينصبه بالرغم منه أحياناً ، في وجه الاستعمار . يبقى ان الظروف لم تسمح ولم تتطلب اللجوء الى النضال المنظم . إن التنظيم في فيات نام وفي انغولا وفي الجزائر ، هو تنظيم مسلح ، إنه الحرب الشعبية : وقد أراد نكروما في غانا ان يناضل بالوسائل السياسية ؛ والواقع ان الاضرابات التي نظمها هي أعمال عنف غير دامية . وعلى أي حال ، ينتظم النضال حارّاً وسرّياً ؛ ووحدة المناضلين تصبح الوسيلة المباشرة لكل عمل قبل ان تكون غايته البعيدة : إن الناس يتحدون لينجحوا في القيام بعمل ما ، ولكن أيضاً لينجوا من خطر الموت ؛ إن أعمال المستعمِر الانتقامية توحّد المواثيق السريّة ؛ وإن عنف المضطهد يخلق عنفاً — مضاداً يُمارَس في وقت واحد ضد العدو وضد النزعات التفرّدية التي تشكل لعبته ؛ فاذا كان التنظيم مسلحاً نسف الأقفال والمفصّلات ، وصفّى القادة والمقاطعات ، والامتيازات الاقطاعية ، مستبدلاً ملاكاته السياسية الخاصة ، في اثناء الحرب

بالملاكات التي زرعتها الادارة الاستعمارية ؛ وفي الوقت نفسه ، تفترض الحرب الشعبية وحدة الجيش والشعب ، واذن توحيد الشعب نفسه : فينبغي للقبلية ان تختفي وإلا غرقت الثورة في الدم ؛ وتصفية هذه الآثار تتمّ بصورة حـــارّة ، بالاقناع والتربية السياسية ، أو بالإرهاب عنــــد اللزوم . وهكذا فإن النضالي نفسه ، بمقدار ما يمتدّ في أطراف البلاد، يتابع توحيدها؛ واذا حدث أن تعايش في البدء ، حركتان ثوريتان ولم تندمجا، فبالامكان التيقّن بأنهما ستكونان كلتاهما مقتولتين على يد الجيش الاستعماري او ستبيد احداهما الاخرى . إن القادة المنتصرين هم في الوقت نفسه عسكريون وسياسيون : لقد حطموا البنايات القديمة، وكل شيء ينبغي ان يبنى من جديد ، ولكن هذا غير ذي بال ؛ إنهم سيخلقون بنيات تحتية شعبية ؛ ولن تُنقل قوانينهم من القوانين الاوروبية : انها قوانــين موقتة ، وستحاول أن تتجنب الأخطار التي تهدّد الدولة الفتيّة ، بتعزيز الوحدة على حساب الحريات التقليدية . أمـــا قوة السلطة التنفيذية ، فهي غير قابـــلة للمقاومة : إن الجيش هو الذي صنع نفسه بمحاربة المضطهدين. وفي هذا المنظور نستطيع القول إن الوحدة والمركزية ، بالنسبة للفيتنام وللجزائر – مهما كانت مصاعبها الحالية – قد سبقتا الاستقلال ، وهمـا ضمانتــــه . أما في الكونغو ، فالعكس هو الذي حدث . إن التخلف الاقتصادي وتطوّر الكونغو الفرنسي السابق وحرب الجزائر – كل ذلك قد غيّر النفوس وأثار الاضطرابات . ولكن هذه الاضطرابات لم تكن قط مدّبرة : فهي لم تكن ناشئة من المصدر نفسه ، ولا للأسباب نفسها، ولا للغايات نفسها . وقد صلحت كعلامات واشارات للحكومة البلجيكية . وقد نقل الأخبار الى هذه حكام اداريون متبصرون : فلم نبلغ اليوم أعمال الإرهاب ، ولكننا سنبلغها غـداً اذا لم يحدّد المتروبول سياسته بوضوح . وهذه المعلومات في اللحظة التي أخذ فيها الاستعمار دروساً من الحروب الاستعمارية التي أرهقت فرنسا بها نفسها ، ومن التجارب البريطانية في انهاء الاستعمار انهاءً مزّيفاً . إن بلجيكا لا تريد أن تحول الكونغو الى جزائر سوداء ، وهي ترفض أن تُغرق فيها مليارات الفرنـكات وألوف الارواح البشرية . فهذا البلد، ببيضه

المئة ألف ، يمكن بمشقة كبيرة اعتباره مستعمرة إسكان : فاذا حدث رجوع المواطنين الى بلادهم ، فان هذا لن يزعج الاقتصاد المتروبولي . أما الشركات الكبرى ، فهي متفقة على ان تجرّب حظها : فسواء أحمتها حكومة بيضاء ، أو حكومة « متعاونة » سوداء ، فان مصالحها لن تتأثر ؛ بل يبدو جيداً لمن يتأمل نموّ الدول الافريقية الجديدة ان الاستقلال هو الحلّ الأكثر ايراداً. وبالاختصار، فسيُمنح للكونغو .

يقال اليوم إن الحكومة البلجيكية كانت ذات نزعة مكيافيلية مجرمة . ولكن يبدو لي أصح انها كانت بليدة حمقاء بصورة مجرمة . إن الفرنسيين لا يتركون شيئاً من غير ان يقاتلوا ؛ إنهم يتعلقون الى ان تقطع أيديهم : وهذا ما يؤدي ، لا ارادياً ، الى خلق الملاكات لدى الخصم ؛ إن الحرب تخلق نُخبها ، والانكليز يصمّمون سياستهم في ازالة الاستعمار إزالة مزيفة : فهم يشكلون الملاكات سلفاً ؛ بحيث يصبح موظفو هذه الملاكات متعاونين ولكنهم اكفاء . اما بلجيكيا ، فلم تفعل شيئاً : لا حرباً استعمارية ، ولا انتقالاً تدريجياً . والحقيقة انه في عام ١٩٥٩ كان الاوان قد فات لاعداد التحرر الكونغولي : كان المستعمرون يطالبون بالاستقلال المباشر . ولكن خطأ الحكومة يعود الى عهد أبعد كثيراً : إنه يكمن في إلحاحها على إبقاء هذا البلد المفتوح في الجهل والأمية وعلى ارادتها في المحافظة على الاقطاعيات ، والمنافسات ، و « البنيات التقليدية » و « القانون العُرفي » . لقد جهدت بلجيكيا طوال ثمانين عاماً في « كنغلة » الكونغو . وبعد أن فتلته ، قررت فجأة ان تدعه يسقط ، واثقة من ان انعدام الملاكات وتفتيت السلطات سيجعلانه تحت رحمتها . لهذا السبب ، ألفى لومومبا نفسه معيناً من قبل الجماهير ، ومدفوعاً الى السلطة من قبل غانشوف باسم ملك البلجيكيين . وهو وضع متعب جداً ، لا سيما اذا تذكرنا ان هو شي – منه او ابن بللا قد أخذا السلطة بالرغم من المتروبول ، محمولين بحركة لا تقاوم ، وان سيادتها – أي السيادة القومية – آتية من هنا. فبدلاً من ان يكون الاستقلال – كما في فيتنام والجزائر – لحظة تطبيق بدىء منذ وقت طويل، وأن تكون الاعمال

السابقة جسراً الى مشاريع قادمة ، فان ذلك في الكونغو نقطة ميتة ، الدرجة صفر في التاريخ الكونغولي ، واللحظة التي يكف فيها البيض عن اصدار الأوامر ، ولكنهم يظلون يديرون ، والتي يكون فيها السود في السلطة ولكنهم لا يصدرون الاوامر بعد . وفي تلك اللحظة المتناقضة ، لا يستمّد لومومبا سلطته ، ايا كانت شعبيته ، من حركته الماضية ، بل من شرعية مصدرة من أوروبا ، لا يعترف بها الكونغوليون ، باستثناء المتطورين منهم . ولا شك في ان الناس يقدرون شجاعته ، ويعرفون انه قد اعتقل مرات وضرب وألقي في السجن : ولكن ذلك لا يكفي . إن من يريد ان يكون سيداً في دولة جديدة، لا بدّ له من ان يكون كذلك في عهد الاضطهاد كقائد غير منازع لجيش التحرير، او ان يملك منذ وقت طويل سلطة كاريسماتية ، دينية. وهذه السلطة انما يملكها مع الأسف كازافوبو في ليوبولدفيل . ويجب ان نفهم ذلك : ان لومومبا ، زعيم الاكثرية البرلمانية ورئيس الحكومة ، كان في اول تموز ١٩٦٠ م وحيداً ، بلا سلطة ، قد خانه الجميع وأصبح ضائعاً .

وقد سبق أن قلت : إن الشعوب حين تتحرر بالقوة ، فانها تطرد او تقضي على الملاكات القديمة التي ليست هي بالنسبة اليها إلا أشهر مضطهديها . ويجب استبدالها على عجل ؛ وما دام الجميع غير أكفاء، فان الاختيار يستهدي بالحماسة الثورية لا بالكفاءات . وينتج من هذا اضطراب مخيف ، واخطاء مجرمة ، وتكون قطاعات برمتها من الاقتصاد في خطر الموت . ولكن لم يحدث قبل الآن ان انهارت ثورة منتصرة بسبب انعدام النُخب . ففي الاتحاد السوفياتي ، والصين ، والفيتنام ، وكوبا ، احتل القادمون الجدد ، بعد تشنجات مؤلمة ، مراكز القيادة ، يوجهون ويفتشون ويقررون في النهار ويتعلمون ويقرأون في الليل . وهذا عمل طبيعي وايجابي ، في نمو الثورات ، ان يتم استبدال الكفاءات الرجعية بثوريين غير اكفاء . واذا لم يتم هذا الاستبدال بالقوة ، فانه يصبح ضرورياً بهجرة الاحصائيين الجماعية .

ولا بد ان تتم هذه القفزة في المجهول بشكل حار، وان تفرض نفسها كلحظة

من لحظات « التطبيق » لا مفر منها . فمن الذي يجرؤ ، الا في عاصفة الثورة ، ان يستبدل استبدالاً كاملاً على جميع مستويات السّلم الاجتماعي ، الجهل بالمعرفة؟ كان لومومبا ثورياً بلا ثورة . وقد كانت ديموقراطيته الحرة تنصبه جذرياً في وجه التسوية المرائية للاستعمار التي كانت الحكومة البلجيكية تحاولها بلا براعة ، ولكن هذا الموقف الصلب لم يكن الا رفضاً نظرياً ، باعتبار ان الحرب الشعبية لم تقم فعلاً . وحين دبرها البلجيكيون ورتبوها ، سلبوا الكونغوليين إياهـــا واذن ، فان زعيم « الحركة الوطنية الكونغولية » كان يجد نفسه ، على نحو ما ، في الجانب الآخر من ثورة لم تقم . ولم يكن باستطاعته ان يواجه الملاكات كما كان يفعل لو كان في صميم العمل . كان متطوراً ، مربى على يد البيض ، معتاداً ان يعترف بتفوقهم التكنيكي ، فكان قلقاً ، كما رأينا ، من جرّاء قلة عدد المتطورين وجهل الجماهير .

كان ينبغي بلا أدنى ريب « أفـْرَقـَة » الملاكات : وكان قد أراد ذلـك دائماً ، وكان يريده الآن بشكل أعنف ، لا سيما وانه كان يشعر غالبـاً بأنه مشلول بإرادة الادارة السيئة . إن الكونغو لن يتمتع باستقلال كامل ما بقيت المراكز المفاتيح في أيدي البيض. ولكنه بسبب انعدام حالة طوارىء مباشرة ، كان يواجه تغييراً تدريجياً . ومما يلفت النظر حقاً ان يكون في خطبه قد تحدّث غالباً عن التعليم العالي ، ولم يتحدث قط تقريباً عن التعليم الابتدائي . وينبغي ألاّ نرى في ذلك همّاً طبقياً . كل ما هنالك أن له وعياً عميقاً بالمشكلة : إن الكونغو سيرسل طلاباً الى أوروبا بمجرد أن يصبح قادراً على ذلـك ؛ وسوف يعودون الى البلاد وكل منهم يحل محل بلجيكي ؛ وبمقدار مـا يزداد عددهم ، تنتهي تبعيـة البلاد التكنيكية والادارية والعسكرية . وإنه لحلّ عاقل ، كما نرى ، ولكنه حلّ اصلاحي كما يستطيع أن يتصوّره تصوّراً بارداً رجلُ دولة يزن الصالح والسيء ويأخذ مجازفات محسوبة .

وفي اللحظـة نفسها ، كانت الجموع تعطي نتائج ثورية للثورة التي لم تقم . فقامت بمهمة « أفـْرقة » الملاكات وطردت الأوروبيين على عجل . وبدأ ذلك

بقوى الأمن . كان الضباط ونواب الضباط يَفِدون من بلجيكا ؛ ولم يكن البلجيكيون يصلون، في نهاية وظيفتهم، إلاّ الى درجة رقيب. وكانوا قد عبّروا، قبل بضعة أشهر من الاستقلال، عن رغبتهم بإسقاط هذا الامتياز عن البيض. إنه ينبغي للأسود، بعد الاستقلال، ان يستطيع أن يكون ، وفق كفاءته ، ملازماً او جنرالاً . ولم يحمل لومومبا الأمر على محمل الجدّ : ولا شك في انه كان يواجهه من وجهة نظر النفع القومي؛ إن الضبّاط سيعدُّون شيئاً فشيئاً . ولكنه كان على خطأ. فان القضية لم تكن قضية مطلب عام يمسّ وضع الجنود القادمين: وإنما كان هؤلاء الجنود أنفسهم هم الذين يريدون أن يصبحوا ملازمين ، هؤلاء الملازمين الذين يختطفون درجة النقيب . وبكلمة واحدة ، كان المطلب محسوساً ومباشراً . ويبدو أن سياسياً ما كان يستجيب له منذ اليوم الأول ، وكان يستطيع أن يأخذ ويأسر هذه الحركة الثورية بأن يقوم هو بنفسه بتجربة القوة هذه : طرد « جانسن ». ولو فعل ذلك لربح الجيش ، الجهاز الوحيد الذي كان تحت تصرف السلطة التنفيذية التي لا سلطة لها. وقد كان لجنود قوى الأمن خصوصاً ذهنية ٌ مقلقة : كانوا منذ عهد البلجيكيين ، أي قبل ٣٠ حزيران ، قد جعلوا النظام الاستعماري يستتبّ ؛ وكان هؤلاء الكونغوليون يقاتلون كونغوليون لا غير ، فكانوا يقمعون الاضطرابات ، ويحتلون القرى ، ويعيشون على السكان. كانوا موضوعياً شركاء الطائفة الاستعمارية، وكانوا شديدي التأثر بضباطها، فكانوا يبدون ثوريين – مضادّين . ولا شك في أنهم كانوا كذلك في أعماقهم، باستثناء أنهم كانوا يثورون غضباً لكونهم باقين في رُتَبٍ منخفضة، كما كان أدنياء النسب في الجيش الفرنسي قبل عام ١٧٨٩ . وقد كان هذا المطلب ، على غير معرفة منهم ، يلخّص أماني الكونغو في السيادة الكاملة ، ما دامت لا يمكن أن تتحقّق إلا بقرار سنيّ . وفي الوقت نفسه ، كان صراع الطبقات يرتسم خلف الصراع العنصري : كان الفقراء قد برهنوا بما فيه الكفاية بيذخ الأغنياء ، وكانوا يريدون أن يحلوا محلهم . ولو اتخذت الحكومة المبادرة ، لجعلت من القوى النظامية شركاء في « الثورة » ولجعلتهم متضامنين معها . وقد

تردّد لومومبا : كان ضغط « الجيش » الأسود يوشك ، في رأيه ، أن يدفعه في وقت أبكر مما ينبغي الى الراديكالية؛ وربمـــا اعتوره ، بالرغم منه ، ردّ فعل طبقي . وكان يتساءل : ومن الذي سيكون قادراً اليوم على قيـــادة الجيش الكونغولي ? لقد أخطأ في أن يطلب من « جانسن » نصف تدبـــير : وذلك بإعطاء جميع السود درجة أعلى فوراً ، بحيث يصبح الصف الثاني صفاً أول ، والرقيب رقيباً أول . وقد عرف جانسن أن يمثّل حتى النهاية دوره كمحرّض ، فأجاب الجنود : « انـكم لن تحصلوا على شيء ، لا اليوم ولا في أي يوم آخر » ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك من تمرّد الجنود ، وطرد الضبّـاط ، وهرب جانسن ، مذعوراً من الخوف ، الى برازافيل . وقد كان يمكن لهذه الثورة أن تكون إيجابية : ولكنها في نهاية المطاف لم يكن لها إلا نتائج سلبية . لقد تمرّد الجنود في وقت واحد على جانسن وعلى لومومبا الذي كان قد انتظر الثورة ليُقيله . وهذا يعني أنهم تمرّدوا في وقت واحد ضد نزعة العطف الأبوية الاستعمارية وضد الديموقراطية الكونغولية الفتيّة . كانوا خجلين لتعوّدهم على فرض النظام بالقوّة ، ومع ذلك متمرّدين ضد الامتيازات العسكرية التي يتمتع بها البلجيكيون ، فمال معظمهم الى نزعة بونابارتية ليؤكّدوا طائفتهم الجديدة ويسجّلوا احتقارهم للحكم الذي كان قد خانهم .

وقد بدأت أفـرَقـَة ُ الملاكات الادارية باندحار الاوروبيين . لقـد هرب الموظفون وأغلقت المشاريع الخاصة أبوابها. وبذل لومومبا ما في وسعه ليبقيهم. ولكن في الوقت نفسه كانت فرق بلجيكية منقولة بالطائرات تصل الى الكونغو ؛ وكان لا بدّ له من قطع العلاقات مع بلجيكا ، مما أثار جنون السكان البيض . على أن الجماهير كانت تريد أن تطرد البلجيكيين وتأخذ عليهم أن يذهبوا . وظل لومومبا عاجزاً : لقد أُخذ عليه ألاّ يتولى قيادة الحركة . وكان العمال يطالبون بزيادة الرواتب ، وهو مطلب عادل ولكن لومومبا الديموقراطي الحرّ وجده في غير أوانه . وانفجرت الاضرابات ، لا ضد البلجيكيين ، بل ضده . فعمل على قمعها : بحجة ضرورة انقاذ الاقتصاد الكونغولي ، والحفاظ

على مستوى الانتاج . ولم يكن خصوصاً ليتعرّف في الاضطرابات المشوّشة المتفرّقة التي حققت أفرقة الملاكات ، جذرياً ولكن كارثيّاً، **تطبيقه** السياسي ولا **ثورته** ولا **جهازه** : كان يعتقد بأن هؤلاء الأشخاص لم يفعلوا شيئاً حتى الآن ؛ أما وقد نجحنا ، فإنهم يطلبون منا ما لم يكونوا مستعدّين لطلبه من البلجيكيين ؛ فأي شيء مشترك يربطهم بنا ؟ واتخذ هذا اللاعنفي موقفاً ضد العنف ، وانفصل هذا المتطوّر عن اللامتطورين وعن جميع المتطورين الذين لم يكونوا يواجهون فقط المصلحة المشتركة وحدها . وقمع هذه الحركات التلقائية ، خاسراً حظّه الأخير بدعم سلطته المترنّحة بهذه الثورة الوحشية . والحق انه يجب الاعتراف بأن هذا الحظ كان هزيلاً : ذلك أن هذا التحذير الوحشي للاستقلال ، لم يكن يفضي ، بلا تنظيم ولا برنامج ثوري ، الى شيء . واستمرّت المظاهرات موجهة ، بعد الآن ، الى الحكومة . وكان لومومبا ، لكي ينضمّ الى الوحدة الوطنية ، قد حاول ان ينفصل عن طبقته . فأعيد اليها بالقوة ؛ وكان النواب قد منحوا أنفسهم تعويضاً برلمانياً يبلغ ٥٠٠ الف فرنك ، وكان لومومبا في الوقت نفسه يريد ان يحطم اضرابات مطالبية : واكتشف الجمهور المتخلف في الوقت نفسه مطامع المتطورين والقمع الحكومي ؛ وقد كانت «النخبة» ، فيما قبل الاستعمار، تربح اكثر كثيراً من اليد العاملة ، ولكنها كانت تظل مستغَلة ، مضطهَدة ، وكان موظف أسود يتقاضى لقاء عمل مماثل نصف ما كان يتقاضاه الأبيض : وكان هذا الظلم يسهم رغم كل شيء في التقريب بين بورجوازيي الشعب الصغار : لقد كان السود يفخرون بتطوريهم ،**ضد البلجيكيين** . فما كاد هؤلاء يأتون الى السلطة حتى اكتشفوا أنفسهم كطبقة بالرواتب والتعويضات التي طالبوا بها . واعتقدت الجماهير انها تتعرّف فيهم السادة الجدد ، فرأت في السلطة التنفيذية – كما رأت في الماضي ، عن حق ، في الادارة الاستعمارية – سلطة اضطهاد وقمع . وكان كل شيء زائفاً : إن البورجوازية الصغيرة السوداء لم تكن تستطيع ان تبسط سلطتها إلا بان تترك الكونغو للاستعمار الذي سيقدّم لها بالمقابل إدارة البلاد؛ ومن جهة أخرى، كان لومومبا ، وهو الذي لا يمثل مصالح

طبقة المتطورّين ، يري سلطته تضعف كل يوم لأنـــه كان يقف في وجوههم . صحيح ان ذلك لم يكن يتمّ باسم مصالح الجماهير ،بل باسم الشمولية الديموقراطية الحرة،على أن ذلك لم يمنع العدوى من أن تنتشر بسرعة، فاعتُبر رئيس الوزارة ديكتاتوراً معيّناً من قبل ذوي الامتياز في اللحظة نفسها الذي كان يخسر فيها ثقتهم . وقد عرف كازافوبو والاباكو والمحرّضون البلجيكيون ان يفيدوا من هذا التشوّش ، منذ شهر تموز : فاعتبروا لومومبا طاغية .

ولم يكن ثمة ما هو أبعدُ من هذا عن طبعه : ثم إنه حين اتُّهم بالتجاوز في السلطات ، لم يكن يملك بعد حتى امكانية أن يجعل الناس يطيعونه . ولكن ما أحسّه أعداؤه منذ اليوم الأول ، هو أن الوحدة الوطنية في بـــلدٍ مقسّم هي تطبيق توحيدي دائم ، فأصبحت ألوان المعارضة ، بسهولة ، الواناً من الخيانة، كما كان يقول ميرلو – بونتي ، حين تضاعف الخلاف والتجزئة :وكان على الحكومة المركزية ان تزيلها ، بالقوة عند اللزوم . ومن هذه الزاوية ، كانت الاضرابات والحوادث المدنية ، مهـــما كانت المطالب مبرّرة ، خطرةً خطورة المنازعات القومية : إن هذه تؤخّر الزراعـة ، وتفتت الارض الكنغولية ، وتلك تخفض الانتاج ؛ فمـــا لا غنى عنه ، من جميع الوجوه ، الا يسقط الكونغو الحرّ ، في السنوات الاولى من طفولته ، فيما تحت الكونغو البلجيكي الذي وُلد منه : وإذن فان المركزية تحمل في ذاتها سياسة من التقشّف الاجتماعي . ومع ذلك فان على « العفيف النزيه » – سواء كان اسمه روبسبير أو لومومبا – أن يهاجم فيالوقت نفسه الطبقة الحاكمة – طبقته ذاتها – ليبقيها في صف الطبقة العامة، وهذا يعني لكي يحول دون ان تنتصب بمطالبها وأخلاقها وثراء سريع تصيبه ضد باقيالبلاد. وهذا يعني أن المطلوب باسم الوحدة ان يضحّي كل فريق اجتماعي بمصالحـه من أجل المصلحة المشتركة . وليس ثمة ما هو أفضل من ذلك ، شريطة أن تكون المصلحة المشتركة موجودة . لقد فرض كاسترو على النقابات العمالية، بعد الأشهر المضطربة التي أعقبت الاستيلاء على السلطة ، أن يُنهوا الاضرابات، وأن يلجأوا الى التحكيم في المنازعات الاجتماعية . ولكنه كان قـد قهر جيش الاقطاعيين ،

وطردهم ، وسلم ثرواتهم الى الطبقات التي كان الإصلاح الزراعي قد أساء اليها : وحين كان يطلب التضحيات من الجميع ، كان يدعو العمال والمدنيين والريفيين الى أن يلمسوا وحـدتهم الحقيقية ، ومصلحتهم المشتركة التي كانت الاستغلال الحرّ للجزيرة من قِبَل الجميع لصالح كل فرد . وبعبارة أخرى ، لا تستطيع المركزية ان توحّد الوحدة الوطنية والمصلحة المشتركة إلا اذا كانت الثورة التي تخرج منها اشتراكية . أما بين المتطوّرين الذين يتولون السلطة في الكونغو واليد العاملة او العمال الزراعيين ، فلم يكن ثمة بعدُ من صراع طبقي حقيقي ، بل كانت الوحدة الكونغولية المزعومة تخفي اختلاف المصالح . والمركزية ، من غير أن تعرف ، تطلب هذا القدر الأدنى المجرّد الذي هو الوحدة الوطنية ، لكي يجد مجتمعٌ جديد الوقت لإعطاء نفسه بنيته وطبقاتـــه . ولكن المستغَلين والمستغِلين القادمين لا ينوون التضحية بمطالبهم المحسوسة لهذا المستقبل الذي لم يتضح بعد : كان وجود الأولين يمنع الآخرين من الخضوع . إن البروليتاريين يعرفون رواتب الوزراء . أما هؤلاء وجميع المتطورين ، فانهم لن يقدّموا تنازلات لأحد : إن لهم اخلاقية قائمة على **الكفاءة** ؛ فاذا أرادوا ألاّ يخدموا بأنفسهم أولاً ، فهذا يعني أنهم يضحّون بها من أجل جموع اللامتعلمين ، أي اللامناضلين .

وهكذا ، فان المركزية لتطبيق توحيدي تبدو ، بسبب انعدام حركة الجماهير وقيام صراع مسلح ، وفقدان برنامج اشتراكي ، اعتباطيةً للجميع ؛ فالوحدة التي يريد بناءها ، يعتبرها كل فريق فكرة بلا محتوى ، وينصب كل فريق في وجهها فكرته الحسيّة عن الوحدة التي هي – في الواقع الراهن – عامل تقسيم . إن جميع الناس ضد لومومبا : الأحزاب الريفية والفدرالية ، ورأس المـــال ، والبروليتاريا ، والبورجوازية الصغيرة التي يمثلها والتي ينبغي ان تدعمه . بـــل هناك ما هو أسوأ : إن السكان المدنيين يتدبّرون أمرهم مع الاستقلال شريطة أن يحتفظوا « ببنياتهم التقليدية » . ونادرون هم الذين فهموا أن قادة الأعمال العادية هم الممثلون « المحليون » للادارة البلجيكية . والذي يحدث هو ان الملوك الصغار يخسرون كل شيء لدى ذهاب المستعمِرين . وقـــد كان البلجيكيون يشترونهم

ويبقونهم في أمكنتهم : وكان هـــذا هو المركزية بالتقسيم . وستكون سياسة الحكومة الكونغولية ان تصفي الانقسامات : إن عليها أن تخلق ادارة سوداء، وان تثقف الموظفين في ليوبولدفيل، وأن ترسلهم الى كل مكان كوكلاء السلطة الأكفاء . وهـذه التدابير التي تفرض نفسها على كل قومية وحدوية تنذر بنهاية الاقطاعيات : إن السلطة ستغطي البـلاد بشبكة من المسؤولين الذين يتخذون القرارات وفقاً للأوامر الصادرة عن العاصمة ويستبدلون سلطتهم بسلطة السادة المحليين. ولقد قلقت المقاطعات الكبرى: فوجد مبعوثون اوروبيون من واجبهم أن يشرحوا لهم الأمر. وأخيراً ، وجد كثيرٌ من الاقطاعيين – حتى من أولئك الذين كانوا قد تحالفوا مع « الحركة الوطنية الكونغولية » للمطالبة بالاستقلال – وجدوا أنفسهم ذات يوم وقد أصبحوا مناهضين عنيفين للومومبا. وكانت فِرَقهم تلبعهم . وكان في كاتانغا عدو لومومبا الألد ، ولعله هو الذي اغتاله بيديه : « موتونغو » الذي كان ابن ملك . والانفصال الكاتانغي الذي عجّل بالكارثة هو نتيجة اتفاق عُقِد بـــين الاقطاعيات المحلية ، واستعمار الإسكان « واتحاد المناجم » .

فما العمل ضد هذا العدد الكبير من الأعداء ؟ لا شيء ، على الاطلاق . فلو كانت المركزية تملك قـــاعدة صلبة ، ولو كانت تتمتع بدعم القوات المسلحة ، لتمكنت عاجلاً أو آجلاً ، وفق درجة الطوارىء ، من محاربـــة الاقطاعية بالإرهاب : وهذا ما فعله روبسبيير عام ٩٣. ولكنه لم يبق طويلاً : فقد سقط، هو أيضاً ، بعد أن حطم الاضطرابات الشعبية ، حين رأى الناس انه لم يعد يمثل أحداً . أما لومومبا ... فبعد أقل من اسبوع من إعلان الاستقلال ، قـام تمرّد تموز لينتزع منه تأييد قوى الأمن . وفي ليوبولدفيل ، بدا في وقت مبكر أن الشرطة وحدهـا ستدافع عنه – عنه وعن المجلس – ضد مظاهرات الأباكو . وحين أرسل الجيش ليعيد النظام الى المقاطعات الانفصالية ، صحيح انه ذهب ، ولكنه لم يصل ، مفضّلاً أن يتسكع في الطريق ، أي أن يسلب وينهب ويقتل الفلاحين . ومع ذلك ، فـان هذا الرجل المعزول عن الجميع والذي لا يملك بعد

إلا ظاهر السلطة ، سيتهم بممارسة دكتاتورية دامية [1] . ولم يكن ذلك خالياً من بعض الظلّ : فإن من يتأمّل القوى الحاضرة ، وملامح الموقف الغريبة ، يجد أن الزعيم الوحدوي الذي لا يملك الوسائل سيلفي نفسه مجبراً على إنكار أهدافه أو اللجوء الى الإرهاب . لقد كانت وحدة الكونغو تتطلب دكتاتورية . ولما لم تكن دكتاتورية البروليتاريا التي كانت بحاجة الى الوعي والثقافة معقولة ، فقد كان لا بدّ من أن يستولي على الحكم بورجوازي صغير ضد الجميع .

وبعد عصيان تموز ، جاء الانفصال الكاتانغي يخلق في كل مكان تياراً انفصالياً يتراوح قوة وضعفاً . وكان لومومبا الطاغية رائعاً : ذلك انه كان يطير بصحبة كازافوبو ، الصامت كأنه الموت ، والذي كان يتبعه الى كل مكان ، بمجرد أن يعرف قيام اضطرابات فيه ، او الوان من القلق أو العداء ؛ كان يهبط في هذه الأمكنة ، وما ان يخرج من الطائرة حتى يعقد اجتماعات حيث وُجد . وكانت حرارة صوته وتفاؤله — سواء اكان ساذجاً ام صوفياً — كل ذلك كان يسحر المستمعين وغالباً ما يقنعهم . وحين كان يزيل الأوهام ويهدىء الشكوك ، ويرد على الاعتراضات ، ويشرح ، خصوصاً يشرح خططه وأسبابه تفصيلياً ، كان يربح المعركة لذلك المساء . ولمساء واحد ، في مدينة ريفية ، كانت ديكتاتورية الكلمة هذه — وهي الديكتاتورية الوحيدة التي مارسها — تحقق الوحدة الديموقراطية الحرة لبضع مئات من الرجال ، وهم الوحيدون الذين تسيّسوا . وكان باتريس يعود الى الطائرة ، والهتافات وراءه ، فيطير ، ويفكر : معركة رابحة ؛ وكان كازافوبو الى جانبه يفكر : معركة خاسرة ، فليس للكلمة هذه القدرة . والواقع أن لها القدرة : شريطة ان تكرر الف مرة ، من قبل القادة اولاً ، ثم من قبل المناضلين . ولكن لومومبا كان وحيداً . وحيداً على الأطلاق . فبعد ان تطير الطائرة ، كان الصمت يسود المدينة الصغيرة التي تركها ، ويعود كل فرد الى مصالحه المباشرة ، والى أفكاره المسبقة ، والى فريقه القبلي أو

(١) كان كازافوبو يعرف انه كان يكذب حين جعله مسؤولاً عن أعمال النهب التي قامت بها قوى الأمن ،

المهني الاجتماعي ، ولم يكن ليبقى شيء ، حتى ولا بذرة في قلب . وفي هـــذه الاثناء ، يدور الطاغية في الجو؛ وحين كان يهبط ، كان البيض الصغار يشتمونه، فلا يكون له مفرّ من ان يقبل الحماية المذلة – والقليلة الجدوى – التي يقدمها له اولئك العسكريون البلجيكيون ، وتلك الفرق الاستعمارية التي كان قـــد فضح اعمالها في البرلمان ، والتي كان يطلب في الأمم المتحدة ان تطرح خارج افريقيا . بل لقد حاول الهبوط في كاتانغا ، فأعلمه الضباط البلجيكيون الذين يراقبون المطار انهم سيعتقلونه بمجرد هبوطه . ويريد لومومبـا ان يتجاهلهم ، فيطفيء البلجيكيون جميع الأنوار ، واذا هو ليـل دامس : إنه يُصرف عما لن يكون أثقل وزناً من انتحار . ويعـدل اخيراً ، وتستدير الطائرة . يستدير الكونغو الحرّ اسير الهواء، يمرّ هنا وهناك، كأنه النمس : ذلك ان الكونغو الذي أصبح الآن مركزياً ، ومتوحـــداً في الاستقلال ، يمتزج بلومومبا وحده . لقد تمت اللعبة : فااللجوء الى الأمم المتحـــدة ، وارسال لابسي « القبعات الزرق » ، وانقلاب كازافوبو ، واختطاف موبوتو للسلطة ، هـــذا الشرطي في خدمـــة البلجيكيين والذي يستولي على قيادة قوى الأمن – اي العصابات المسلحة الـتي صادرت المارّ – وتحـيّز هامرشولد الكريه ، ودسائس « يولو » الذي تستعمله الحكومة الفرنسيه : ان جميع هذه الفصول المعروفة ليست الا مراحـــل محنة شديدة لا مفر منها . إن البلجيكين والفرنسيين والانكليز والشركات الكبيرة والسيد هامرشولد ... قد اغتالوا لومومبا بصنائعهم كازافوبو وموبوتو وتشومبي ومونونغو – اما اميركا الشمالية ، الطهرية ، فقـد اشاحت بعينيها حتى لا ترى الدم . فِلمَ هذه الضرورة كلها ؟ أكان ينبغي حقاً ان يقوم الاستعمار الجديـد في الكونغو بواسطة هذه الجريمة ؟ إن ذلك الأسود الطويل ، الهزيـــل ، العصبي ، العامل الذي لا يتعب ، والخطيب الرائع ، قـد فقد سلطاته : لقد كان تفتيت الكونغو ، وهو الحادث الواقعي ، والنتيجة غير المشكوك فيها لثمانين عاماً من الاستعمار « الابوي » ولستة أشهر من المكيافيلية ، يكذب تكذيبـــاً جذرياً الحلم الديموقراطي لرئيس الوزارة : كان قد فقد سلطاته ، الا ربما في ستانليفيل

حيث كان يملك زبائن ، لا أنصاراً . فلو توجه اليها ، فما عساه يفعل اكثر من جيزنغا ، الذي خانه بعد ذلك بقليل ، اثر بضعة انتصارات سريعة ، رئيسُ اركان حربه ، خال لومومبا الذي فضل على وحدوية السياسيين الوحدة المعادة للسلطة الوحيدة الناجعة ، « الجيش الاسود » ؟ ان الامبريالية لا تهتم بحياة البشر : ولكن ما دام النصر بين يديها ، اما كان باستطاعتها ان توفر على نفسها فضيحة ؟ الحقيقة انها لم تكن تستطيع ذلك ؛ فذلك هو سرّ تلك المؤامرات القذرة : لقد كان لومومبا رجل « تنقيل » السلطات ؛ وبعد ذلك على الفور ، يجب ان يختفي .

والسبب هو أنه كان يمثّل ، حيّاً ، الرفض الصارم للحلّ الاستعماري — الجديد . وهذا الحل يتلخّص في حقيقته بشراء السادة الجدد ، بورجوازيي البلاد الجديدة ، كما كان الاستعمار الكلاسيكي يشتري القادة والأمراء والسحرة . إن الاستعمار بحاجة الى طبقة حاكمة تكون واعية بما فيه الكفاية لوضعها الرخص لتربط مصالحها الطبقية بمصالح الشركات الغربية الكبرى . وفي هذا المنظور ، يصبح « الجيش » الوطني، الذي هو رمز السيادة في العيون الساذجة، آلةّ لاستغلال مزدوج : استغلال «النخبة» للطبقات العاملة ، وعبْرها استغلال الرأسمالية الغربية للسود . فهناك القروض والمساعدات : بحيث تصبح حكومة الدولة المستقلة في تبعية تامة للأوروبيين والأميركيين . هكذا اصبحت كوبا عام ١٩٠٠ عقب حرب استعمارية كانت قد ربحتها . ولا يزال النموذج صالحاً : وهو يُستعمل كل يوم . فالغاية هي ان يُحفظ للقارة السوداء مصير أميركا اللاتينية : ضعف الحكومة المركزية ، تحالف البورجوازيين ( أو الاقطاعيين الباقين في أماكنهم ) مع الجيش الذي هو حكومة عليا للتروستات . ولا بدّ من رجال لهذه التركيبة : وسيقوم بالمهمة في الكونغو كازافوبو ؛ إن مطامعه ونزعته الانفصالية — حتى ولو قبل في النهاية اتحاداً على غاية الجبن — تبقي على الخلافات القديمة التي كانت تغذّيها الادارة البلجيكية ، من غير ان يُتّهم البيض هذه المرة بالتدخل . ويستطيع « ايليو » و « ادولا » أن يساعداه : فإن وعيهما

الطبقي هو على مستوى رغائبها : فبالامكان الاعتماد عليها، في منجى من قوات الأمن ، للاجهاز على الدستور وتعجيل تنمية البورجوازية الجديدة . أما المتطورون ، فإنهم حتى الآن لم يكونوا إلا من ذوي الرواتب ، وقد عينتهم الامبريالية وكوّنتهم وأقنعهم أسيادهم أن مصالحهم تنسجم مع مصالح رأس المال: فيجب الآن تعديل الاقتصاد الكونغولي ، وتحويل بعض ذوي الرواتب الى رأسماليين ، والمحافظة على الاقطاعيات القروية ، وإفساح المجال ، حتى في الريف ، للعبة قوى التركيز . هوذا البرنامج ، وهوذا كونغو عام ١٩٦٣ ؛ لقد كان في عامَيْ ٦٠ و٦١ موضوع « التاريخ » ، وليس هو اليوم إلا دمية من أكثر الدمى سلبية . لقد تقرّر مصير كاتانغا بين البلجيكيين والانكليز والفرنسيين والأميركيين والروديسيين ، وبيض افريقيا الجنوبية . وإن المعارك وثورات الفلاحين والحرب والقرارات المفاجئة والمتناقضات التي اتخذتها الأمم المتحدة هي نتائج المساومات التي تمّت بين التروستات وبين الحكومات . ولئن بدا كل شيء مدبّراً اليوم ، ولئن عادت كاتانغا الى الكونغو ، فذلك لأن الولايات المتحدة اتفقت مع البلجيكيين – ضد روديسيا واتحاد افريقيا الجنوبية ومطامع الانكليز والفرنسيين – لتستغل استقلالاً مشتركاً الثروات الكونغولية بواسطة الشركات المختلطة .

ولتنفيذ تسويات دقيقة إلى هذا الحدّ ، فلا بدّ من إزاحة الكونغو من المفاوضات والمناقشات ، وهذا يعني حذف لومومبا . وقد كان هذا الوحيد الذي خانه الجميع ، يظلّ الرمز المجرّد للوحدة الوطنية ؛ كان هو الكونغو في لحظة « تنقيل » السلطات ، تلك اللحظة التاريخية . فقبْلَه لم يكن ثمة إلا مستعمَرة ، لعبة امبرطوريات ممزّقة ، وبعده ، لا يبقى إلا بلدٌ محطّم سينفق أكثر من عشرة أعوام ليستعيد وحدته الوطنية . وكان لومومبا ، وهو رئيس وزارة ، قد خسر واحداً بعد الآخر أعمدته ، وأصبح بقوة الأشياء عميل انفصالية جديدة كان اسمها مركزية . وكان باستطاعته ، وهو أسير ولكنه حيّ ، أن يصبح بين ليلة وضحاها ، مبدأ ونقطة تجميع : كان يبقى شاهد

سياسة ما مُنع من تنفيذها ، ولكن كان يمكن أن تبدو ، لدى السقطات الأولى للحكومة الجديدة ، سياسة تبديل، كتلك التي لم تكن قد قدّمت براهينها لأنه لم يُترك لها الوقت لذلك والتي قد تبدو ، عند الاستعمال ، كالسياسة الوحيدة الممكنة . كان مستاءو الأمس قد توّحدوا ضدّه ، ومستاءو الغد – وهم أنفسهم بلا شك – سيتجمّعون من جديد حوله . فالأسير الذي كان في الماضي معبود الجماهير يبقى إمكانية عارية للتطبيق ؛ ووجوده وحده يحوّل الحسرات الى أمل ؛ وإن مبادئه ، لأنه يبقى أميناً لها ، هي بالنسبة للمعارضين الجدد ، أكثر جداً من رؤية ذهنية ؛ إنها تعيش ، وهي حالية ، وقد أنسَنَها ذلك الذي هو حارسها في زنزانته؛ فهي تصبح موضع تأمّل من الجميع. وسيلاحظ الناس هذا، في « تيسفيل » ، حين يتمرّد الجنود الذين كانوا يحرسونه : فهم يقولون انهم سيتركون لومومبا وشأنه إذا لم تُدفع لهم أجرتهم . وكان أن جُنّ بهذا التهديد قادة ليوبولدفيل ، فتقرّبوا من الكاتانغيين . وتمّ الاتفاق : إن تشومبي سيدفع الأجرة ؛ وبالمقابل ، يسلّمونه لومومبا . وبالاختصار ، كان رئيس الوزارة الساقط ، حتى وهو في سجنه ، ما يزال يشهد بضرورة المركزية . الى حدّ ان سقوطه كان متوافقاً مع اشتعال مفاجىء للاضطرابات والحروب المحلّية .

بل هناك أكثر من ذلك : فمنذ تشرين الاول لوحظت فورةٌ جديدة من الاضطرابات الثورية . وهذه المرة ، كانت القاعدة، الفلاحون والعمال، هي التي تجنّدت للحفاظ على الاقتصاد الاستعماري . ولم يكن لهذه الحركات المتفرقة هدفٌ مشترك : ومع ذلك ، فمن الممكن توحيدها ، فيما وراء الانقسامات القديمة ، إذا جُمعت مطالبها في برنامج مشترك . وليس هذا الخوف مجنوناً : فإن جيزنغا ، زعيم المركزية الجديد، سيتخذ فيما بعد ، تدابير جذرية في ستانليفيل: ستُأفرق التروستات ، وسيراقَب البلجيكيون في مساكنهم ويخضعون لضريبة استثنائية؛ وبعد ستة أشهر، ستصادر الدولة الأملاك المهجورة. وهذه القرارات تسجل التقارب الذي يرتسم بين المطالب الحسّية، ولكن من غير منظور حقيقي للجماهير، وبين الديموقراطية الحرة المجردة « الحركة الوطنية الكونغولية » . ولا

يتمتع جيزنغا بشعبية لومومبا ، ولا بذكائه . فما الذي كان لا يمكن ان يخشى لو أن رئيس الوزارة السابق كان قد فهم هو نفسه انه كان ينبغي الاغتسال ثانية في الجموع، وقطع العلاقة مع المتطورين، واعطاء محتوى اجتماعي لسياسته الوحدوية، وبكلمة واحدة إثارة الشعب ضدخداع الاستعمار الجديد؟ إن هذه هي في الحقيقة المشكلة كلها: إن الديموقراطية الحرة هي نزعة البورجوازية الصغيرة، وهي تربط الاقتصاد بالدمج السياسي وتصطدم من غير انقطاع بمطالب الجموع التي تتهمها بأنها تخرب الوحدة. وهذا النزاع يتيح عادة للأعداء ان يحاربوا واحداً بعد آخر الحركة الوحدوية والحركة الاجتماعية . ولكن اذا اتفق ان عاش الديموقراطيون الأحرار فترة من الزمن — وهـذا نادر — فانهم سيعرفون خيباتهم وينطلقون من جديد : ان الوحدة ليست هي بعد البداءة ، وانما هي فترة وسط، والوسيلة الوحيدة للحم مصالح الجماهير ومطالبها ؛ وهي كذلك الغـاية النهائية لثورة اقتصادية واجتماعية وسياسية ينبغي ان تتجذر بلا انقطـاع خشية ان تنفجر . ولقـد التقيت شباناً مدنيين ، وهم طلاب قدامى متحدرون من طبقات متوسطة ، كانوا أعضاء في حكومـة كاسترو : كانوا ديموقراطيين أحراراً ضد باتيستا ؛ ولكنهم حين اندمجوا مع« المتمردين » لم يجدوا أية مشقة في أن يهجروا موقتاً مثلهم الأعـلى السياسي ، لكي يجدوه فيما بعـد عبر حركة البنـاء الاشتراكي . وقـد مات روبسبير ولومومبا في وقت أشدّ بكرة من ان يستطيعا القيام بالتركيب الذي كان سيجنبهما الهزيمـة . ثم ان الجموع ، في فرنسا ١٧٨٩ وفي كونغو ١٩٦١ ، ظلت في معظمهـا قروية ، وعندنا لم تكن البروليتاريا قد ولدت أو نمت حقاً ؛ امـا في الكونغو، فكانت النزعة الابوية البلجيكية قد ضربتها بالخدر والذهول. وفي كلتا الحالتين، لم يكن للمستغلين الحقيقيين ممثلون ولا جهاز يستطيع ان يطالب السياسيين بالتماس الوحدة في الصراع ضد الاستغلال . ولكن هذا لا يمنـع ان يكون في الكونغو ثلاثة ملايين من العمال السود ؛ فلو قد عاش باتريس ، فما أدرانا أنه ، وقد خذلته طبقته ، لم يكن يتوجه اليهم لينصبهم في وجهها ؟ إن الوهم الذي لم

يفضحه أبداً ، الفكرة المجنونة والبورجوازية « للطبقة العامة الشاملة » ، كانت تستطيع في بعض الظروف ان تسهّل التقريبات : وكان باستطاعة لومومبا ان يتصل بالزعماء المحليين للحركات الثورية التي لم تدركها التعقيدات، من مثل الخجل او التعالي . وكان بامكان النور ، ابتداءً من هذه المساواة المجرّدة، أن ينبثق، وكان بامكانه اخيراً أن يفهم ما سمّوه بـ «رسالة افريقيا الاشتراكية» وما يمكن أن نردّه بصورة أوضح الى هذا التخيير : إما استعمار جديد او سياسة اشتراكية. كان يستطيع ذلك : وأنا استعمل هذه الكلمة لا لكي أشير الى امكانية مجرّدة، بل لكي اعرّف الخوف الذي كان يوحيه ، حتى وهو في السلاسل، لأعدائه. إن الاستعمار متبصّر : فاذا كشف يده للمستعمَرين القدامى ، واذا تمكنوا من أن يحزروا نيّته بأن يخفي وراء مهزلة سياسية المحافظة على سياسة الاستغلال ، فانه يعرف تماماً أن الجموع ستتحد ضد السياسيين شركائه . لقد كان التشوّش الكونغولي شديداً ، ولكن الكونغوليين سيفهمون سريعاً اذا جاء من يوضّح لهم انهم كانوا يخدمون العدو : كان لومومبا قد عرف في وقت قصير ان بلجيكا كانت تخون العهد المعطى، وان« اتحاد المناجم » كان يدبّر ويساعد الانفصالات ضد حكومة المتروبول السابق ، وان جنود الأمم المتحدة المرسلين للمحافظة على النظام كانوا قد حموا كازافوبو الانفصالي وتركوا رئيس الوزارة المركزي تحت رحمة أعدائه : حتى البورجوازي الصغير الذي كان يعترف بأنه يجهل الاقتصاد لم يكن محتاجاً الى وقت طويل ليستنتج الاستنتاجات المزعجة . وبالاختصار ، إن ما كان يخشاه اولاً المتطورون والشركات الكبرى ، تجذير الجموع للومومبا وتوحيد لومومبا للجموع . ويمكن القول إن قتلـه لحم التحالف الحديث بين الاستعمار والبورجوازية الصغيرة السوداء : إن بينهما بعد الآن جثة .

ولكن نفوذ الوزير الكونغولي كان يمتد الى ما وراء حدود بلاده . إنه كان يُظهر ضرورة وجود افريقيا موحّدة . لا على طريقة« الدول »الفاتحة التي تخضع تحت « وحدة » كلمة « هيمنة ». بل على العكس، فان ضعف العهد، وهذه الشجاعة التي لا تتزعزع ، وهذا العجز المقدور ولكن غير المستَحَقّ ،

كل ذلك يلقي على عاتق الدول السوداء واجب مساعدته . وهـذا الواجب الصارم العاجل، ليس من قبيل السخاء والكرم . كما انه ليس من قبيل التضامن المثالي . فالواقع ان الأمم الافريقية كانت تكتشف في الكونغو قدَرهـا ، قدر افريقيا ؛ وكانت البلاد الاستعمارية الجديدة ترى الخداع الذي كان قد حرّرهـا من جميع قيودها ، باستثناء الاستقلال ؛ أما الآخرون ، أولئك الذين تجنّبوا في آخر لحظة «الكنغلة» ، فقد كانوا يكتشفون الميكانيسم ، والدور الذي مثّلته الانقسامات الداخلية في هذا الانهيار ؛ كانوا يعتقدون بان شيئاً ما لم يُنقَد بعد، وانه كان لا بدّ من النضال ضد سياسات الانفصال ، **على صعيد القارّة** ، وإلا لم تنجُ افريقيا من « البَلْقَنة » . وبهذا المعنى كان فشل لومومبا فشلاً للجامعة الافريقية . وقد عرف نكروما الخيبة الأمرّ : كان قد أرسل منذ شهر تموز فرقاً غانيةً الى الكونغو تحت سلطة الأمم المتحدة استخدمتهـا ، بالرغم من احتجاجات غانا ، ضد باتريس لومومبا ؛ وقد علّمته التجربة إذ ذاك ان الأمم المتحدة لم تكن منظّمة نزيهة تصدر قراراتها بتجرّد تامّ حول نزاعات « العالم الثالث » ، بل كانت جهازاً مدبّراً تدبيراً دقيقاً للدفاع في كل مكان من الغرب عن الاستعمار ، حتى ولو كانت الجمهوريات الشعبية والأمم الافريقية الآسيوية قد قُبلت فيها . ولكن افريقيا كلها ، التي استشعرت الذلّ لأنهـا لم تنقذ رجل « أكرا » ، عرفت كذلك المصير المهيّأ « للحياديين » . لقد استنجد لومومبا ، في لحظة غيظ ، وقد أحنقه موقف همرشولد ، بالاتحاد السوفياتي الذي أرسل له طائرات . وقد طبّق ، في تلك المناسبة ، مبدأ الحياد الدقيق : أن يتّصل بجميع الدول ، من غير ان يأخذ طريقة حكمها بعين الاعتبـار ، وأن يقبل أو يطلب ، في حالة طوارىء ، مساعدة فعّالة شريطة أن تكون بعيـدة عن الغايات . ولم يكن بحاجـة لأكثر من ذلك لكي تسارع « البعثات » بتعميده شيوعياً . ولم يقصّر الاستعمار في الادلاء بدلوه : وأعجب ما في الأمر انـه أُخذ بلعبته ذاتها ، واعتبر هذا « المتطوِّر » ابن الأب الكاثوليكي ، المتزوج دينيـاً والأب لأولاد كاثوليك ، عميلاً سرّياً للكرملين . وإذا شئنا أن نحكم على الوضع

حكماً أفضل ، فلنقارن هذا النداء اليائس الذي أطلقه « اليعقوبي » « بلا اختيار اقتصادي » بما استطاع أن يفعله كاسترو في جزيرة ملتصقة بجنب أميركا . ولن نخطىء التقدير : إن نصر كاسترو قد أتاه من انه ترأس ثورة اشتراكية ؛ أما إخفاق الكونغولي ، واسم « الشيوعي » الذي أُلصق به بقصد انه يعيبه ، كل شيء يأتيه بكل بساطة من أنه لم يرد ان يلتزم تعديل البنيــة التحتية لبلاده . وقد فهمت افريقيا : فحين يطلب رئيس حكومة «مستقلة»عوناً من السوفيات، يُقيله الغربيون . إن الحياد سيبقى تصريحاً مبدئياً غير مجد ، ما لم تتحد دول القارّة السوداء لفرضه .

إن لومومبا الحيّ الأسير هو عارُ قارّة برمتها وسورة غضبها : انه حاضر للجميع كمطلب لا يستطيعون تنفيذه ولا إبعاده ؛ وفيه يكتشف كل فرد قدرة التركيبة الاستعمارية الجديدة وشراستها . إذن يجب التخلص من هــذا بأسرع وقت ؛ ان الاستعمار يكشف يديه عــــاريتين : فمن مصلحة ممثليه الرئيسيين كازافوبو وموبوتو المسكين ألا يكونا ، أمام سكان بلادهما ، قد سفكا هذا الدم . فاذا بتشومبي هو الذي يَقتل : إن « اتحاد المنــــاجم » والمستعمِرين ، على أي حال ، قد أحرجاه وورّطاه ، وهو قد تحمّس حماسة شديدةليبيع نفسه،بحيث لا بد عما قريب من تصفيته هو أيضاً . إنهم يحذفون زنجياً أسود جعلوه رئيس وزارة فحمل مهمته على محمل الجدّ ؛ ويكلفون كازافوبو من جديــــد بتشكيل وزارة . وافترض ان الميت ، كما يرجــــون ، أقل ازعاجاً من الحيّ : فالمتوفى يُنسى ؛ ما عسى ان يُعمل له ؟ وبه ؟ إن كل حجّة لدعوة اخوته الى صليبيــــة تحريرية ، ستُنتزع من الافريقيين المهتاجين اكثر مما ينبغي ، بفعل ضربة الحربة التي يُقال بأن « مونونغو » سيتكفل بتوجيهها . ان هذا هو الحساب ، على أي حال . وواضحٌ انه خاطىء .

إن لومومبا ، وقد مات ، يكفُّ عن ان يكون شخصاً ليصبح افريقيــــا قاطبة ، بارادتها الوحدوية وتنوع اوضاعهــا الاجتماعية والسياسية ، وطبقاتها ، ومنازعاتها، وقوتها وعجزها: انه لم يكن ، وما كان يستطيع ان يكون، بطل

الجامعة الافريقية ، فكان شهيدها . وقد ألقى تاريخه النور ، أمام الجميع ، على الرابطة العميقة للاستقلال والوحدة والنضال ضد التروستات. وإن موته — وهنا أتذكر فانون في روما الذي هلع له — هو صرخة إنذار ؛ إن القارة كلها تموت بموته لكي تبعث من جديد ؛ ولقد فهمت الأمم الافريقية : إن ما كانت تقوله « اكرا » تنتهيا « اديس ابابا » لفعله ؛ ان هـذه الأمم ستحقق جهازاً مشتركاً يتيح لها ان تساعد كل نضال ثوري في كل بلد لم يظفر بعدُ باستقلاله . إن الوحدة هي الحرب ، وتحت تأثير الجزائر ، يزداد البعض فهماً بأنهـا هي ايضاً الثورة الاشتراكية .

إن الكونغو لم يخسر إلا معركة . وفي ظـل الجيش الكونغولي ، ستعمد البورجوازيه الكونغولية ، هذه الطبقة المكونة من الخونة والمباعين ، الى إنجـاز عملها ونصب نفسها كطبقة استقلالية . وسيضع الأستقطاب الرأسمالي تدريجياً حداً للاقطاعيات ، وسيوّحد المستغَلين ، بحيث تبرز جميع الاوضاع التي تخلق كاسترية جديدة . ولكن الكوبيين يمجدون ذكرى « مارتي » الذي مات في نهاية القرن المـاضي من غير ان يشهد انتصار كوبا على اسبانيـا ، ولا إخضاع الجزيرة لاستعمار الولايات المتحدة، واذا شاء الكاسترو الكونغولي ، بعد أعوام، أن يعلم جماعته ان الوحدة تؤخذ أخذاً، فسيذكر شهيدها الأول لومومبا[1].

(١) « لومومبا والاستعمار الجديد » مقدمة لـ « خطب لومومبا » (نشر بريزانس افريكين)

# الفهرس


https://telegram.me/maktabatbaghdad


مكتبة بغداد